دكتور
محمد إبراهيم شريف
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

# من هدى القرآن الكريم

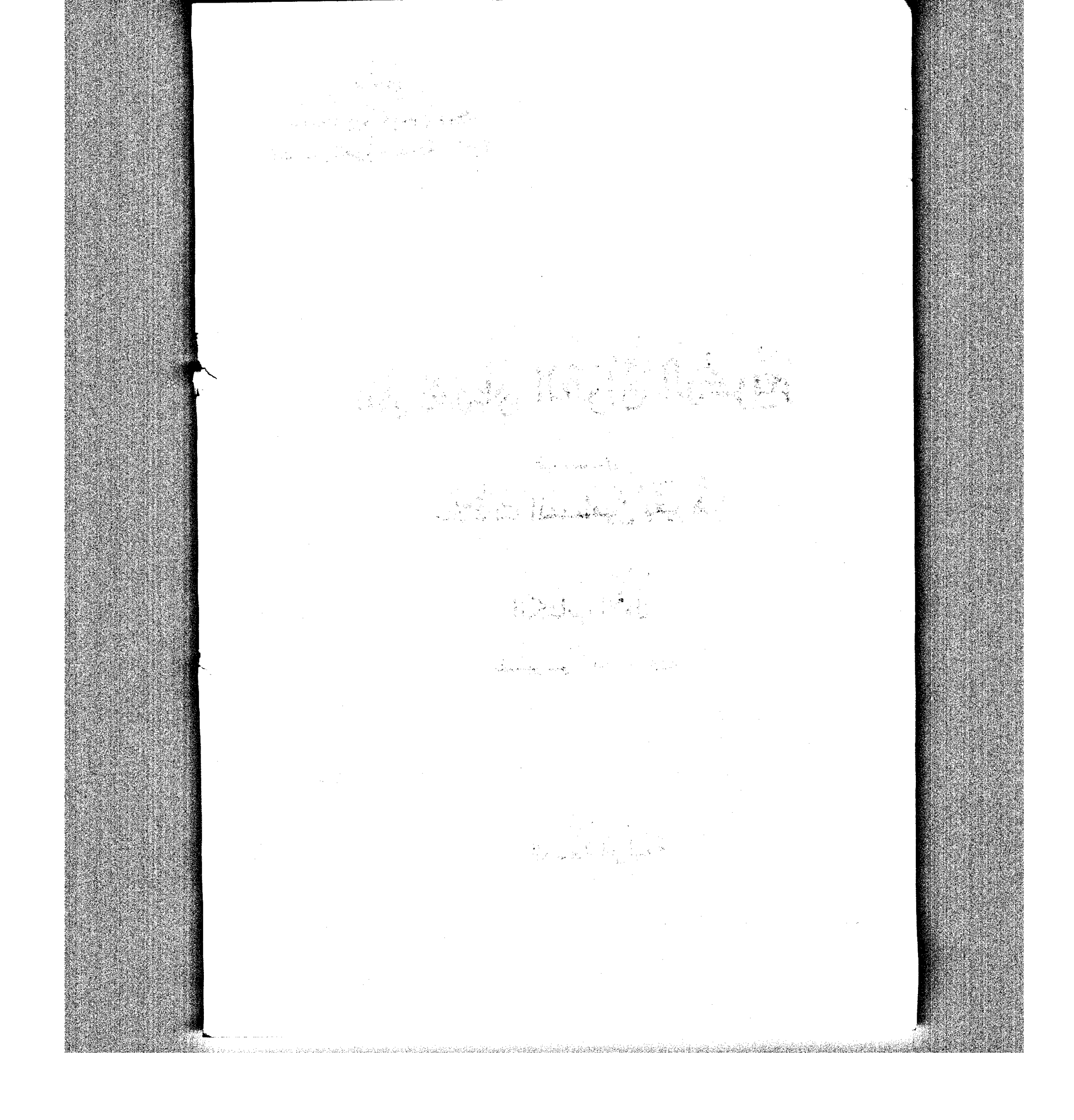
## فى

## علاقات المسلمين بغيرهم

### الكتاب الأول

تفسير سورة محمد ﷺ

الطبعة الرابعة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

( الصف ١٠ - ١١ )

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمَ ﴾

( الأنفال ٦٠ - ٦١ )

صدق الله العظيم

# مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد .

فلا يخطئ قلب المسلم الراصد لأحوال المسلمين في العصر الحديث ما يعانونه من أثقال العصور الماضية وما أخطأوه من تعاليم الإسلام وتكاليفه وتنكبهم الطريق الصحيح في حمل الأمانة التي وكلت إليهم ، كما لا يخطئ عقل المفكر منهم تسجيل تلك الصحوة والعاطفة الدينية التي غشيتهم بعد طول ثبات ورقود ، فإذا هم حيارى بين ما انتهت إليه أحوالهم التي سبقتها الدنيا وبين مثالهم الذى يأملون ويحلمون أن يكونوا عليه .

ولامشاحة أن تتوطن القلوب - مع هذه الصحوة - نشوة الأمل نحو المثال ، واليقظة الدائمة لناشئة الأمة للوصول إليه وتحقيقه في نفوسهم فذاك شأن عباد الرحمن الذين « إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً » ( الفرقان ٧٣ ) ، وتلك سجية المؤمن التي توجه سلوكه في نفسه ونحو خالقه ومع الجماعة الإنسانية بعامة ، وتسيطر عليه تلقائيا لرسوخها في عقيدته فلا يحيد عنها سرا أو علنا .

غير أن الآمال لا تتحقق بالأماني والعواطف والسجايا الحميدة فحسب ، أو يكتفى معها بحلو الكلام وترديد المبادئ واجترار الأمجاد تلك التي تدخل بأصحابها فى دائرة المقت والازدواجية البغيضة التي شجبها

توجه الإسلام في قوله تعالي :

« لِمَ تَقُولُونَ مَا لَاتَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَاتَفْعَلُونَ » ( الصف ٢ - ٣ ) .

وأرانا اليوم إن آثرنا الأماني والعواطف أو اكتفينا بحلو الكلام وترديد المبادئ ودخلنا دائرة المقت - قد انتكست هويتنا الإسلامية ، وأكدنا - قبل غيرنا - وصمتنا بالرجعية الجامدة في إيماننا بقيم عليا تعطى الإنسان قيمته وترتفع به فوق مستوي البهم والدواب ، واتهمنا - قبل غيرنا - فكرنا الديني ، وكأن لم يكن - لعصور خلت - رقيبا علي الإنسان فى خلقه وسلوكه ، وكأن الأمة لم تجد من زاده ما حررها من أغلال الشرك ومهانة العبودية لغير الله ، ففتحت الدنيا وحققت وجودها الحر وحملت لواء الإسلام منارا لحضارة رائدة قائدة .

فهل نظل حياري مشدوهين محصورين في دائرة الأماني وأوطاننا من حولنا تتآكل وتتصدع وتسام شعوبها الخسف والهوان دون بارقة أمل في استرداد حقوق ضائعة أو حمايتها من طغمة طامعة ؟ ، أم ترانا بحاجة ملحة - فيما فرطنا من أمرنا وما غشينا من الجهل بإسلامنا وانحرافنا عن أصيل مبادئه وعزوفنا عن نقي نبعه إلى ما تعرض له من تشويه وتكدير - أن نتدبر أنفسنا من جديد ، ونعيد النظر فيما نحن عليه اليوم ، ونأخذ ما أتانا الله ورسوله بقوة ، وبعبارة القرآن الكريم نفسه أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله مابنا ؟ .

وما بالأنفس كثير من الأفكار والمفاهيم والقيم والمعايير وغير ذلك من تكاليف الدين ومهماته المعطلة والمغيبة تلك التى تضبط نشاط

النفوس وحركة الأمة فيما تأخذ به نفسها من يقظة وسعى وتعبئة واحتشاد وتهيؤ للفلاح الموعود ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ( المائدة ٣٥ ) .

وشرعة الجهاد - من بين هذه التكاليف والمهمات في القرآن الكريم وإن كانت حقا لامراء فيه إلا أنها تحتاج إلى تفصيل دقيق بعد أن أصبحت عند المسلمين من مشكلاتهم الملحة ، إذ إن فهم المسلمين لها لم يعد على أصالته ووضوحه ، بل ربما كان فهم بعضهم لها على عكس حقيقتها لاسيما بعد هذا الركود الطويل الذي جعل كثيرا من الخرافات والنظرات الخاطئة تحمل قوة احترام الإسلام والقرآن عند المسلمين .

وحاجتنا إلى إدراك مفهوم الجهاد تتجاوز معرفة أنه عبادة فى شريعة الإسلام فعامة المسلمين ليسوا بحيث يجهلون ذلك ، كما أن الجهاد فى سبيل الله ليس على الفهم الشائع استبسالاً فى قتال العدو فحسب ، بل يتسع مفهومه كثيرا ليشمل أنشطة عدة وميادين متنوعة حربا وسلما تستهدف كلها تعبيد سبل الحق والخير والعدل .

فـ « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله ، ومن جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا » ، والقيام على حق الوالدين وبرهما وإحسان صحبتهما جهاد ، والساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله .

ويكون الجهاد بحمل أمانة الكلمة أمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر وشهادة بالحق دون خشية من غضبة غاضب أو سطوة متجبر لأن الساكت

عن الحق شيطان أخرس ، وقد حاقت اللعنة بكفار بني إسرائيل أن كانوا لايتناهون عن المنكر ، وفي تاريخ الإسلام جنود لكلمة الحق وشهداء لم يفرطوا فيها وصدقت فيهم كلمة رسول الله ﷺ « ماتزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس » .

ويكون الجهاد كذلك بتحصيل العلم ونشره في الناس يحمل هذا الدين من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين ، وقد مضى الأئمة من السلف الصالح على الاشتغال بالعلم والتعليم عبادة وجهادا ، ومن رأي الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله ورأيه .

وتتعدد ميادين الجهاد في سبيل الله ووسائله ومقاصده كثيرا كما ينبئ عنه دوران واستعمال مادة الجهاد وما في معناها في القرآن الكريم ، وفيما نحن بصدده صورة من هدى القرآن الكريم في جهاد الكفار والمنافقين وعلاقة المسلمين بهما حربا وسلما وتأسيس هذه العلاقة على موقفهما من دعوة الإسلام والمسلمين كما عرضت ذلك سورتا محمد ﷺ ، والفتح ، وهما من أبرز سور القرآن الكريم وأقصرها التي عرضت لهذا الموضوع في كلا جانبيه الحربى والسلمى ، ولعلنا نكون بوقفتنا مع هذا الموضوع قد صححنا فهمنا لمبدأ إسلامي هو علاقة المسلمين بغيرهم فى كلا وجهيها السلمي والحربى وهو مبدأ ظلت صورته مضطربة فى أذهان كثير من شباب المسلمين وناشئتهم .

والله من وراء القصد وما التوفيق إلا بالله .

المؤلف

## بين يدى السورة

### ١ - اسم السورة

هذه السورة من سور القرآن الكريم التى تعددت أسماؤها ، وقد وردت تسمياتها على ألسنة الصحابة ( رضوان الله عليهم ) .

فمن هذه الأسماء محمد - ﷺ - ولعل هذا الاسم مما سمع عن النبى - ﷺ - لكثرة تردده وروده على ألسنة الصحابة ، فقد أخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : نزلت سورة محمد بالمدينة[١] ، وأخرج ابن مردويه عن علىّ كرم الله وجهه أنه قال : نزلت سورة محمد آية فينا وآية فى بنى أمية[٢] .

وقد ورد هذا الاسم صريحاً على لسان رسول الله ﷺ حين سأله على بن أبى طالب عن ترتيب سور القرآن الكريم من حيث نزولها فأخبره بترتيب كل سورة سورة - باسمها - على نحو ما أنزلت من السماء[٣] .

---

(١) راجع : فتح القدير - الشوكانى ٥ / ٢٨ .

(٢) راجع : روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٦ ، وفى صحة هذا الخبر عن علىّ نظر ، ويكفينا فيه ورود تسمية السورة على لسان الإمام ، نعم لكفار بنى أمية الحظ الأوفر من عمومات الآيات فى الكفار ، كما أن لأهل البيت رضى الله تعالى عنهم المعلى والرقيب من عمومات الآيات التى فى المؤمنين ، ولا مزيد من القول على ذلك ، فما بينهم من ترات وإحن يسعنا فيها ما وسع المسلمين على عهدهم ، أو كما قال قائلهم : هذه دماء طهر الله أيدينا منها فلا ينبغى تلويث ألسنتنا بالخوض فيها .

(٣) راجع الرواية بطولها عن سعيد بن المسيب عن علىّ فى : مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٣ - ١٥ .

وملحظ تسمية السورة باسم النبى محمد - ﷺ - أنها قررت أن الإيمان بما نزل على محمد متفرقاً أعظم من الإيمان بما نزل مجموعاً على سائر الأنبياء عليهم السلام ، وهو من أعظم مقاصد القرآن[1] .

ومن أسماء السورة كذلك القتال وقد ورد ذلك على لسان ابن عباس رضى الله عنهما كذلك فيما أخرجه ابن الضريس قال : نزلت سورة القتال بالمدينة[2] .

وملحظ تسمية السورة بهذا الاسم أن الأمر بقتال المسلمين للذين كفروا وضرب رقابهم جاء فيها واضحاً وصريحاً ، كما ورد فيها بصدد هذا الأمر التشريعات المتعلقة بالأسارى وأوضاعهم المترتبة على الأمر بالقتال كما هو واضح فى صدر السورة .

ومن أسمائها كذلك سورة « الذين كفروا » وهو ما جاء على لسان ابن الزبير فيما أخرجه عنه ابن مردويه قال : نزلت بالمدينة سورة الذين كفروا[3] .

**ب - تنزلات السورة ومدنيتها**

نزلت سورة محمد بعد سورة الحديد ، وتأتى فى المرتبة الخامسة والتسعين من حيث نزول سور القرآن الكريم ، كما يأتى ترتيبها فى المصحف الشريف من حيث التوقيف والتلاوة فى المرتبة السابعة والأربعين بعد سورة الأحقاف آخر آل حم .

---

(١) راجع : محاسن التأويل - جمال الدين القاسمى ١٥ / ٥٣٧١ .

(٢) راجع : فتح القدير - الشوكانى ٥ / ٢٨ .

(٣) راجع : فتح القدير ٥ / ٢٨ .

ويتضح من الروايات السابقة أن السورة مدنية ، وعامة نزول آياتها بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، كما يؤكده تاريخ نزول السورة وترتيبها فى السور المدنية فى مصحف الإمام وغيره من مصاحف الصحابة التى عنيت بترتيب السور على تاريخ نزولها قبل الاجتماع على مصحف عثمان الإمام وترتيبه التوقيفى الذى هو عليه الآن[1] .

هذا ولم يشذ عن القول بمدنية السورة إلا ما قاله الثعلبى : إنها مكية ، وحكاه ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير ، وهو غلط من القول كما قال الشوكانى[2] .

والذى يؤكد شذوذ هذا القول وغلطه - كما يؤكد القول بمدنية السورة - ما جاء فيها بشأن القتال والأسرى والنفاق ، فما كان قبل الهجرة إذن بالقتال ، وحيث لا قتال فلا مجال للأسر ، وما كان ضعف المؤمنين بمكة قبل الهجرة ليحمل أحدا من الكفار على أن ينافقهم ، فيظهر الإسلام وقلبه منطو على الكفر ، كما يرشح لهذا القول - أخيراً - خطاب الله تعالى لنبيه فيها وتذكيره بما حدث له قبل من أهل مكة وإخراجهم له منها بقوله تعالى : « وَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ » ( محمد ١٣ ) .

(١) راجع : مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٣ - ١٥ ، موقف القرآن الكريم من المشركين قبل الهجرة ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) راجع : فتح القدير ٥ / ٢٨ ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن - القرطبى ١٦ / ٢٢٣ .

وهل السورة مدنية بتمامها دون إستثناء لشئ منها ؟

هذا ما عليه الأكثرون ، وحكى الماوردي عن ابن عباس وقتادة أنها مدنية إلا آية منها نزلت عليه ﷺ بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً عليه فنزل عليه « **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ** »[1] ، وفى رواية أخرى أنه ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار – يعنى بداية مهجره ﷺ التفت اليها وقال : أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله تعالى إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك لم أخرج منك » فأنزل الله تعالى ذلك[2] ، أى أنها نزلت فى سفر الهجرة[3] ، ولكن سياق الآية وارتباطها بما قبلها وما بعدها يؤكد أنها مدنية ، ويحول دون قبول هذا الرأى .

ولو صحت الرواية الأولى سبباً فى نزول الآية لما أخرجتها عن مدنيتها باعتبار أن وقت الهجرة هو الزمن الفاصل بين ما نزل قبلها من الآيات والسور المكية ، وما نزل بعدها من الآيات والسور المدنية ، وهو الاعتبار الغالب على غيره عند العلماء .

ولو صحت الرواية الثانية سبباً فى نزول الآية لكانت من مكىّ الآيات حيث لم تكن الهجرة قد تمت بعد ، وهذا وذاك مما يتفق مع ما قرره العلماء

(١) راجع : فتح القدير ٥ / ٢٨ ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن – القرطبى ١٦ / ٢٢٣ .

(٢) راجع : روح المعانى – الألوسى ٢٦ / ٣٦ .

(٣) الإتقان – السيوطى ١ / ٣٢ – ٣٤ .

من ضوابط فى هذا الشأن ، أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده إلى يحيى ابن سلام قال : ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى ﷺ المدينة فهو من المكىّ ، وما نزل على النبى ﷺ فى أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنىّ ، قال السيوطى : « وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكىّ اصطلاحاً »[1] .

وإنما قلنا عن الروايتين لو صحت كل منهما ؛ لأنه لم يرد فى كتب أسباب النزول المعتبرة ما يشير إلى نزول هذه الآية وارتباطها بواقع أو ظرف معين ارتباط السبب بالمسبب ، إنما الظرف الذى أوردته كل من الروايتين هو مما تنطبق عليه الآية بعموم لفظها الذى يمكن انطباقه على ظرف آخر كانصرافه ﷺ هو والمسلمين معه عن دخول مكة عام الحديبية عندما صدهم المشركون عنها ، وقد نبه العلماء على مثل هذا ، وأنه ربما صرح الصحابى بقوله : نزلت هذه الآية فى كذا وأراد أن حكمها يتعلق بهذا الذى ذكره سواء أكانت قد نزلت عقبه أو لا ، فلا يكون قوله هذا نصاً فى سبب النزول[2] .

على أن فى قضية تداخل المكى فى المدنى من السور القرآنية ، وتداخل المدنى فى المكى منها - نظراً آخر ، هو أن الأصل فى السور المكية أن تكون كل آياتها مكية ، وكذلك السور المدنية وهذا يقين ، والاستثناء الذى يذكر هنا أو هناك خروج على الأصل وصرف عن اليقين ، فلا يؤخذ به

---

(١) الإتقان - السيوطى ١ / ١٢ .

(٢) راجع : التعريف بالقرآن والحديث - محمد الزفزاف ص ٧٠ ، أسباب النزول - الواحدى ٤٠٢ ، مباحث فى علوم القرآن - مناع القطان ٨٥ ، ٨٧ .

إلا إذا ثبت ثبوتا يقينياً لا يقبل الشك بحال ، يقول ابن الحصار : « كل نوع من المكى والمدنى منه آيات مستثناة ... إلا أن من الناس من اعتمد فى الاستثناء على الاجتهاد دون النقل »[1] وبدهىّ أن الاجتهاد وحده كما أفادته عبارة ابن الحصار الأخيرة - لا يصلح أن يكون أساساً لبناء الحكم بالاستثناء فى مثل هذه القضايا المبنية فى وثاقتها والاطمئنان لها على أزمنة وأمكنة بعينها ، وتناقل الرواة أخبارها عمن عاصروها وعايشوا الظروف والأحوال إبان نزولها ، هذا فضلا عما فى آيات القرآن الكريم عموما من اشتباه المعانى والأغراض ، وهى صالحة لأن تنطبق فى غالب الحالات على كل زمان ومكان .

ووضع الآية فى سورة معلومة التاريخ هو فى الحقيقة خير سبيل لتعيين تاريخها ، فلا يصح انتزاعها من هذا التاريخ إلا إذا ثبت عن طريق النقل الصحيح أنها نزلت فى تاريخ آخر وفى ظروف أخرى ، ولقد ذكر العلماء من الآيات المستثناة كثرة كثيرة ، وأورد السيوطى فى الإتقان معظمها[2] ، ولكن بالنظر - على هذا النحو - فى كثير مما استثنوه يتأكد لنا بطلان هذا الاستثناء ، لاعتماده على الاجتهاد وحده كما قال ابن الحصار - حتى ليمكن القول بعد ذلك إن سور القرآن النازلة بمكة لا تشتمل على آيات نزلت بالمدينة ، كما أن سور القرآن النازلة بالمدينة لا تشتمل على آيات قد نزلت بمكة[3] .

---

(١) الإتقان - السيوطى ١ / ٢٣ .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن - السيوطى ١ / ٢٣ - ٢٨ .

(٣) راجع : موقف القرآن الكريم من المشركين قبل الهجرة ص ١٠٩ .

أما وقت نزول سورة محمد ﷺ تحديداً ، فمن المرجح تأخر نزولها إلى ما بين السنتين الخامسة والسادسة للهجرة ؛ إذ تؤكد ترتيبات سور القرآن الكريم من حيث نزولها فى المصاحف التى عنيت بذلك أنها نزلت بعد كثير من نزول أطول السور المدنية كالبقرة وآل عمران والنساء ، بل تأخر نزولها إلى ما بعد نزول سورة الأحزاب بأربع سور من بينها النساء[1] ، ومن المؤكد الذى لا يقبل الجدل نزول سورة الأحزاب فى نهاية السنة الخامسة للهجرة ؛ لأن بها حديثا طويلاً عن إلغاء ظاهرة التبنى وتزويج النبى بمطلقة ابنه بالتبنى زيد بن حارثة ، وحديثاً أطول عن غزوة الخندق ( الأحزاب ) ، وكل ذلك قد وقع فى سنة خمس للهجرة على ما صححه ابن قيم الجوزية ، وقطع به الذهبى واعتمده الحافظ ابن حجر العسقلانى[2] .

ومن الأدلة على ذلك أيضاً أن الأمر بقتال الكفار عند ملاقاتهم ما كان له أن يكون والمسلمون مازالوا فى المدينة يتعرضون لهجوم المشركين عليهم حتى ليضطروا الى حفر الخندق حولها للدفاع عنها ضد هجمات المشركين وحلفائهم ، أما المعقول فهو أن يكون ذلك الأمر قد وقع بعد تملك المسلمين لزمام المبادأة وتحول ميزان القوة فى صالحهم بعد هزيمة المشركين وحلفائهم فى غزوة الخندق ، ويأسهم من أن ينالوا من الرسول ﷺ والمسلمين منالا ، وهو الأمر الذى قرره رسول الله ﷺ فى قوله : « لن

(١) راجع : مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٠ - ١٥ .

(٢) راجع : فتح البارى شرح صحيح البخارى ٧ / ٣٩٣ .

تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم »[١] .

وإذا ما اعتمدنا تقسيم أبى القاسم النيسابورى نزول القرآن الكريم إلى ست مراحل زمنية : ثلاث منها فى مكة وثلاث بعدها فى المدينة[٢] - أمكن القول أن نزول سورة محمد كان فى بداية المرحلة المتوسطة بالمدينة التى شغلها نزول سور : محمد ﷺ الطلاق ، الحشر ، النور ، المنافقون ، المجادلة ، الحجرات ، وهذا يعنى أن نزول السورة وما جاء بها من أحكام شرعية قد تم بعد استقرار كبير لأوضاع المسلمين السياسية والاجتماعية والأمنية مما يطمأن معه إلى إحكام آيات السورة وأبدية ما اشتملت عليه من تشريعات دينية ودنيوية .

هذا وقد دأب بعض المفسرين على الربط بين بداية السورة القرآنية ونهاية سابقتها فى ترتيب المصحف - مع أن هذا الترتيب توقيفى لا اجتهادى على ما عليه جمهور العلماء[٣] - وذلك مثل ما قاله الفخر الرازى : « أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ، فإن آخرها قوله تعالى : « فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ »[٤] (الأحقاف ٣٥)

---

(١) الحديث صحيح بلفظه كما قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ، وهو عند الإمام أحمد والبخارى بمعناه عن سليمان بن صرد فى باب ما جاء فى غزوة الخندق ، قال صاحبا الفتح : أخرج البزار بإسناد حسن عن جابر بن عبد الله شاهدا للحديث ولفظه أن النبى ﷺ قال يوم الأحزاب وقد جمعوا له جموعاً كثيرة : لا يغزونكم بعد هذا أبدا ، ولكن أنتم تغزونهم » . راجع : تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٣ / ٤٧٧ ، فتح البارى ٧ / ٤٠٥ ، الفتح الربانى ٢١ / ٧٩ .

(٢) قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى : « من أشرف علوم القرآن الكريم علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطاً وانتهاء ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدنى وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ... » راجع : البرهان - الزركشى ١ / ١٩٢ ، الإتقان - السيوطى ١ / ١٢ - ١٣ .

(٣) راجع : أسرار ترتيب القرآن - السيوطى ص ٦٨ - ٧٣ .

(٤) راجع : التفسير الكبير - الفخر الرازى ٧ / ٥٠١ .

، وكقول الألوسى : « لا يخفى ارتباط أولها بآخر السورة قبلها واتصاله وتلاحمه بحيث لو سقط من البين البسملة لكان متصلاً واحداً لا تنافر فيه كالآية الواحدة آخذا بعضه بعنق بعض »[1] .

ولقد عنى برهان الدين البقاعى بهذا الموضوع عناية فائقة ، وتعمق فى إبراز أسرار ترتيب القرآن ، وأقام تفسيره للقرآن الكريم عليها وهو فى ست مجلدات كبار ويعرف بـ « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » ، وقد عرف هذا من قبل بعلم المناسبات وألف فيه علماء كبار ، منهم ابن العربى ، وأبو جعفر بن الزبير شيخ أبى حيان صاحب البحر المحيط ، والفخر الرازى ، وللسيوطى فيه كتب عدة منها تناسق الدرر فى تناسب السور[2] .

وقد نبه العلماء قديماً على إهمال علم المناسبة مع أهميته ، ولفتوا الأنظار إلى احتوائه على لطائف القرآن حتى إنهم عدوا ذلك من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، يقول الفخر الرازى : « من تأمل فى لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الأسرار »[3] .

---

(١) راجع روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٦ ، وانظر : تفسير المراغى ٢٦ / ٤٣ ، أسرار ترتيب القرآن - السيوطى ص ١٣١ .

(٢) حقق هذا الكتاب عبد القادر عطا تحت عنوان : أسرار ترتيب القرآن - نشر دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٦ م .

(٣) راجع : أسرار ترتيب القرآن - السيوطى ص ٤٠ .

والرأى المعول عليه أن كل سورة وحدة مستقلة ، وأن أسباب الربط التى يعتبرها المفسرون ويعتمدونها لا تخص سورتين دون غيرهما من السور ، فما قاله المفسران الكبيران هنا وغيرهما يمكن قوله بين أية سورتين أخريين ، كما أن هذا الربط لا يقوم على معيار بعينه ، أو يمكن اضطراده فى تلمس هذه العلاقة بين السور ، فليس هناك من داع لتكلف مثل هذه العلاقات واعتسافها التى إن صحت فى بعض المواضع ولاقت قبولاً ، فهى محجوجة وغير مقبولة فى كثير منها .

**جـ - آيات السورة وفضائلها :**

وعدد آيات سورة محمد ثمان وثلاثون آية ، كما هى عليه فى المصحف ، وذلك فى عدّ الكوفيين الذين حصرت آيات القرآن الكريم على عدّهم ، وعدتها عند الحجازيين والدمشقيين تسع وثلاثون آية ، أما عند البصريين وأهل حمص فهى أربعون آية[1] ، والخلاف بينهم فى قوله تعالى : « حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » ، وقوله تعالى : « لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ »[2] ، وقد نص أبو عمرو الدانى على تمام الوقف فى الأول وأنه رأس آية فى غير الكوفى[3] .

---

(١) راجع : التبصرة فى القراءات السبع - مكى ص ٥٠٨ ، غيث النفع - الصفاقسى ص ٣٥٣ .

(٢) راجع : روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٦ .

(٣) راجع : المكتفى فى الوقف والابتداء - الدانى ص ٥٢٣ .

وقد روى فى فضل السورة بعض الآثار منها ما أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر أن النبى ﷺ كان يقرأبهم فى المغرب « الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ »[1] .

هذا ويجب أن يتنبه إلى ما روى فى هذا الباب ؛ إذ إن الصحيح فيه قليل باعتبار الجملة وفى بعض السور بالتعيين[2] ، وعامته ضعيف أو موضوع اختلقه أصحاب الأحاديث الكاذبة والأخبار الباطلة فى فضل سور القرآن وغير ذلك من فضائل الأعمال ، وقد وضعها جماعة حسبة كما زعموا يدعون الناس إلى فضائل الأعمال كما روى عن أبى عصمة نوح بن أبى مريم المروزى ، ومحمد بن عكاشة الكرمانى وغيرهما ، قيل لأبى عصمة : من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس فى فضل سور القرآن سورة سورة ؟ فقال : إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى محمد بن إسحق فوضعت هذا الحديث حسبة[3] .

وقد ذكر الحاكم وغيره من شيوخ المحدثين : أن رجلاً من الزهاد انتدب فى وضع أحاديث فى فضل القرآن وسوره ، فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : رأيت الناس زهدوا فى القرآن ، فأحببت أن أرغبهم فيه ، فقيل له : فإن

---

(١) راجع : فتح القدير - الشوكانى ٥ / ٢٨ ، روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٦ .

(٢) راجع : البرهان فى علوم القرآن - الزركشى ١ / ٤٣٢ .

(٣) راجع : التذكار فى أفضل الأذكار - القرطبى ص ٢٠٩ .

النبى ﷺ قال : من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »[1] ؟ فقال : أنا ما كذبت عليه ، إنما كذبت له[2] .

ومثل هذين الحديث الطويل الذى ذكره الواحدى تبعاً لأستاذه الثعلبى بسنده عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ فى فضل القرآن سورة سورة - والذى منه : من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة[3] ، ولقد خطأ ابن الصلاح الواحدى المفسر وكذا من ذكر هذا الحديث الموضوع من المفسرين وأودعوه تفاسيرهم ، وقال : وقد بحث باحث عن مخرجه حتى انتهى إلى من اعترف بأنه وجماعة وضعوه وإن أثر الوضع عليه لبيّن ، وكذا أنكره أبو بكر بن العربى فقال : وقد أقحم الناس فى فضل القرآن وسوره أحاديث كثيرة منها ضعيف لا يعول عليه ومنها ما لم ينزل الله بها من سلطان[4] ، كما سجل الشوكانى اغترار من ذكره من المفسرين فقال : وقد اغتر به جماعة من المفسرين فذكروه فى تفاسيرهم كالثعلبى والواحدى والزمخشرى[5] .

(١) متفق عليه أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى إثم من كذب على النبى ، وأخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى فى باب التثبت فى الحديث . راجع : فتح البارى ١ / ٢٠٢ ، صحيح مسلم ٤ / ٢٢٩٩ .

(٢) راجع : التذكار فى أفضل الأذكار - القرطبى ص ٢١٠ .

(٣) انظر المخطوطة المحققة لتفسير الوسيط للواحدى صدر تفسير سورة محمد ، الكشاف - الزمخشرى ٣ / ٥٤٠ .

(٤) راجع : التذكار - القرطبى ص ٢١٠ .

(٥) راجع : الفوائد المجموعة - الشوكانى ص ٢٩٦ .

وقد اعتذر الزركشي وغيره عن الثعلبي والواحدي بقولهم : لكنهم ذكروه بإسناد ، فاللوم عليهم يقل بخلاف من ذكره بلا إسناد وجزم به كالزمخشري فإن خطأه أشد[١] .

وهذا الاعتذار من الزركشي فيه نظر ؛ لأنه لا يجوز إيراد مثل هذا الحديث الذى اتفق العلماء بالحديث على وضعه[٢] ، متى ظن أو علم حاله من ناحية هذا الوضع إلا إذا كان إيراد هذه الرواية مقروناً ببيان وضع هذا الحديث والقدح فيه والتنفير منه ليحذره من قد يغتر به من الجهلة والعوام ، ومن هنا يستوى الثعلبى والواحدى اللذان رويا الحديث بسنده فى الحكم مع الزمخشرى والبيضاوى اللذين ذكرا الحديث دون سند ؛ لأن الأولين لم ينبها على وضع الحديث ، ولم يحذرا الناس من مثل هذا الحديث أو الاغترار به .

والمتأمل فى نصوص هذا الحديث يدرك لأول وهلة ركاكة أسلوبه فى كثير من مواضعه مما ينأى به بعيدا عن مشكاة النبوة ويمتنع معه أن يصدر ممن أوتى جوامع الكلم وشهد ببلاغته وفصاحته أهل اللغة وأساطينها[٣] .

---

(١) راجع : البرهان فى علوم القرآن - الزركشى ١ / ٤٣٢ ، تدريب الراوى - السيوطى ١ / ٢٨٩ .

(٢) نقل هذا الاتفاق كل من ابن تيمية فى كلامه عن الأحاديث الموضوعة فى فضائل القرآن حيث قال : « وفى التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة مثل الحديث الذى يرويه الثعلبى والواحدى والزمخشرى فى فضائل السور سورة سورة فإنه موضوع باتفاق أهل العلم » ، والشوكانى فى حديثه عن طرق هذا الحديث حيث قال : « ولهذا الحديث طرق كلها باطلة موضوعة ، ولا خلاف بين الحفاظ بأن حديث أبى بن كعب هذا موضوع » ، راجع : مقدمة فى أصول التفسير ص ٧٥ - ٧٦ ، الفوائد المجموعة ص ٢٩٦ ، تدريب الرواى - السيوطى ١ / ٢٨٨ .

(٣) تأمل ما جاء فى هذا الحديث عند تفسير سورة الواقعة : ومن قرأ سورة الواقعة كتب ليس من الغافلين .

## د - أهم موضوعات السورة

تعالج آيات هذه السورة بإجمال علائق المؤمنين بكل من الكفار الذين عالنوا المؤمنين بعداوتهم لهم ولدينهم ، وما فتئوا يصدون الناس عن الانخراط فى دين الله والمضى فى سبيله واتباع هديه ، فاستحقوا بذلك إعلان الحرب عليهم عند ملاقاة المؤمنين لهم ، ثم المنافقين الذين عادوا المسلمين وكادوا لهم مع اليهود ، ولكنهم لم يتعالنوا بهذه العداوة ، وتستروا بانخراطهم فى صفوف المسلمين ، فكانوا بذلك أشد خطرا على المسلمين ، فاستحقوا تهديدهم بالعذاب ، وكشف ذواتهم وفضحهم بين الناس .

وتختم السورة بدعوة المسلمين إلى جهاد هؤلاء وأولئك ، والانفاق فى سبيل الله ، وبذل كل غال من النفس والمال فى إعلاء كلمة الله ، وعدم التهوين من شأن أنفسهم وهم الأعلون والأعزة حتى لا يقعوا فى مثل ما وقع فيه الكفار من مشاقة الرسول ﷺ ومخالفته من بعد أن تبين لهم الهدى .

وتنتظم علائق المؤمنين بالكفار أربعة مقاطع من السورة :

١ - أولها فى بيان حقيقة الكفار والمؤمنين وعاقبة أعمال كل منهم ، والسبب الرئيس فى ذلك ( الآيات ١ - ٣ ) .

٢ - وثانيها يبين هدى القرآن الكريم فى علاقة المؤمنين بالكفار الصادين عن سبيل الله ، وضرورة مجاهدتهم وطبيعة هذا الجهاد ، والأحكام الشرعية الحاكمة لأوضاع الكفار بعد تمكن المسلمين منهم ، والحكمة من هذا الجهاد ، ومصير الشهداء من المسلمين فى هذا الجهاد ( الآيات ٤ - ٦ ) .

٣ - وثالثها يبرز سنة الله فى نصرة المؤمنين وتدمير الكافرين على مدار الزمان ، وتتابع القرون ، وأن مرد ذلك إلى نصرة المسلمين لدين الله وتوليه إياهم ، وكراهة الكفار لما أنزل الله من الدين الحق ، وحرمانهم من ولايته لهم ( الآيات ٧ - ١١ )

٤ - ورابعها فى بيان بعض أحوال المؤمنين والكفار ، وعدم التساوى بين الأولين المهتدين على صراط ربهم والآخرين الذين زينت لهم سيئات أعمالهم واتبعوا أهواءهم ، وصورة من ذلك فى تنعم المؤمنين بما لذ وطاب فى الجنة ، وتمتع الكافرين تمتع الأنعام فى الدنيا ، ثم خلودهم فى النار وتناولهم فيها ما يحرق أحشاءهم ( الآيات ١٢ - ١٥ ) .

ويتمثل موقف المنافقين من المؤمنين فى أربعة مقاطع أخرى :

١ - يبين أولها عبث المنافقين بتعاليم الدعوة ومبادئها ، وهزأهم بما يستمعون وسخريتهم منه ، وتلهيهم عنه بما يتبعون من هوى نفوسهم ، ثم تهديد الله بمفاجأتهم بالساعة حيث لا ينفعهم عندها صحوهم أو تذكرهم ( الآيات ١٦ - ١٩ ) .

٢ - ويبين ثانيها جبن المنافقين وفرارهم من تكاليف الإيمان التى يتلقونها تلقيهم للموت ، لتعطيلهم منافذ الإدراك والوعى لديهم ، فقد صموا آذانهم ، وعميت أبصارهم ، وغشيت الأمراض قلوبهم فاستحقوا لعنة الله لهم ( الآيات ٢٠ - ٢٤ ) .

٣ - ويبين ثالثها تآمر المنافقين مع اليهود وانسياقهم للشيطان واليهود الذين سولوا لهم كراهة ما نزل الله وما يرضيه ، ودفعهم إلى اتباع ما يسخط الله ويغضبه مما سينالون جزاءه بضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم ( الآيات ٢٥ - ٢٨ ) .

٤ - وفى رابعها يجئ تهديد الله للمنافقين بفضحهم وإخراج ضغائنهم ، والكشف عن ذواتهم للمؤمنين مع معرفته ﷺ لهم فى لحن أقوالهم ، وتنبيه الله أن مواقف الكفار والمنافقين من المؤمنين والتكليف بجهادهم إنما هو من الابتلاء لتمحيص المؤمنين وتمييزهم من غيرهم ( الآيات ٢٩ - ٣١ ) .

ويجئ ختام السورة فى مقطعين :

١ - يتمثل أولهما فى بيان أن صد الكفار عن سبيل الله ومشاقتهم لرسول الله ﷺ بعد تبينهم للهدى لن يضروا بذلك إلا أنفسهم ، وعلى المسلمين أن يحذروا من هذا الصنيع المحبط للعمل حتى لا يكونوا أمثالهم ولن يغفر الله لهم ( الآيات ٣٢ - ٣٤ )

٢ - وثانى المقطعين يدعو المسلمين إلى الاعتزاز بنفوسهم وتوطينها على المجاهدة أبدا ، وعدم التهوين من أنفسهم وهم الأعلون على أعدائهم ، وفى سبيل دينهم وإيمانهم ترخص الأنفس والأموال ، وهاهم مدعوون إلى إنفاق أموالهم كبذل نفوسهم سواء ، وإلا يفعلوا يستبدل الله بهم غيرهم ، ثم لا يكونوا أمثالهم ، إن هم ضنوا بأنفسهم أو بخلوا بأموالهم ( الآيات ٣٥ - ٣٨ ) .

## المقطــع الأول

### بيان عاقبتي الكفر والإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

« الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ٢ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ٣ » .

**التحليل اللغوي والقراءات :**

**كفروا** : الكفر في اللغة ستر الشئ وتغطيته ، فكل من ستر شيئاً وغطاه فقد كفره وكفَّره ، والعرب تقول للزارع:« كافر » ؛ لأنه يكفر البذر المبذور بتراب الأرض ، أي يستره ، ومنه قوله تعالى : « **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ** » ( الحديد ٢٠ ) أي الزراع ، والكافر الليل لأنه يستر بظلمته كل شئ ، وكذلك البحر لستره مافيه[١] ، ومن ذلك سمى الكافر كافراً لأنه ستر نعم الله عز وجل عليه وعلىّ رأسها وحدانيته ؛ فإنه لما دعاه إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة وأحبها له ، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله ، أي مغطيا لها بإبائه حاجباً لها عنه[٢] .

(١) انظر : لسان العرب - ابن منظور ٥ / ٣٨٩٩ مادة كفر .

(٢) انظر : لسان العرب - ابن منظور ٥ / ٣٨٩٨ مادة كفر .

ومنه أيضاً الكفارة ، سميت بذلك لأنها تكفر الذنوب أي تسترها وتغطيها ، والتكفير ستر الذنب وتغطيته حتى يصير بمنزلة مالم يعمل كقوله بعد : « كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » .

وأكثر ما يستخدم الكفر في لسان الشرع نقيضاً للإيمان ونقيضاً للشكر ، فالأول مثل قوله تعالى : « وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ » ( البقرة ٢٥٣ ) ، وقوله : « وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » ( الكهف ٢٩ ) ، والثاني مثل قوله تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » ( إبراهيم ٧ ) ، وقوله : « مَن يشكر فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » ( لقمان ١٢ ) .

والكفر أكثر ما يكون في الدين حتى صار معروفاً بمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشريعة أو ثلاثتها[1] ، أما الأول فواضح من قوله تعالى : « قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ » ( غافر ٨٤ ) ، والثاني واضح في قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً . أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا » ( النساء ١٥٠ - ١٥١ ) ، والثالث واضح في قوله تعالى : « مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ

(١) راجع : المفردات - الراغب الأصفهاني ص ٦٥٣ .

صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » ( الروم ٤٤ ) ، وأما الرابع فمأخوذ من مفهوم قوله تعالى في تحديد ما يكون به الإيمان عند المؤمنين ، قال تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا » ( البقرة ٢٨٥ ) ، وهذا هو المراد بما معنا في الآية .

صَدُّوا : هو من الصد المضموم العين في المضارع بمعنى المنع والصرف عن الشئ قال تعالى : « وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ » ( النمل ٤٣ ) أي صرفها ومنعها العادة التي كانت عليها وقومها من عبادة الشمس دون الله ، ويمكن أن يكون من الصدود بمعنى الإعراض والامتناع كما ورد في قوله تعالى : « رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً » ( النساء ٦١ ) وقوله : « وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ » ( المنافقون ٥ ) ، أما مكسور العين في المضارع والذي جاء في قوله تعالى : « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » ( الزخرف ٥٧ ) فمعناه يضجون ويصخبون كما حكى الله عنهم في قوله : « وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً »[1] ( الأنفال ٣٥ ) .

---

(١) راجع : المفردات – الراغب ص ٤٠٧ ، ولسان العرب – ابن منظور ٤ / ٢٤٠٩ مادة : صد .

والمراد بما في الآية معنا المعنيان الأولان وهما صرف الكفار لغيرهم ومنعهم عن سبيل الله ، وامتناعهم هم أنفسهم وإعراضهم عن هذا السبيل .

**سَبِيلِ اللَّهِ** : السبيل في الأصل الطريق الميسر الذي فيه سهولة ، ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شئ خيراً كان أو شراً [1] ، وفي القرآن الكريم « **وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا** » ( الأعراف ١٤٦ ) ، ويستخدم في اللغة مذكراً كما في الآية السابقة ويستخدم مؤنثاً كما في قوله تعالى : « **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ** » ( يوسف ١٠٨ ) والتأنيث فيها أغلب .

وإضافة السبيل إلى الله تعني طريق الهدى الذي دعا إليه ، وهي تلتقي في معناها مع كلمة « **الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** » فكلاهما عام يقع على ما أمر الله به من الخير ، وكل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله تعالى بأداء الفرائض والنوافل ، وأنواع الطاعات وغير ذلك كله من سبيل الله ، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد حتى صار لكثرة الاستعمال كأنه مقصور عليه ؛ لأنه السبيل الذي يقاتل فيه على عقد الدين[2] .

**أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** : الفعل الماضي الرباعي أضل مصدره الإضلال ، وهو في كلام العرب ضد الهداية والإرشاد ، كما أن الضلال – مصدر الفعل

---

(١) المفردات – الراغب ص ٣٢٧ .

(٢) لسان العرب – ابن منظور ٣ / ١٩٣٠ مادة : سبل .

الثلاثي ضل – ضد الهدى والرشاد ، يقال : أضللت فلانا إذا وجهته للضلال عن الطريق ، وأضله جعله ضالاً ، ومنه قوله تعالى : « **مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ** » ( الأعراف ١٨٦ ) ، وفي كلام العرب وجه آخر قريب منه يقال : أضللت الشئ إذا غيبته ، وأضللت الميت دفنته[١] .

وإضلال الأعمال إحباط وزنها وقيمتها ، وعدم مجازاة أصحابها على ما عملوا من خير ، وهذا كما تقول للذى عمل عملا لم يعد عليه نفعه : قد ضل سعيك ، والجملة في محل رفع خبر المبتدأ « الذين كفروا » في صدر الآية .

**آمَنُوا** : الفعل الرباعي يجئ على وجهين : المتعدى منه بمعنى الأمن ضد الخوف ، كالثلاثي تماما ، ومنه قوله تعالى : « **وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** » ( قريش ٤ ) ، واللازم منه مصدره الإيمان ضد الكفر ، ومعناه التصديق ضد التكذيب ، يقال : آمن به قوم وكذب به آخرون[٢] ، والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمن الله الإنسان عليها ، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه فقد أدى الأمانة ، وأصبح بذلك مؤمنا .

وللإيمان استعمالات كثيرة في القرآن الكريم وبينه وبين الإسلام فروق معروفة ، والمراد به هنا ما اجتمع له تحقيق القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح على وفقهما ، فذلك الإيمان الذي يقال لصاحبه مؤمن كما قال الله

---

(١) لسان العرب – ابن منظور ٤ / ٢٦٠١ مادة : ضل .
(٢) السابق ١ / ١٤٠ مادة : أمن .

عز وجل « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » ( الحجرات ١٥ ) ، وكما أجاب عنه رسول الله ﷺ - في حديث جبريل المشهور[١] .

**الصَّالِحَات** : صفة لمحذوف معلوم من الفعل عملوا ، وهي من الصلاح الذي يقابل الفساد وهما - ومثلهما الإصلاح والإفساد - مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال[٢] ، قال تعالى : « وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا » ( الأعراف ٨٥ ) ، « وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » ( البقرة ٢٢٠ ) ، وقد يقابل الصلاح في القرآن الكريم بالسوء وصفا للأعمال كقوله تعالى : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا

---

(١) أخرج الشيخان - واللفظ لمسلم - عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل .. وقال : يا محمد ، أخبرني عن الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه = = فإنه يراك ، قال : فأخبرني عن الساعة ، قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ، قال : ثم انطلق ، فلبثت مليا ثم قال لي : يا عمر ، أتدري من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ، قال العلماء : إن هذا الحديث أصل الإسلام وترجع إليه علوم الشريعة كلها .

راجع : صحيح مسلم بشرح النووي - باب تعريف الإسلام والإيمان ١ / ١٤٧ - ١٦٠ ، فتح الباري ١ / ١١٤ .

(٢) المفردات - الراغب ص ٤١٩ .

بذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً » ( التوبة ١٠٢ ) ، وكالذي معنا « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » والمقصود الأعمال الصالحة المقابلة بعد بالسيئات في قوله « كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ » جمع سيئة ، وهي اسم للفعلة أو الكلمة القبيحة ، وتقابل بالحسنة ، كما تقابل السوأي بالحسنى .

والحسنة والسيئة ضربان : أحدهما باعتبار الطبع ، وذلك ما يستخفه الطبع وما يستثقله ، نحو قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ » ( الأعراف ١٣١ ) ، وكقوله : « ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ » ( الأعراف ٩٥ ) ، والثاني بحسب الشرع والعقل[١] ، نحو قوله تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا » ( الأنعام ١٦٠ ) ، ونحو قوله « وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ( فصلت ٣٤ ) ، وكقوله ﷺ لأبي ذر : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن[٢] » ، والمعنى الأخير هو المراد هنا .

نُزِّلَ : الماضي المبني للمجهول من معلومه نزل ، وهو - ومثله الرباعي أنزل - بمعنى واحد ، ولا فرق بينهما عند بعض اللغويين إلا صيغة

(٢) المفردات - الراغب ص ٣٦٨ .

(١) أخرجه الدارمي عن أبي ذر ، راجع : سنن الدارمي - باب في حسن الخلق ٢ / ٢٣١ .

التكثير في نزل[1] ، والأصل في معنى المادة الهبوط والانحدار من علو إلى سفل ، وقد فرق الراغب بين مصدري الفعلين : التنزيل والإنزال في وصف القرآن والملائكة بأن التنزيل يختص بالموضوع الذي يشير إليه إنزاله مفرقا ، ومرة بعد مرة ، والإنزال عام في إنزال المفرق وغيره[2] ، قال تعالى : « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » ( آل عمران ٣ ) ، وقال تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا » ( الحشر ٢١ ) .

وقد حكى البيضاوي قراءة اللفظ « نزل » على البناء للفاعل ، وأسنده الألوسي لزيد بن علي وابن مقسم ، كما حكى كلاهما قراءته رباعيا غير مضعف « أنزل » على البناءين للفاعل والمفعول ، والأخير قراءة الأعمش كما قال الألوسي[3] .

**الْحَقُّ وَالْبَاطِلَ** : أصل الحق الثابت غير المتغير على أي حال ، وهو نقيض الباطل الذي لاثبات له عند الفحص عنه ، وفي التنزيل « قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » ( القصص ٦٣ ) أي ثبت .

والحق على أوجه كثيرة[4] ، منها موجد الأشياء على مقتضى الحكمة ، ولهذا كان الحق اسما لله تعالى كما قال : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ

(١) راجع : لسان العرب - ابن منظور ٦ / ٤٣٩٩ مادة : نزل .
(٢) المفردات - الراغب ص ٧٤٤ .
(٣) راجع : أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوي ٢ / ٣٩٢ ، روح المعاني - الألوسي ٢٦ / ٣٨ .
(٤) راجع : الأشباه والنظائر - مقاتل بن سليمان ص ١٧٥ - ١٧٨ .

﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ ( الأنعام ٦٢ ) أي المتحقق وجوده وإلهيته ، ومنها الموجَد حسب مقتضى الحكمة من معتقد أو فعل أو قول وغيرها ، ولهذا كان خلق الله للكائنات حق ، وقول الله المنزل على نبيه حق ، والقيامة والموت حق ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ ( البقرة ٤٢ ) اى امر النبي ﷺ وما أتى به من القرآن الكريم[١] ، ومنه ما معناها من قوله تعالى : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ( محمد ٢ ) .

والباطل نقيض الحق وهو مالا ثبات له من معتقد أو قول أو فعل[٢] ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ ( لقمان ٣٠ ) ، وقال : ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ ( آل عمران ٧١ ) ، وقال : ﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ( هود ١٦ ) ، ومنه ما معناها من قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ ﴾ ( محمد ٣ ) .

**بَالَهُمْ** : من معاني البال الحال والخاطر والنفس ، يقال : فلان رخي البال وناعمه ، أي هادئ النفس غير مبال أو مكترث ، وفي قوله تعالى : ﴿ أَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أي حالهم وأمر معاشهم في الدنيا مع اطمئنانهم إلى جزائهم في الآخرة[٣] ، والأمر ذو البال أي الشريف الذي يحتفل به ويهتم به .

(١) المفردات - الراغب ص ١٧٩ .

(٢) المفردات - الراغب ص ٦٦ ، وانظر : الأشباه والنظائر - مقاتل بن سليمان ص ٢٧٤ .

(٣) راجع : لسان العرب - ابن منظور ١ / ٣٩٠ مادة : بول .

**اتَّبَعُوا** : من الاتباع وهو اقتفاء أثر الشئ والسير وراءه ارتساما وائتمارا[1] ، واستعمال الاتباع في الأول قليل في القرآن الكريم ، ومنه قوله تعالى : « **لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ** » ( التوبة ٤٢ ) ، « **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً** » ( الكهف ٦٦ ) ، وأكثر استعماله في القرآن الكريم بالمعنى الثاني نهيا عن باطل أو تحذيرا منه ، وأمرا بحق أو إرشادا إليه ، قال تعالى : « **بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ** » ( الروم ٢٩ ) ، وقوله : « **إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ** » ( يس ١١ ) .

**يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ** : الضرب معروف وهو إيقاع شئ على شئ ، ويتحدد معناه بالإسناد وما يقع عليه ، فضرب الدرهم طبعه وسكه ، وضرب الوتد دقه في الأرض وتمكينه وضرب اللبن خلطه ، والضرب في الأرض الإسراع بالسير فيها ، وضرب المثل تمثيله وذكره لاعتبار شئ بغيره[2] ، والضرب يكون باليد والعصا والسيف ونحوها قال تعالى : « **فَضَرْبَ الرِّقَابِ** » ( محمد ٤ ) .

والأمثال واحدها المثل بفتح الميم والثاء ، وهو القول في شئ يشبه قولا في شئ آخر بينهما مشابهة ؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره ، وعلى هذا

---

(١) المفردات - الراغب ص ٩٥ .

(٢) لسان العرب - ابن منظور ٤ / ٢٥٦٨ مادة : ضرب .

الوجه ما ضرب الله من الأمثال[1] ، قال تعالى : « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ .. » ، فمن اتبع الباطل كانت عاقبته إضلال عمله ، ومن اتبع الحق كانت عاقبته تكفير ذنوبه وإصلاح شأنه وحاله ، وهو المراد هنا .

أما المِثْل بكسر فسكون فمعناه الشِّبْه ، وهي كلمة تسوية ومماثله كما في قوله تعالى : «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ » ( آل عمران ١٤٠ ) ، والأمثال منه أضعاف المشبه كما يأتي بعد في قوله تعالى : « دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا » ( محمد ١٠ ) .

**التفسير والبيان :**

تستهل السورة بهذا التقرير السريع الذي توازن فيه بين الكفار والمؤمنين هناك عند نهاية أعمارهم ، ومحاسبتهم على ما قدموا في هذه الحياة ، ثم إبراز السبب المباشر والأصل الذي ترتبت عليه عاقبة كل من الفريقين ، وتفاوت هذه العاقبة بين التعاسة لفريق الكفار والسعادة لفريق المؤمنين .

أ ) أما طرف الموازنة الأول فهم الكفار الذين أنكروا وجود الله أصلا ، أو أنكروا وحدانيته وأشركوا به غيره في الألوهية ، أو توجهوا بعبادتهم إلى غير الله واستبدلوها بعبادة الله ، ثم أضافوا إلى كفرهم هذا إعراضهم عن الإسلام وهداية الله التي أتتهم ، ومنعهم لغيرهم عن تلقي هذه الهداية والسير في طريق الله - فهؤلاء قد حكم الله عليهم بفساد أعمالهم وإبطالها وذهابها سدى كأنها لم تكن ، قال تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا » ( الفرقان ٢٣ ) .

---

(١) المفردات - الراغب ص ٧٠٠ .

وفي هذا الطرف من الموازنة وقفات للتأمل والتدبر ، واستخلاص هدى القرآن الكريم حول هذا الصنف من البشر فاقدي الاعتبار والقيمة في المعيار الإلهي ، وإن بدوا في المعيار البشري على غير ذلك .

فمن هؤلاء الكافرون الصادون عن سبيل الله ؟ .

يقول ابن عباس ومجاهد : إنهم أهل مكة كفروا بتوحيد الله[1] ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه[2] ، فصد هؤلاء لأنفسهم إعراضهم عما أتى به محمد ﷺ ، واستنكافهم عن مناقشته وعرضه على عقولهم ، فصرفوها عن اتباع الدليل على وجوب التوحيد ، وفي ذلك إشارة سريعة إلى أن ما في الأنفس من

---

(١) قال بعض أهل العلم : الكفر على أربعة أنحاء : كفر إنكار بألا يعرف الله أصلا ولا يعترف به ، وكفر جحود ، وكفر معاندة ، وكفر نفاق ، من لقي ربه بشئ من ذلك لم يغفر له ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فأما كفر الإنكار فهو أن يكفر بقلبه ولسانه ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد ، ومثله من عناهم الله بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ » ( البقرة ٦ ) ، أي الذين كفروا بتوحيد الله ، وأما كفر الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه فهو كافر جاحد ككفر أمية بن أبي الصلت ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا به » ( البقرة ٨٩ ) يعني كفر الجحود ، وقوله : « قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » ( الأنعام ٣٣ ) ، وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل كأبي طالب حيث قال : -

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لو جدتني سمحا بذاك مبينا

وأما كفر النفاق فأن يقر بلسانه ويكفر بقلبه ، كمن سماهم الله لرسوله بالمدينة وأسرهم رسول الله ﷺ لحذيفة ، وذكروا بأوصافهم كثيرا في القرآن الكريم وبخاصة في سورة التوبة الفاضحة .

(٢) راجع : الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ١٦ / ٢٢٣ .

الفطرة كان داعيا إلى الإيمان ، والامتناع لمانع من ذلك وهو الصد لنفسه[1] .

أما صدهم لغيرهم فهو منعهم عن اتباع الحق إما بدعوتهم مباشرة إلى ذلك ، أو بقدوتهم السيئة في هذا الشأن ، وقد كانوا عيون المجتمع والسادة فيه الذين يشار إليهم ، ويتبعهم غيرهم في كل شؤونهم .

وقد زاد ابن عباس - وموافقوه - توضيحا للمراد بهؤلاء ما ذكره مثالا لهم حين قال : نزلت في المطعِمين ببدر ، وهم اثنا عشر رجلا على رأسهم أبو جهل عليه اللعنة نحر لكفار قريش حين خرجوا من مكة عشرا من الإبل[2] ، أما مقاتل فقد ذكر أنهم اثنا عشر رجلا من أهل الشرك كانوا يصدون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر فوق ما صنعوه للأحابيش ، إذ أطعم كل واحد منهم يوما الأحابيش والجنود يستظهرون بهم على حرب رسول الله ﷺ ، وكان على رأسهم ستة نفر نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل والحرث ابنا هشام ، وقال غيرهما : هم شياطين أهل الكتاب صدوا من أراد منهم أو من غيرهم عن الدخول في الإسلام[3] .

وواضح من هذه الأقوال جميعها أنها تجعل الصد واقعا على غير الصادين ، وهو قول عامة المفسرين في منع هؤلاء لغيرهم عن سبيل الله وصرفهم لهم عن اتباع الصراط المستقيم ، وهو شامل لما رآه بعض المفسرين من أن الصد بمعنى الامتناع والإعراض[4] كأن هؤلاء صدوا أنفسهم من قبل

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازي ٧ / ٥٠٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ١٦ / ٢٢٣ .
(٣) روح المعاني - الألوسي ٢٦ / ٣٧ .
(٤) راجع : التفسير الكبير ٧ / ٥٠١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٢٣ ، روح المعاني ٢٦ / ٣٦ .

، ولو لم يكونوا قد صدوا أنفسهم وأعرضوا عن السبيل من قبل ما كان لهم أن يصدوا غيرهم أو يقدروا على منعهم مما لم يمتنعوا هم عنه .

وإذ تتعدد أنظار كبار المفسرين في المقصود بهؤلاء الذين عنتهم الآية ، ولا يأتي عن واحد منهم المراد بهم تعيينا - فلنا أن نقول : إن هؤلاء المذكورين ممن تنطبق عليهم الآية ، وأنها عامة في كل من اتصف بعنوان الصلة ، فمن تحقق فيه الكفر على نحو ما قررنا وأضاف إليه الصد عن سبيل الله[1] كان داخلا في عداد من عناهم الله في هذه الآية ، وحكم ببطلان أعمالهم ، وكأن ابن عباس - وغيره - في ذكرهم لمن ذكروا مثالا لهؤلاء أرادوا أن هؤلاء يدخلون في عموم الآية دخولا أوليا.فإن أولئك كانوا صادين بأموالهم وأنفسهم فصدهم أعظم من صد غيرهم ممن كفر وصد عن السبيل[2] .

هذا وقد قرر القرآن الكريم - في معرض توعده بالعذاب الشديد لهؤلاء الصادين عن سبيله - ظلم هؤلاء وبغيهم وإفسادهم في الأرض وغير ذلك مما استأهلوا به قتالهم ورد ظلمهم ، كما عرض لنا صوراً ونماذج لهؤلاء وكشف عن كثير من بواعثهم في هذا الصد والظلم ، قال تعالى : « فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ »

---

(١) راجع : مناقشة الفخر الرازي لترتيب الأعمال على الكفر وحده أو على الكفر والصد معا وتأويل الآية على أي منهما . التفسير الكبير ٧ / ٥٠١ .

(٢) روح المعاني - الألوسي ٢٦ / ٣٧ .

( الأعراف ٤٤ - ٤٥ ) ، وهذا شأن المشركين المنفقين لأموالهم صدا عن سبيل الله ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ » ( الأنفال ٣٦ ) .

ومن ورثة هؤلاء وبقاياهم هؤلاء الجماعات التي تتكتل وتنفق من مالها لبث الدعاية ضد الحق ، وللحيلولة بين أهله والدعوة إليه ، كما هو شأن كثير من أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين يجمعون - تحت راية الصد عن سبيل الله - أموال الناس ويأكلونها بالباطل « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ » ( التوبة ٣٤ )[١] .

ومثل هؤلاء لم يخل منهم عصر أو تتجرد منهم بيئة مهما زيفوا على المؤمنين ولبسوا لهم الأمور ، وهم من عناهم الله بقوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً » ( الأنعام ١١١ - ١١٢ ) .

---

(١) انظر : تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٦٥٠

ويشير القرآن الكريم إلى أن من بواعث هذا الصد عن سبيل الله إيثار الحياة الدنيا على الآخرة كأنهم يرون أن سبيل الله إذا قامت ضعفت دنياهم ودالت دولتهم ، « وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ » ( إبراهيم ٢ - ٣ ) .

ومن ورثة هؤلاء الذين يقبضون على السلطان ويخشون من سلطان الحق أن تنهار لقيامه عروشهم وإن زعموا في الناس أنهم مؤمنون .

ومن هذه البواعث التفلسف الكاذب الذي كثيرا ما يخطف أبصار الناشئين ويبهر عقولهم حتى يفتنهم عن دينهم فيروحوا يكفرون بالله وبسبيله ، وبشرع الله وأحكامه[1] ، بل بما فرضه الله في كتابه لخير عباده ولم ينل حظا عند المفتونين بهذه الفلسفات الزائفة ، « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ . ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » ( الحج ٨ - ١٠ ) .

ولكن ما سبيل الله المصدود عنه ؟ .

فى تحديد هذا السبيل أيضا أقوال متقاربة مبنية في عمومها على بعض الوقائع التى رصدها العلماء فى الصدر الأول ورأوا أنها مما تنطبق

---

(١) راجع في ذلك ما دخل في قوانين كثير من دول المسلمين الحديثة وتنادت به محاولات كثيرة لمؤسسات الإعلام بها من التقليل من شأن أحكام الله فى الطلاق وتعدد الزوجات والميراث والحدود والربا وغير ذلك .

عليها الآية ، فمن قائل : إنه الإنفاق على محمد ﷺ وأصحابه فيما أشار إليه قوله تعالى : « هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا » ( المنافقون ٧ ) ، وقوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ » ( يس ٤٧ ) ، ومن قائل : إنه بيت الله الحرام[1] ، كما قال الله تعالى : « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ » ( الأنفال ٣٤ ) ، ومن قائل : إنه الجهاد وهو مشهور بين العلماء كما في آيات كثيرة منها قوله تعالى : « وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ولكن لا تشعرون » ( البقرة ١٥٤ ) ، وقوله تعالى : « فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا » ( آل عمران ١٤٦ ) ، وأضعف من ذلك ما حمله بعضهم على خصوص طريق الحج ، وليس لهذا التخصيص من دليل ينهض عليه[2] .

والأصح الذي يدخل فيه هذه الأقوال وغيرها أن سبيل الله كل ما فيه طاعة الله تعالى ، وهو اتباع محمد ﷺ وما رسمه الله لعباده من الإيمان بالحق والدعوة إليه وعمل الخير والحث عليه ؛ وذلك لأن النبي ﷺ على

---

(١) قاله الضحاك من مفسري التابعين راجع : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٢٣ ، فتح القدير ٥ / ٢٩ ، روح المعاني ٢٦ / ٣٦ .

(٢) راجع : تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٦٥١ .

الصراط المستقيم الذي يهدي إليه وهو صراط الله قال تعالى : « قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي » ( يوسف ١٠٨ ) ، وقال تعالى : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ » ( الشورى ٥٢ - ٥٣ ) ، فمن منع من اتباع محمد ﷺ فقد صد عن سبيل الله[١] .

وإعلاء كلمة الله ونشر دعوة الإسلام من سبيل الله فمن منع من ذلك فقد صد عن سبيل الله ، ودفع الأعداء إذا هددوا أمننا أو أغاروا على أرضنا أو نهبوا أموالنا أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس من سبيل الله ، فمن منع من ذلك فقد صد عن سبيل الله ، وإقامة العدل في الأحكام ورد الأمانات إلى أهلها والطاعة في حدود ما أمر الله من سبيل الله ، فمن منع من ذلك فقد صد عن سبيل الله ، والعمل على مصالح الأمة بإنشاء دور العلم والمستشفيات ودور الصناعة واستزراع الأرض واستصلاحها وتطوير استثمارها وغير ذلك مما يتوقف عليه تقدم الأمة ورقيها ، ويحقق كفايتها وعدم حاجتها إلى غيرها ، كل ذلك من سبيل الله فمن منع من ذلك فقد صد عن سبيل الله[٢] .

وإخبار الله تعالى بإضلال أعمال هؤلاء الكفرة الصادين عن سبيله إنما يفهم على وجهه الصحيح من خلال الوقوف على المراد بهذه الأعمال التي عملوها ، فمن قال إن الآية في المطعمين ببدر وأضرابهم قال إن إضلال العمل

---

(١) التفسير الكبير - الرازي ٧ / ٥٠٢ .

(٢) تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٦٤٩ .

هو إبطال الله جل وعلا ما عملوه من الكيد لرسول الله ﷺ كالإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى محاربته عليه الصلاة والسلام ، وغيره الله بنصر رسوله ﷺ وإظهار دينه على الدين كله وإيقاع الحسرة والهزيمة بهؤلاء ، قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ » ( الأنفال ٣٦ ) .

ومن قال : إن صد هؤلاء كان عن بيت الله الحرام ومنع قاصديه قال : إن إضلال أعمالهم هو إبطال كيدهم ومكرهم بالنبي ﷺ وجعل الدائرة عليهم في كفرهم وإنزال العذاب بهم ، مثل ما أخبر عنه الله في قوله : « وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » ( الأنفال ٣٤ ) .

ولكن هذا القول وذاك ليسا بذى بال ، ولا يجيبان على دعوى إهدار عمل هؤلاء وغبنهم ؛ إذ إن أعمال هؤلاء الكفار على هذين القولين أعمال عدوانية ماكرة ، ومقابلة العدوان والمكر بمثلهما لردهما وإبطالهما أمر مقرر فى الوجدان البشرى والدينى لاغضاضة فى ذلك [1] .

(١) قال الله تعالى في تقرير هذه القاعدة : « ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ » ( الحج ٦٠ ) ، « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » ( الأنفال ٣٠ ) .

والظاهر أن المقصود من أعمال هؤلاء التي أضلت هي الأعمال التي كانوا يأملون من ورائها الخير ، والتي يبدو على ظاهرها الصلاح مما كانوا يعملون في كفرهم كصلة الأرحام وقرى الأضياف وفك الأساري وغيرها من المكارم وأعمال البر ، وإضلال هذه الأعمال إحباطها وجعلها ضائعة لا أثر لها ولا نفع ، بل لا قيمة لها أصلا .

وحول هذا المعنى من الإبطال الذي عليه عامة المفسرين[1] يثار هذا السؤال المهم : كيف تنقلب طبيعة العمل فتفقد اعتبارها بهذا الإضلال والإبطال ؟ وأين موقع ذلك من عدل الله إذا عرفنا بعد أن مثل هذه الأعمال يباركها الله ويضاعف الجزاء عليها إذا صدرت من المؤمنين ، بل ربما بدلت أعمالهم السيئة وصارت من صالح أعمالهم ؟ ، وكيف نستدل على هذا الإحباط والإبطال مع أن واقع الحال يشهد لغير ذلك ؛ إذ إن المد الحضاري ، والتقدم والرقي الذي تعيشه البشرية اليوم هو في معظمه من أعمال هؤلاء الكفار الذين يصدون عن سبيل الله كثيرا ؟ أو كما قال بعض المفسرين من قبل : كيف يبطل الله حسنة أوجدها[2] ؟ .

ويقال في الإجابة عن هذا السؤال في شقه الأول : إن الأعمال هذه لم تقع منذ بدايتها صالحة ثم أحبطت وأبطلت ، إنما هي فاقدة الاعتبار بحكم

---

(١) راجع : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٢٣ ، فتح القدير ٥ / ٢٩ ، روح المعانى ٢٦ / ٣٧ .

(٢) التفسير الكبير - الفخر الرازى ٧ / ٥٠٢ .

الله عليها بالبطلان والضياع ، كأنها لم توجد أصلا ، وإنما كانت أعمال هؤلاء كذلك لأنها بموازنتها بسيئاتهم التي من بينها الكفر الذي لا يغفر لصاحبه لا قيمة لها ، لأن الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات ، كما أن إيمان المؤمنين يترجح على غير الكفر من السيئات ، وهذه الأعمال الصالحة وإن وقعت في دنيا الناس غير أنها افتقدت شرط ثبوتها وإثباتها وهو الإيمان ؛ لأنه شرط قبول العمل والجزاء عليه قال تعالى : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » ( النحل ٩٧ ) .

نعم ، قد أخبر القرآن الكريم أن الأعمال الصالحة هي من الباقيات عند الله ، كما قال : « وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً » ( مريم ٧٦ ) ، لكن الله متفضل بقبولها ، وقد أخبر المتفضل أني لا أقبل إلا من مؤمن ، فمن عمل وتعب من غير سبق الإيمان فهو المضيع لعمله[١] ، كما أن هذه الأعمال افتقدت صدق التوجه والإخلاص بها إلى الله ضرورة عدم الإيمان به وتوحيده ، وأصحابها ممن ينطبق عليهم قوله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً » ( الكهف ١٠٣ - ١٠٥ ) ، وفي الصحيح عن عائشة

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازي ٧ / ٥٠٢ .

أنها قالت : يا رسول الله ، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : « لا ينفعه ؛ لأنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »[(١)] .

أما شق السؤال الثاني فإنه يكتفي بتقرير نصف الحقيقة ، ويغفل نصفها الآخر والمهم ، والذي يدرس تاريخ البشرية في تقدمها ورقيها الأخير دراسة منصفة يعرف كم دفعت الإنسانية من أدميتها وقيمها وفطرتها الأصيلة - وما زالت - في سبيل هذا التقدم والرقي المادي المعروف ، والذي حسبه هؤلاء صلاحاً وخيراً تماما كما حسب أسلافهم من قبل وردهم الله إلى حقيقة أمرهم في آيات قرآنية كثيرة[(٢)] .

وما يمارس اليوم من القوى العالمية المتجبرة ضد الشعوب والأمم المستضعفة من تمزيق لضمائرهم الدينية وتشويه لفطرهم السليمة ليس بعيدا مما كان يفعله سابقوهم من المستكبرين الصادين عن سبيل الله فيما حكى عنهم رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة قال : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه[(٣)] » .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي - باب من مات على الكفر لا ينفعه عمله ٣ / ٨٦ .

(٢) قال تعالى عن أعمال الكفار : « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ » ( إبراهيم ١٨ ) ، « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ » ( النور ٣٩ ) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب القدر - باب كل مولود يولد على الفطرة ١٦ / ٢٠٧ .

فعلة العلل في مجتمع المدنية المعاصرة تكمن في بعد أصحابها عن الله وانغماسهم في إشباع متعهم الحسية وتكالبهم على حطام الدنيا والمنازعة عليها ، وهذا سر تناحر الأمم وماورثته الإنسانية من حروب ودمار ، إن البنيان المادي الذي أقامه هؤلاء لم يقض على أسباب الخوف والقلق من سوء المصير ، بل أدى إلى تأريثها وتعميمها على الأمم حيث أضحت البشرية على حافة بركان من الأحقاد والضغائن لا يدري أحد متى ينفجر فيتحول العالم إلى جحيم نووي يأكل الأخضر واليابس ، ألم تصبح الدنيا اليوم على أيدي هؤلاء كما قال عنها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من قبل : « قد درست فيها أعلام الهدى ، وظهرت أعلام الردي ، فهي متجهمة لأهلها عابسة في وجه طالبها ، ثمرها الفتنة وشعارها الخوف ودثارها السيف[1] » ، ألا ما أضل هذه الأعمال ؟ وما أصدق قول الله فيهم :

« وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » ( الأنعام ١١٦ - ١١٧ ) .

ومن الواضح أن إضلال هذه الأعمال وإبطالها - وهو حكم صادر عن الله تعالى - لابد أن يكون قائما على معيار ديني إلهي ينبه الله إليه البشرية ويرتفع بهم فوق مستوى معاييرهم وموازينهم التي ربما اعتبرت هذه الأعمال ومنحتها فوق قيمتها الحقيقية .

(١) راجع : نهج البلاغة للإمام على - جمع الشريف الرضى ١ / ١٨٠ .

**وقد يستشكل على هذا الحكم والتقرير بأمرين :**

أولهما : العموم المفهوم من قول الله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » ( الزلزلة ٧ - ٨ ) ، وقوله : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » ( الأنبياء ٤٧ ) ، ودلالة الآيتين واضحة على أن من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يراه ويجد جزاءه لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر ، ونفى الظلم عن أي نفس في الآية الثانية أصرح قول في أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء ، وأن كلاً يوفي يوم القيامة جزاءه[1] .

**وهذا الاستشكال مردود عليه بوجوه :**

١ - منها أن أسلوب آيات سورة الزلزلة جاء على التقسيم والتفصيل ، فالمراد من الأولى السعداء ، والمراد من الثانية الأشقياء بناء على أنهما تفصيل للمجمل قبلهما من قوله « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ » ( الزلزلة ٦ ) ، فكان ذلك تفسيرا له بما حاصله « فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ » ( الشورى ٧ ) ، فالمناسب أن يرجع كل فقرة إلى فرقة ليطابق المفصل المجمل .

٢ - ويمكن أن يكون عموم الآية مقيدا بقيد مقدر ترك لظهوره والعلم به من آيات أخر ، فالتقدير « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ »

---

(١) تفسير جزء عم - محمد عبده ص ١٠٦ - ١٠٧ .

لم يحبط بالكفر[١] ، وهو القيد الوارد في قوله تعالى : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً » ( النحل ٩٧ ) .

٣ - ومن العلماء من جعل الرؤية أعم مما تكون في الدنيا وما تكون في الآخرة ، فالكافر يرى جزاء خيره في الدنيا وجزاء شره في الآخرة ، والمؤمن يرى جزاء شره في الدنيا وجزاء خيره في الآخرة ، فقد روى عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله حتى يبلغ الآخرة وليس له فيها خير ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر وهو مؤمن كوفئ ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله حتى يبلغ الآخرة وليس عليه فيها شر ، ودليل ذلك ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس بن مالك[٢] قال : حين نزل قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ » قال أبو بكر : يا رسول الله ، إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر ؟ فقال ﷺ : يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة .

---

(١) روح المعاني - الألوسي ٣٠ / ٢١٢ .

(٢) راجع ما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط والحاكم فى تاريخه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب ، تفسير القرآن العظيم ٤ / ٥٤٠ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٥١ ، فتح القدير ٥ / ٤٨٠ .

قال أبو إدريس - أحد رواة الحديث - إن مصداق ذلك في كتاب الله « وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ » ( الشورى ٣٠ )[١] .

وهكذا توضح لنا هذه الآثار جانبا مما يبدو صالحا من أعمال الكافرين التي أضلها الله ، إنها ليست إلا تعجيلا لثواب هذه الأعمال في الدنيا الفانية حتى لا يكون لهم منها نصيب في الباقية ، كما جاء في الأثر « أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا »[٢] ، وهي من جهة أخرى ليست مسارعة لهم في الخيرات كما يظنون ، ولكنها نوع من كيد الله بهم وإمهاله إياهم ليستدرجهم إلى المعاصي والآثام ، وقد قيل هنا : من يعص الله تعالى ولم ير نقصانا فيما أعطاه سبحانه من الدنيا فليعلم أنه مستدرج قد مكر به[٣] ، قال تعالى : « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ » ( المؤمنون ٥٥ - ٥٦ ) ، وقال : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ » ( آل عمران ١٧٨ ) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي ٢٠ / ١٥١ .

(٢) أخرجه البخاري في حديث طويل عن عمر بن الخطاب - كتاب المظالم - راجع : فتح الباري ٥ / ١١٦ .

(٣) روح المعاني - الألوسي ١٨ / ٤٣ .

فهؤلاء الكفار الصادون عن سبيل الله عباد للدنيا متهالكون عليها متفانون في الإقبال على زخرفها ومتاعها ، جعلوا المادة إلها لهم فسخروا قواهم في خدمته ، وصرفوا جهودهم للعناية بأمره ، فلم يكن شأنهم مع أعمالهم إلا ما حكاه الله تعالى في قوله : « وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ » ( الأحقاف ٢٠ ) .

وثاني الأمرين المستشكل بهما على حكم الآية بإضلال أعمال الكفار وإحباطها ما ورد من الآثار التي يفهم منها عدم إحباط أعمال الكفار وإضلالها بالكلية ، كما ورد في الأحاديث الصحيحة أن حاتما الطائي يخفف الله تعالى عنه لكرمه ، وأن أبا لهب كذلك لسروره بولادة النبي ﷺ ، وإعتاقه لجاريته ثويبة حين بشرته بذلك ، والحديث في تخفيف عذاب أبي طالب مشهور لمحبته للنبي ﷺ وحمايته له[1] .

وفي توجيه هذه الآثار يقول العلماء : إن أعمال الكفار المحبطة إنما هي التي تتوقف على نية التوجه بها إلى الله المستلزمة للإيمان به بدءا ، فهذه هي المحبطة التي لا تنجي صاحبها من عذاب الكفر ، أما ما لا يتوقف

(١) أخرج مسلم في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : يا رسول الله ، هل نفعت أبا طالب بشئ فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار . باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه ، الصحيح بشرح النووي ٣ / ٨٤ .

من الأعمال على هذه النية والإيمان ، فقد يفيد صاحبه الكافر تعجيلا له في الدنيا ، وتخفيفا من عذابه في الآخرة ، كما رددت الآثار ، قال الثعلبي : إن أعمال الكفرة الحسنة التي لا يشترط فيها الإيمان كإنجاء الغريق وإطفاء الحريق وإطعام ابن السبيل يجزون عليها في الدنيا ولا تدخر لهم في الآخرة كالمؤمنين[1] .

وعلى ذلك فصلاح أعمال الكافرين إنما هو صلاح شكلي بمعايير البشر الدنيوية التي تخضع للناموس الكوني ، ويتفاوت فيها البشر ( مؤمنون وكافرون ) ، ويعجل لأصحابها جزاؤهم عليها في الدنيا ، ولكنها بالمعيار الإلهي لا قيمة لها ولا اعتبار ، بل ولا جزاء عليها في الآخرة لافتقاد أصحابها شرط قبولها وهو الإيمان .

ومن الواضح أن هذا الكلام الكثير للمفسرين وغيرهم هنا إنما كان محاولة منهم للإجابة عن هذا السؤال القديم الذي يضع بعض الآيات القرآنية المحكمة في مواجهة حادة وتقابل لا يقبل التوفيق كقولهم : إن حسنات الكافر محبطة بالكفر - وهو مضمون قوله تعالى معنا ( أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ) - وسيئات المؤمن معفوة باجتناب الكبائر - وهو مضمون قوله تعالى بعد ( كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ) - فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرة للخير والشر التي وردت في قوله تعالى : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » ( الزلزلة ٧ - ٨ )[2] ؟ .

---

(١) روح المعاني - الألوسي ٣٠ / ٢١٢ .

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل - الزمخشري ٤ / ٢٧٦ .

وقد لاحظنا في الإجابات السابقة أن بعضها قد اقترب من إزاحة هذا التأزم وأوشك بعضها الآخر أن يحل المسألة ، غير أن تسليم المفسرين الكامل بمضمون السؤال من الجزاء المعارض لإحباط بعض الأعمال الصالحة والعفو عن بعض الأعمال السيئة ابتعد بهم عن الوقوع على الفهم الصحيح للآيات ، كما أن الخلط عندهم بين معايير إحباط العمل البشرية ومعيار الوحي الذي أرشدت إليه الآيات ساعد على هذا الابتعاد عن الفهم الصحيح لها .

غير أن الاحتكام إلى النص القرآني - بعد كل ما سمعناه من خلاف تأزم ، ومن محاولات معتسفة للخروج من المأزق المفترض - هذا الاحتكام إلى النص يقرب لنا الفهم الصحيح للآيات بغير تعارض بينها أو احتوائها على مشكل يبتغي حله وتجاوزه ، ويغنينا عن كل ذلك العناء الذي عاناه المفسرون ، كما أن الفهم الدقيق لمفردات الآيات . وأسلوبها يعفينا من التكلف والتأول ، ويريحنا من التقييد والتقسيم والتخصيص والتعميم التي سمعناها في هذه الأقوال .

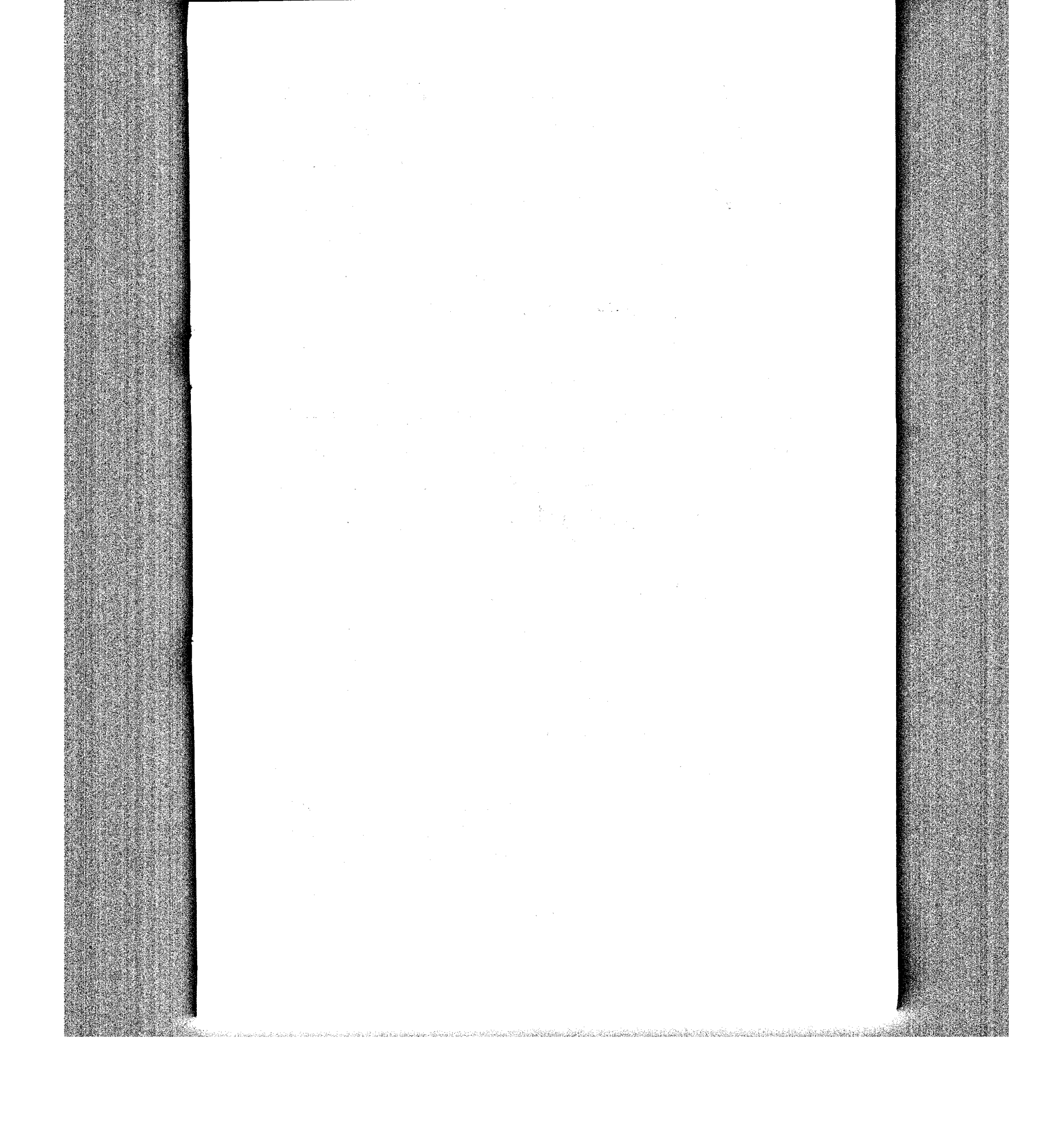
فالذي في آيتي الزلزلة أن من يعمل مثقال ذرة خيرا أو شرا « يره » ، ولم يقل الله تعالى : يجزيه أو يحاسب عليه ، وفي الآية قبلهما إجمال لهذه الرؤية يتأيد بها هذا الخبر عن الله « يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ » ( الزلزلة ٦ ) ، فالمعنى أن الإنسان يرى عمله إما في الآخرة محصيا عليه في دقة بالغة ، وفي كتاب « لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً

**وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا** » ( الكهف ٤٩ )[1] ، وإما فى الدنيا كما قـال عنهم الله : « **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ** » (الإسـراء ١٨ ) ، « **مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ** » ( الشورى ٢٠ ) .

ومضمون آيتى الزلزلة من رؤية البشر جميعا لأعمالهم الخيرة والشريرة شئ ، ومحاسبتهم عليها بعد ذلك - والذى منه مضمون آيتى محمد عدلا منه وفضلا - شئ آخر ، ولكن خلط المفسرين بينهما ، ووضعهم الجزاء موضع الرؤية كما جاء فى سؤالهم أوقعهم فى هذا الحرج ، وأطال وقفتهم فى الإجابة على هذا المشكل الغريب ، ولله در ابن عباس فى فقهه هذا الأمر إذ قال : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيرا أو شرا إلا أراه الله إياه ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ، ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته[2] ، وقد أخرج ابن المنذر عنه فى قوله : « **أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ** » قال : كانت لهم أعمال فاضلة ، لا يقبل الله مع الكفر عملا[3] .

ب ) ثم نأتى إلى طرف الموازنة الثانى وهم المؤمنون الذين يلتزمون هدى الإيمان فيما يأتون من الأعمال وما يذرون منها ، فلا يتركون عبادة أمروا بأدائها ولا يأتون معصية نهوا عن ارتكابها مستهدين فى ذلك بوحى الله الذى أنزل على محمد ﷺ وارتضى لعباده أن يعبدوه فى نور هذا الوحى ، لأنه الحق الذى لاحق غيره ، فهؤلاء بين الله حالهم بستر أعمالهم السيئة وغفران ذنوبهم والعفو عنها ، بل وإصلاح أحوالهم وشؤونهم .

(١) التفسير البيانى - بنت الشاطئ ١ / ١٠٤ .
(٢) التفسير الكبير - الفخر الرازى ٨ / ٤٦٢ .
(٣) فتح القدير - الشوكانى ٥ / ٣٢ .



وسور القرآن الكريم مليئة بكثير من صور هؤلاء المؤمنين وأعمالهم الصالحة تجملها مرات كثيرة[1] وتفصلها مرات أخرى لتبرز لنا كيف صعدت هذه الأعمال الصالحة بأصحابها المؤمنين إلى مراتب الكمال الإنسانى درجات ودرجات عجزت عن تحقيقها للناس فلسفات البشر وأفكارهم ومبادؤهم التى ابتدعوها ، وكيف أيقظت التقوى وحدها داخل المؤمن رقيبا من الضمير القوى والخشية من الله كانت سلطته على نفس صاحبه أقوى من سلطة القانون .

نعم ، لقد رسمت الفلسفات البشرية - قديمها وجديدها - مدنا مثالية ، وصاغت مبادئ للسلوك والأخلاق ، ولكن أصحاب هذه الفلسفات عجزوا أن يخرجوا هذه الصور المثالية وتلك المبادئ من بطون الكتب إلى واقع حياة الناس ، وظلت سطورا على الورق تدرس وتقرأ ولا أثر لها فى حياة الناس ، ولكن عقيدة الإسلام من الإيمان والعمل الصالح استطاعت أن تغير الإنسان فتبدل بعد إيمانه شيئا آخر نفع نفسه وأمته ونفع الناس أجمعين .

ومن دستور الإيمان والعمل الصالح فى القرآن الكريم نسوق مقطعين فحسب تبرز فى أحدهما تخلية نفس المؤمن مما ينقصها ويحط قدرها من الرذائل الخلقية ، وتبرز فى الآخر تحلية المؤمن بما يزكى نفسه ويسمو بها من الفضائل الخلقية ، وهما كافيان وحدهما فى تغيير النفس الإنسانية واستحقاقها بهذا الإيمان والعمل الصالح مالا تستحقه نفوس غير المؤمنين .

---

(١) من ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ( الأنفال ٢ - ٤ ) ، وراجع السور : إبراهيم ٢٤ - ٢٧ ، المؤمنون ١ - ١١ ، المعارج ٢٢ - ٣٥ .

١ – قال تعالى : « لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً. وَقَضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً . رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً . وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً . وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً . وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً . وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً . وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً . وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِى هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً . وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ، وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً » ( الإسراء ٢٢ - ٣٩ ) .

٢ - قال تعالى : « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً . وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً . إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً . وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً . أُولَئِكَ

يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً » ( الفرقان ٦٣ - ٧٦ ) .

فهل يعجبن أحد - بعد ذلك - كيف تحول العرب بهذا الدستور من جاهلية جهلاء إلى مدنية عليا ، فى أقل من ربع قرن من الزمان ؟ وكيف نهضوا برسالتهم فى الترقى السريع ، وقاموا بخلافة الله فى الأرض حق القيام وهم حينئذ أقل الأمم المحيطة بهم ؟ بل تعدوا ذلك إلى النهوض بأمانة تحضير العالم وإخراجه إلى الحياة الحرة الكريمة بما تقتضيه عقيدتهم النقية الصافية التى جاءهم بها الإسلام ؟ .

لقد فرضت هذه الحقيقة نفسها على مدى التاريخ منذ البعثة النبوية ، وشهد بها أحد كتاب الحضارة ، بل وأشاد بهذه الحقيقة حين قرر أن « للإسلام وحده كل الفخار بأنه أول دين أدخل إلى العالم التوحيد المحض ، وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من هذا التوحيد الخالص ، وفى هذه السهولة سر قوة الإسلام الذى يخلو مما نراه فى الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم من المتناقضات والغوامض ....

« وقد ساعد وضوح الإسلام وما أمر به من العدل والإحسان على انتشاره فى العالم ، وبتلك المزايا نفسر سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام ، كما نفسر به السبب فى عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام دينا ، سواء أكانت هذه الأمة غالبة أو مغلوبة »[1] .

---

(١) حضارة العرب - جوستاف لوبون ص ١٢٥ .

ثم نأتى إلى وقفة المفسرين حول قوله تعالى : ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ وما استشكلوه عليه من حيث إن الإيمان بما نزل على محمد ﷺ إنما يندرج ويدخل فى مضمون الإيمان الأول على نحو ما قرر من قبل فى تعريف الإيمان[1] ، فما وجه تخصيص الإيمان بما نزل على محمد بالذكر ؟ .

والحق أن هذا الاستشكال لا وجه له إلا على تفسير ما نزل على محمد بأنه القرآن الكريم لاغير ، كما صرح بذلك الألوسى[2] .

وقد أجيب عن هذا لدى المفسرين بأن اختصاص الإيمان بما نزل على رسول الله ﷺ بالذكر من بين ما يجب الإيمان به تعظيماً لشأنه وتعليماً ؛ لأنه لا يصح الإيمان إلا به ، ولأنه الأصل فى كل ما يجب الإيمان به[3] ، ولذلك أكده بقوله : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ .

وقال بعضهم : إن اختصاص الإيمان بما نزل على محمد ﷺ بالذكر إنما هو للتدليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بالله بعد بعثة محمد ﷺ[4] ، وكأن القائل يدفع بذلك شبهة من يزعم لنفسه الإيمان وأنه على طريق الحق والعمل الصالح ، وإن لم يقر بنبوة محمد ﷺ وما نزل عليه من كلام الله كسائر أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

---

(١) يعنى فى آية سورة البقرة رقم ٢٨٥ ، وفى حديث جبريل عندما جاء يعلم الناس دينهم ، انظر ص ٢٣ ، ٢٦ .

(٢) روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٧ .

(٣) راجع : الكشاف ٣ / ٥٣٠ ، وانظر : فتح القدير ٥ / ٢٩ ، روح المعانى ٢٦ / ٣٧ .

(٤) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٣ / ١٧٢ .

ولكن هل يصح هذا التخريج إذا فسر ما نزل على محمد بعموم الوحي ، أي بجميع ما ورد في كلام الله ورسوله ، أو ما بعث به عامة من الدين الحق كما جاء عند بعضهم ؟ اللهم لا ، ولذا يجيب بعضهم عن ذلك بأن ذكر الإيمان بما نزل على محمد إنما هو تعميم بعد ذكر أمور خاصة ، وهو حسن كما تقول : خلق الله السموات والأرض وخلق كل شئ ، إما على معنى وكل شئ غير ما ذكرنا ، وإما على العموم بعد ذكر الخصوص[1] .

وأيسر من هذا وذاك أن يقال إن ذكر الإيمان بما نزل على محمد ﷺ لا هو من قبيل الخاص بعد العام إذا أريد به القرآن الكريم ، ولا من قبيل التعميم بعد التخصيص إذا أريد به الدين عامة ، وإنما هو بيان لمضمون الإيمان الأول وأنه إيمان بالحق ، كما يقول القائل : خرجت لعملي في الصباح الباكر وخرجت مصيبا ، أي وكان خروجي جيداً حيث نجوت من كذا وربحت كذا ، فكذلك لما قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » بين أن إيمانهم كان بما أمر الله وأنزل الله من الحق لا بما كان باطلاً من عند غير الله[2] ، ويدل على هذا ما ردده المفسرون من إرجاع الخبر بالحقية في قوله : « وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ » إلى الدين والإيمان مرة ، وإلى القرآن الكريم مرة أخرى[3] ، والأول هو الأولى لتفسيرهم الحقية فيه بكونه ناسخاً لما قبله ، وما نزل على محمد ﷺ عامة من الدين الحق هو الذي انتهت به صلاحية ما نزل على غيره أو جاء به من قبل .

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازي ٧ / ٥٠٣ .
(٢) التفسير الكبير ٧ / ٥٠٣ .
(٣) راجع : الكشاف ٣ / ٥٣٠ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٢٤ ، روح المعاني ٢٦ / ٣٧ .

وفى جزاء هؤلاء المؤمنين العاملين للصالحات يجئ الإخبار أولا بتكفير السيئات من أعمالهم وسترها عليهم وعدم مؤاخذتهم بها ، وهو المعبر عنه فى كثير من آيات القرآن الكريم بغفران الذنوب والعفو عنها ، إذ إن التكفير والمغفرة من باب واحد فى المعنى .

والتعبير بالتكفير مشعر بإثبات أمر آخر يغطى السيئة وهو المعنى المذكور فى قوله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ »[1] ( الفرقان ٧٠ ) ، وهى بشارة ما كانت تحصل بتعبير آخر كإعدامها ومحوها .

هذا ويرجع بعض المفسرين فى تحديد هذه السيئات المكفرة عند المؤمنين إلى ما مضى منها قبل إيمانهم[2] أو ما سلف منها بإطلاق[3] دون ما يقع منهم بعد الإيمان أو فى القابل من عمرهم ، وهو تحديد لا دليل عليه عند هؤلاء المفسرين اللهم إلا ما يشعر به التعبير فى الجزاء بلفظ المضى ، أو جعل الآية فى خصوص أقوام بأعينهم ، وفضلاً عما انتهينا إليه من عموم لفظ الآية فإن هذا التحديد يذهب - فى الحقيقة بمضمون الآية فى رفعة شأن المؤمن دائماً ، وتميزه على غير المؤمنين الذين تسقط عنهم ذنوبهم بمجرد دخولهم فى الإسلام الذى يجب ما قبله من الذنوب ويمحوها كما قال ﷺ لعمرو بن العاص : « ياعمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله وإن الهجرة

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٥٠٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى ١٦ / ٢٢٤ .

(٣) فتح القدير - الشوكانى ٥ / ٣٠ .

تجب ما كان قبلها »[1] وفى القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : « قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ » (الأنفال ٣٨) .

وهكذا نجد أن تكفير الله لسيئات الذين آمنوا يقع تماماً فى مقابلة إبطاله لأعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات فى شكلها وظاهرها وهو تقابل يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله وفى حقيقة الحياة[2] ، وصدق الله « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ » ( هود ١١٤ ) .

ويجئ الإخبار ثانياً بإصلاح بال المؤمنين وهو معنى واسع سعة مدلول لفظ البال نفسه والمنقول عن كثير من اللغويين والمفسرين ، والذى نجمله فى إصلاح سرائر المؤمنين وظواهرهم وسائر أحوالهم الدينية والدنيوية كعصمتهم من الكبائر وإرشادهم إلى أعمال الخير واطمئنانهم إليها ورضاهم بما لهم عند الله من الجزاء الأوفى مما تستقيم له مشاعرهم وعقولهم وترتاح له قلوبهم وضمائرهم .

ومن الملاحظ فى هذا الطرف من الموازنة عند فريق المؤمنين أن الله قد أسند لهم أمرين : هما الإيمان وعمل الصالحات ، وذكر فى مقابلتهما أمرين

---

(١) أخرجه الإمام أحمد عن عمرو بن العاص فى حديث طويل بعد رجوعه من الحبشة وقدومه مع خالد بن الوليد على رسول الله ﷺ قبيل فتح مكة قال : فقدم خالد فأسلم وبايع ، ثم دنوت فقلت يارسول الله إنى أبايعك على أن يغفرلى ما تقدم من ذنبى ، فقال رسول الله ﷺ : « ياعمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله ، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها »

راجع : الفتح الربانى - أحمد البنا ٢٢ / ٣٣٩ .

(٢)فى ظلال القرآن - سيد قطب ٦ / ٣٢٨١ .

من أفعال الله هما تكفير سيئاتهم وإصلاح بالهم جزاءين مرتبين عليهما ، فتكفير السيئات إشارة إلى ما يثيب الله به على الإيمان ، وإصلاح البال إشارة إلى ما يثيب به على العمل الصالح ، وهذه طريقة القرآن الكريم كلما ذكر الإيمان مقروناً به العمل الصالح رتب عليهما المغفرة والأجر كما نجده في قوله تعالى : « فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ( الحج ٥٠ ) وقال : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » ( العنكبوت ٧ )[1] .

جـ ) ثم تجيء الآية الأخيرة في هذا المقطع لتكمل الموازنة بين طرفيها السابقين ، وتبين لنا أساس الموازنة والمفارقة بين إضلال عمل الكفار ولو كان صالحاً ، ومغفرة أعمال المؤمنين السيئة ، وتوضح لنا السبب الحقيقي في هذه التفرقة بين الفريقين : لم كان الإضلال لهؤلاء ؟ ، ولم كان الغفران لأولئك ؟

إنها ليست المحاباة أو المصادفة كما يظن غير الفاقهين لدين الله ، بل إن ذلك أمر له أصله الثابت المرتبط بالناموس الذي قام عليه الوجود يوم خلق السموات والأرض بالحق وجعل الحق هو الأساس[2] ، « مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » (الروم ٨) ، ومن ثم يجيء تقرير الآية مبرزاً لهذا الأصل والأساس الذي انبنى عليه كل من

---

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازي ٦ / ٤٧٠ ، ٧ / ٥٠٣ .

(٢) في ظلال القرآن - سيد قطب ٦ / ٣٢٨١ .

الجزاءين وكاشفاً عن سلوك كل من الفريقين وعقيدته التى حفزت إليه ؛ إنه اتباع الكفار للباطل ، واتباع المؤمنين للحق الذى يجيئهم من ربهم الذى يرعاهم ولا يكلهم إلى غيره .

فإضلال أعمال الكافرين بسبب اتباعهم الباطل من الشرك بالله والعمل بمعاصيه، وذلك التكفير لسيئات المؤمنين وإصلاح بالهم بسبب اتباعهم الحق الذى أمر الله باتباعه من التوحيد والإيمان وعمل الطاعات ، فتحت كلمتى الباطل والحق - كما رأينا - يندرج الكفر وما يحفز إليه من شرور وآثام وانحراف فى السلوك الفردى والجماعى ، والإيمان وأعماله وأخلاقه الفردية والجماعية ، وهو ما أشرنا إليه إجمالاً فى طرفى الموازنة السابقين من قبل .

ومن فلسفة هذا الأمر وحكمته أن الباطل - كما جاء فى معناه - مالا يجوز وجوده ، وذلك لأن الكفار اتبعوا إلهاً غير الله ، وإله غير الله محال الوجود ، وهو الباطل المعدوم الذى لا يجوز وجوده ولا يمكن أن يوجد ولا يجوز أن يصير حقاً موجوداً فهو فى غاية البطلان ، وعلى هذا فالحق هو الذى لا يمكن عدمه ، وهو الله تعالى ؛ لأن الحق هو الموجود ، والموجود الذى لا يجوز عدمه هو فى غاية الثبوت[1] .

فالباطل الذى ليست له جذور ثابتة فى هذا الوجود ذاهب وهالك ، وكل من يتبعه وما يصدر عنه ذاهب وهالك كذلك ، ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم وهلكت ولم يبق منها شئ ذو غناء ، والحق ثابت تقوم عليه السموات والأرض وتضرب جذوره فى أعماق هذا

---

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازى ٧ / ٥٠٥ .

الكون ، فما يتصل به ويقوم عليه ثابت وباق ، ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم (١) .

وهكذا نجد في تقرير هذه الآية « ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ » تصريح بما أشعرت به الآيتان السابقتان من السببية لما فيهما من البناء على الموصول - وهو ما وضحناه قبل بعموم الآيتين وشمولهما لكل من تحقق فيه عنوان الصلة ، أي كل من اتصف بالكفر والصد في جانب ، واتصف بالإيمان والعمل الصالح في جانب آخر (٢) ويسميه علماء البيان بالتفسير على طريق اللف والنشر ، وهو من محاسن الكلام الذي يتناسب فيه المعنى ونظيره قوله تعالى : « وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ » ( القصص ٧٣ ) .

ولا ينتهي المقطع قبل أن تسجل الآية الأخيرة منه القاعدة العامة المستنبطة من هذه الموازنة ، والتي صارت لوضوحها الشديد مثلاً متعدد الجوانب ، يبين الله للناس في كل زمان ومكان أمثالهم على نحو ما بين به حال هذين الفريقين ، وباستطاعة الناس بعد ذلك أن يتبينوا مواقعهم من اتباع الباطل أو اتباع الحق فيقيسون إلى هذه القاعدة أنفسهم وأعمالهم ولا يحتارون في الوزن والقياس .

---

(١) في ظلال القرآن - سيد قطب ٦ / ٣٢٨١ .

(٢) من صور الإجمال كذلك في الآيتين السابقتين الذي فصل في الآية الثالثة ما جاء من قوله تعالى في حق المؤمنين : « وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ » فإنه مقابل لقوله في حق الذين كفروا : « وصدوا » ؛ لأن من معاني الصد أنه عن اتباع محمد ﷺ ، وهذا حث على اتباع محمد ﷺ ، فلا جرم حصل لهؤلاء من الجزاء ضد ما حصل لأولئك ، فأضل الله حسنات هؤلاء وستر على سيئات أولئك » انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٠٤ .

ولئن قيل هنا : أىّ مثل ضربه الله تعالى حتى يقول : « كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » ؟ فنقول : إن اتباع الكافرين للباطل وجزاءهم عليه بإضلال أعمالهم وخيبتهم وحسرتهم ، واتباع المؤمنين للحق وجزاءهم عليه بتكفير سيئاتهم وفوزهم وفلاحهم - صار مثلاً يضربه الله عز وجل للناس ليتعظوا به ، ويتبينوا الهدى من الضلال ، والحق من الباطل ، فمن ذلك يعلم أن كل شئ اتبع فيه الحق كان مقبولاً مثاباً عليه ، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردوداً معاقباً عليه فصار هذا عاماً فى الأمثال[1] .

ويجوز أن يراد بضرب الأمثال التمثيل والتشبيه بأن جعل سبحانه اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار والإضلال مثلاً لخيبتهم ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين وتكفير السيئات مثلاً لفوزهم[2] .

على أنا نقول : قوله : « كَذَٰلِكَ » لا يستدعى أن يكون هناك مثل مضروب ، بل معناه أنه تعالى لما بين حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبيّن السبب فيهما كان ذلك غاية الإيضاح فقال : كذلك ، أى مثل هذا البيان يضرب الله للناس أمثالهم ويبين لهم أحوالهم[3] .

ومادام قد وضح أن الكفار يصدون الناس عن سبيل الله بعد أن آثروا الضلال واتبعوه ... وماداموا قد فقدوا اعتبارهم عندما أهدرت أعمالهم من حيث إن الإنسان إنما يعتبر بعمله ، وماداموا أعداء شديدى العداوة للمؤمنين يتمنون لو أتيحت لهم فرصة يفتكون فيها بالمسلمين ويقضون على دينهم - فماذا يجب على المسلمين نحوهم ؟ وما الموقف الذى ينبغى أن يكون معهم ؟ هذا ما قررته الآيات الكريمة فى المقطع التالى .

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازى ٧ / ٥٠٦ .

(٢) انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل - الزمخشرى ٣ / ٥٣٠ ، روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٨ .

(٣) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٠٦ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٢٤ .

## المقطع الثانى

### من هدى القرآن الكريم

### فى علاقة المؤمنين بالكافرين

قال تعالى : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ٦ » .

**التحليل اللغوى والقراءات :**

**لَقِيتُمُ** : قابلتم ، من اللقاء وهو مقابلة الشئ ومصادفته معاً ، وقد يعبر به عن كل واحد منهما ، ولقيته بكذا إذا استقبلته[1] ، وكل شئ استقبل شيئاً وصادفه فقد لقيه من الأشياء كلها ، وكل شيئين يلقى أحدهما صاحبه فهما لقيان ، ويقال : التقى الفارسان إذا تحاذيا وتقابلا[2] ، ومن معانى اللقاء الحرب ، يقال : لقاء فلان لقاء ، أى حرب[3] .

**ضَرْبَ الرِّقَابِ** : الرقاب جمع رقبة ،وهى فى الأصل اسم للعضو المعروف وهو العنق عامة ، أو أعلاها أو مؤخر أصلها ، وهو المراد بها فى الآية ،

(١) المفردات - الراغب الأصفهانى ص ٦٨٤ .

(٢) لسان العرب - ابن منظور ٥ / ٤٠٦٥ مادة : لقى .

(٣) راجع : أساس البلاغة ص ٤١٣ ، الكشاف عن حقائق التنزيل ٣/ ٥٣٠ .

واستخدمت الرقبة فى اللغة كناية عن جميع ذات الإنسان وتسمية للشئ ببعضه كما يعبر عن الحيوان بالرأس والمركوب منه بالظهر ، وجعلت الرقبة فى التعارف اسماً للمملوك ، فإذا قال القائل : اعتق رقبة فكأنه قال : اعتق عبدا أو أمة ، قال تعالى : « وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ » ( التوبة ٦٠ ) ، ومنه قول ابن سيرين : لنا رقاب الأرض ، أى نفس الأرض[١] .

وضرب الشئ يكون باليد والعصا والسيف ونحوها كقوله تعالى هنا : « فَضَرْبَ الرِّقَابِ » والمقصود بضرب الرقاب القتل ، وهو أكثر ما يكون بحز الرقبة وتعرضها لإعمال السيف فيها وكون ضربها أخصر وسيلة للإجهاز على الإنسان ، فالتعبير مجاز مرسل عن القتل[٢] ؛ لأن الآية جعلت الإثخان وإضعاف شوكة العدو غاية للضرب ، ولا يتحقق الإثخان وكسر شوكة الأعداء إلا أن يستحر القتل فيهم .

واللفظ « ضَرْبَ » منصوب على المصدرية ، مفعول مطلق لفعل واجب الحذف فى مثل هذا الحال كما نبه عليه علماء النحو ، وهو من إضافة المصدر إلى مفعوله .

**أَثْخَنْتُمُوهُمْ** : أصله من الثخانة ، وثخن الشئ ثخونة فهو ثخين ، إذا غلظ وصلب فلم يسل وامتنع من الحركة ، وأثخنتموهم أكثرتم فيهم القتل والجراح بشدة وغلظة ، من الإثخان وهو المبالغة فى الشئ والإكثار منه ،

---

(١) راجع : المفردات ص ٢٩٢ ، لسان العرب ٣ / ١٧٠١ مادة : رقب .

(٢) روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٩ ، وانظر : فتح القدير ٥ / ٣٠ .

يقال : أثخنه المرض ، إذا وهن واشتدت قوة المرض عليه ، وأثخنته الجراحة أوهنته ، وأثخن فى الأرض أكثر القتل ، ومنه قوله تعالى : « حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ » ( الأنفال ٦٧ ) ، أى يبالغ فى قتل أعدائه حتى يتمكن منهم ويصيروا فى قبضته[١] .

**فَشُدُّوا الْوَثَاقَ** : الوثاق - بفتح الواو - فى الأصل مصدر ، تقول : أوثقته إيثاقاً ووثاقاً ، ثم أطلق على الشئ الذى يوثق به ويربط كالحبل وغيره ، وكسر الواو « وِثاق » لغة فيه ، وجمعه وُثُق بمنزلة الرباط والربط[٢] ، وأوثقت الشئ فى الوثاق شددته فيه ، ومنه ما معنا هنا « فَشُدُّوا الْوَثَاقَ » ، والمراد قيد الأعداء وأسرهم وإحكام القبضة عليهم حتى لا يفلتوا[٣] .

**مَنّاً** : أصل المن ما يوزن به ويقدر ، والجمع أمنان ، ويقال لما يقدر ممنون كموزون ، ومنه قوله تعالى : « فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » ( التين ٦ ) ، والمن على وجوه كثيرة فى القرآن الكريم منها : ما يعطاه الإنسان بلا مؤنة ، وفى الحديث : « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين »[٤] شبهها بالمن الذى كان يسقط على بنى إسرائيل من السماء

---

(١) راجع : المفردات ص ١٠٦ ، أساس البلاغة ص ٤٣ ، لسان العرب ١ / ٤٧٣ مادة : ثخن .

(٢) مجئ فعال اسم آلة كالحزام والركاب نادر فى اللغة وعلى خلاف القياس . انظر : روح المعانى ٣٩/٢٦ .

(٣) راجع : المفردات ص ٨٠٤ ، لسان العرب ٦ / ٤٧٦٤ مادة : وثق .

(٤) الكَمْأة - بهذا الضبط - شئ أبيض كالشحم ينبت بنفسه من الأرض كرهه العرب وذموه ، فأرشد الرسول ﷺ إلى نفعه وفائدته ، والحديث عند الترمذى وابن ماجه ، وأخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة فى أبواب ما وصفه النبى ﷺ من الأدوية وخواص الأشياء . راجع الفتح الربانى ١٦٧/١٧ .

عفوا بلا علاج ، فيصبحون وهو بأفنيتهم فيتنا ولونه ، فكذلك الكمأة لا مؤنة فيها ببذر ولا سقى[1] .

ومنها : إعطاء النعمة ، تقول : من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة ، وقد يكون ذلك فعلاً أو قولاً كما جاء فى قوله تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ » ( الحجرات ١٧ ) ، فالمنة منهم بالقول ، ومنة الله عليهم بالفعل ؛ لأنه المنان[2] ، والمن فى قوله : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ » هو مصدر منّ ، ومعناه إطلاق سراح الأسير بدون فداء أو مقابل ، ومنه قول قتيلة تخاطب رسول الله ﷺ فى رثاء أخيها النضر بن الحارث بعد أن قتله ﷺ .

ما كان ضرك لو مننت وربما    منّ الفتى وهو المغيظ المحنق[3]

فداءً : مصدر الفعل فدى أو فادى ، واستعمال الأخير مع الأسرى أحسن ، والفداء فكاك الأسير ، تقول العرب : فاديت الأسير وفديته بمالى ، قال فى اللسان : فدى إذا أعطى مالا وأخذ رجلاً ، وأفدى إذا أعطى رجلاً وأخذ مالا ، وفادى إذا أعطى رجلاً وأخذ رجلاً ، والمفاداة أن يرد أسرى العدو ويسترجع منهم من فى أيديهم[4] .

---

(١) لسان العرب - ابن منظور ٦ / ٤٢٧٩ مادة : منّ .

(٢) المفردات - الراغب ص ٧٢٠ .

(٣) أحكام القرآن - ابن العربى المالكى ٤ / ١٧٠٣ .

(٤) راجع : لسان العرب ٥ / ٣٣٦٦ مادة : فدى ، المفردات ص ٥٦٣ .

وفى الكلمة قراءة أخرى لابن كثير ( فدَى ) بالفتح والقصر معاً[1] ، واللفظان منا وفداء منصوبان لكونهما مصدرين ، تقدير الكلام فإما تمنون منا وإما تفدون فداء ، ولا متعلق للمصدرين يقعان عليه ؛ لأن المقصود المن والفداء فى حد ذاتهما وإرشاد المؤمنين إلى الفضل ، كما تقول : فلان يمنح ويمنع بإثبات فاعلية المنح والمنع دون نظر لبيان المفعول[2] ، وقدم المن على الفداء فى الآية إشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ؛ ولأن المن بغير فداء من مكارم الأخلاق ، وقد كانت العرب تفتخر به كما قال شاعرهم :

ولانقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم[3]

**تَضَعَ الْحَرْبُ** : الحرب نقيض السلم معروف ، وأكثر استعماله فى القتال كقول الله تعالى : « **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ** » ( الأنفال ٥٧ ) ، قال فى اللسان : وقد أنثوا الحرب لأنهم ذهبوا بها إلى المحاربة ، وكذلك السِّلم والسَّلم يذهب بهما إلى المسالمة ، ولذا عاد الضمير عليها مؤنثاً فى قوله : « **حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** » ، وحكى ابن الأعرابى فيها التذكير ، وهى حكاية نادرة حمل لفظ الحرب فيها على معنى القتل والهرج[4] .

وقد يراد بالحرب الأعداء المحاربون أنفسهم تقول : فلان حرب لى ، أى عدو محارب[5] ، وعلى ذلك فوضع الحرب لأوزارها إما أن يكون على

(١) روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٣٩ .
(٢) انظر : التفسير الكبير : الفخر الرازى ٧ / ٥٠٨ .
(٣) انظر : فتح القدير - الشوكانى ٥ / ٣٠ .
(٤) لسان العرب ٢ / ٨١٦ مادة : حرب .
(٥) لسان العرب - ابن منظور ٢ / ٨١٦ مادة : حرب .

الحقيقة والحرب هم المحاربون ، أو على طريق المجاز بإسناد الوضع إليها وهو لأهلها[1] .

**أَوْزَارَهَا** : واحدها وزر ، وهو الحمل الثقيل تشبيها له بالوزر وهو الجبل المنيع ، وسمى الذنب وزراً لثقله ، ومعدات الحرب وآلاتها الثقيلة أوزار ، وهو المراد فى الآية ، ومنه سمى الوزير وهو من يعتمد عليه السلطان ويحمل عنه أثقال ما أسند إليه من تدبير الأمر[2] ، ووضعت الحرب أوزارها انقضى أمرها وخفت أثقالها فلم يبق قتال ولا حرب .

**ذَلِكَ** : اسم الإشارة أشير به إلى ما تقدم قبله من قوله: « **فَضَرْبَ الرِّقَابِ** »، وجئ به للفصل بين كلامين ، والانتقال من أولهما إلى ثانيهما ، كأنه قال : ذلك - أى الذى مضى من الكلام - ما أردنا قوله فى هذا الشأن ، ونقول بعده كذا وكذا ، ونظيره قوله تعالى : « **هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ** » ( ص ٥٥ ) ، وعليه يكون اسم الإشارة مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما تقدم ، أى ذلك حكم الكفار[3] ، ويجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقدير الكلام الأمر ذلك .

**لانْتَصَرَ مِنْهُمْ** : أى أهلكهم وانتقم منهم بغير قتال ، ودون أن يكلفكم بحربهم ، إما بخسف أو رجفة أو غرق أو غير ذلك من أسباب

---

(١) راجع : فتح القدير ٥ / ٣٠ ، روح المعانى ٢٦ / ٤١ - ٤٢ .

(٢) لسان العرب - ابن منظور ٦ / ٤٨٢٤ مادة : وزر .

(٣) فتح القدير - الشوكانى ٥ / ٣١ .

الهلاك كالتى نزلت بالأمم السابقة من قبل[1] ، والفعل جواب للشرط المتقدم فى قوله : « لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ » ؛ ولذا دخلت عليه لام الجواب لكونه ماضيا ، وقد امتنع الانتصار لامتناع المشيئة من الله وهو ما أفادته « لو » الشرطية .

**لِيَبْلُوَ** : من البلاء وهو الاختبار والامتحان ، ومثله الابتلاء ويكون فى الخير والشر ، والله تعالى يبلى العبد بلاء حسناً ويبليه بلاء سيئاً ، وفى الآية بلاء للمؤمنين بجهاد الكافرين وبلاء للكافرين بمعاجلة المؤمنين لهم ببعض عذابهم كى يرتدع بعضهم عن الكفر[2] .

**قُتِلُوا** : القتل معروف ، وأصله إزهاق الروح وإزالتها عن الجسد كالإماتة بضرب أو حجر أو سم ونحوه ، فإذا اعتبر بفعل المتولى لذلك كان قتلا ، وإذا اعتبر بفوت الحياة كان موتا[3] ، والمراد بقتل هؤلاء استشهادهم عند قتالهم الذين كفروا .

وفى اللفظ قراءات عدة ، فبناء الفعل للمفعول مخففاً « قُتِلُوا » قراءة حفص وأبى عمرو ، وبناء الفعل للمفعول مع تشديد التاء على التكثير قراءة

---

(١) روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٤٢ .

(٢) راجع : لسان العرب ١ / ٣٥٥ مادة : بلا ، أنوار التنزيل ٢ / ٣٩٣ .

(٣) راجع : المفردات ص ٥٩٣ ، لسان العرب ٥ / ٣٥٢٨ مادة : قتل .

الحسن[١] هكذا « قُتِّلُوا »، وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر وأبو حيوة « قَتَلُوا » بفتح القاف والتاء من غير ألف بينهما على بناء الفعل للفاعل، يعني الذين قتلوا المشركين، وقراءة عامة القراء « قَاتَلُوا » ببناء الفعل للفاعل مع فتح القاف والتاء وألف بينهما وهو اختيار أبي عبيد[٢] .

**فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ** : الإضلال إبطال العمل وتضييعه ، وهؤلاء المجاهدون - قتلوا أو لم يقتلوا - لن يضيع الله ثواب أعمالهم وأجرهم ، وفي لفظ « يُضِلَّ » قراءات أخرى غير قراءة حفص عن عاصم ، فقراءة عليّ كرم الله وجهه « يُضَلَّ » مبنيا للمفعول، و « أَعْمَالُهُمْ » بالرفع على النيابة عن الفاعل ، كما قرئ « يَضِلَّ » بفتح الياء مضارع ضل . و « أَعْمَالُهُمْ » بالرفع على الفاعلية[٣] .

---

(١) يعلم وجه هذه القراءة « قُتِّلُوا » بما روى عن عبد الله بن عباس في حديث طويل وأخرجه الإمام أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل والحاكم وله شواهد في الصحيح أن الآية نزلت في قتلى أحد ، وقد نادى المشركون يومئذ : اعل هبل ، ونادى المسلمون : الله أعلا وأجل ، فنادى المشركون يوم بيوم بدر ، وأن الحرب سجال ، لنا عزى ولا عزى لكم ، فقال ﷺ : الله مولانا ولا مولى لكم ، إن القتلى مختلفة ، أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون » راجع : تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٤١٢/١ ، الفتح الرباني - أحمد البنا ٥٦/٢١ ، روح المعاني - الألوسي ٤٣/٢٦ .

(٢) راجع في هذه القراءات : التبصرة ص ٥٠٨ ، غيث النفع ص ٣٥٣ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٣٠/١٦ ، أنوار التنزيل ٣٩٣/٢ ، فتح القدير ٣١/٥ ، روح المعاني ٤٢/٢٦ .

(٣) روح المعاني - الألوسي ٤٣/٢٦ .

**سَيَهْدِيهِمْ** : من الهداية ، وأصل معناها فى اللغة الإرشاد والدلالة فى لطف ، وتبلغ عدة وجوهها ومعانيها فى القرآن الكريم سبعة عشر وجهاً[1] ، وهداية الله لهؤلاء إما فى العاجلة وهو المتفق مع القراءتين « قَتَلُوا » و « قَاتَلُوا » ، وإما فى الآجلة وهو المتفق مع القراءتين « قُتِلُوا » و « قُتِّلُوا » .

فعلى الاعتبار الأول تكون هداية الله لهؤلاء بحفظهم وصيانتهم عما يورث الضلال وحبط الأعمال ، وعلى الثانى تكون إرشادا لهم إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها ليصلوا إلى ثواب أعمالهم من النعيم والفضل من غير وقفة من قبورهم إلى موضع حبورهم[2] .

**الْجَنَّةَ** : هى دار جزاء المؤمنين ونعيمهم فى الآخرة ، والأصل فيها بستان ذى شجر ونخل يستر بأشجاره الأرض ، قال تعالى : « **وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ** » ( الكهف ٣٩ ) أى بستانك ، وسميت دار الجزاء للمؤمنين بذلك تشبيهاً لها بالجنة فى الأرض وتقريباً منها وإن كان بينهما بون شاسع[3] ، لا يقاس ما فى عالم الغيب على ما فى عالم الشهادة ، وإما لاستتار نعمها عنا ، ويقرب هذا وذاك ما قاله ﷺ : « قال الله :

(١) راجع : الإتقان فى علوم القرآن ١/١٨٥ ، لسان العرب ٦/٤٦٣٨ ، تأويل مشكل القرآن ص ٤٤٣ ، الأشباه والنظائر ص ٨٩ - ٩٥ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٣٠ ، التفسير الكبير ٧/٥١٠ ، روح المعانى - الألوسى ٢٦/٤٣ .
(٣) المفردات - الراغب الأصفهانى ص ١٣٨ .

أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا إن شئتم : « **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ** » ( السجدة ١٧ )[١] .

**عَرَّفَهَا لَهُمْ** : من التعريف والإعلام تقول : عرفه الأمر أعلمه إياه ، وعرفه بيته أعلمه بمكانه ، وعرفها لهم بينها لهم حتى عرفوها من غير استدلال ، وذلك من وصف الله تعالى إياها لهم فى الدنيا ، وتشويقهم فيها ، ونظير هذا من التعريف والمعرفة ما فى قوله تعالى : « **عرف بعضه وأعرض عن بعض** » ( التحريم ٣ )[٢] ، وعن ابن عباس : طيبها لهم بأنواع الملاذ مأخوذ من العرف وهو الرائحة الطيبة مثل الطعام المطيَّب المعرَّف[٣] .

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة راجع : فتح البارى ٣١٨/٦ .

(٢) هذا معنى قول مجاهد وأكثر المفسرين أنهم إذا دخلوا الجنة تفرقوا إلى منازلهم فهم أعرف بها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم ، وفى البخارى ما يدل على صحة هذا القول عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة منه بمنزلة فى الدنيا » راجع : الجامع لأحكام القرآن ٢٣١/١٦ ، فتح البارى - كتاب الرقاق - باب القصاص ٣٩٥/١١ .

(٣) راجع المفردات ص ٤٩٦ ، لسان العرب ٢٨٩٨/٤ ، روح المعانى ٤٣/٢٦ .

**التفسير والبيان :**

جاء هذا المقطع من سورة القتال - بتوجيهاته ومافى حيزه من الأوامر - مرتباً على سابقه ترتب النتيجة على سببها[1] ، فإن ضلال أعمال الكفرة وخيبتهم وإصرارهم على ماهم فيه من كفر وصد عن سبيل الله واتباعهم الباطل الذى ينبغى أن تذهب آثاره من الحياة فى جهة - وصلاح أحوال المؤمنين وفلاحهم بعملهم الصالح ولما هم عليه من الحق الثابت الذى ينبغى أن يتقرر فى الأرض وتقوم عليه حياة الناس وأقدارهم فى جهة أخرى - إن ذلك كله من شأنه أن يرتب على كل من الجانبين ما يليق به من الأحكام ، وإنه القتل لهؤلاء الكفار وجهادهم بالسيف يأمر الله به المؤمنين عند لقائهم الكفار فى الحرب من أجل نصرة دين الله وإعلاء كلمته وإزاحة العوائق والسدود التى يصطنعها هؤلاء الكفار لمنع وصول هذه الكلمة لعباد الله .

ومن ثم يجب أن يكون تنفيذ هذا الأمر بقوة وشدة وألا تأخذ المسلمين بهؤلاء الكفار شفقة أو رحمة وألا يرفقوا بهم أبدا بعد أن تنكروا للدين الحق وأعلنوها عليه حرباً شعواء ، بل ينبغى أن يحكموا السلاح فى رقابهم ويحصدوهم بسيوفهم حصداً ، فلا يكون ذلك قضاء على عناصر الإفساد فى الأرض والصد عن سبيل الله فحسب ، بل ردعا كذلك لمن يرصدون ثغرات المسلمين ويترقبون الفرص ويتحينون الظروف للنفاذ منها والوصول

---

(١) يتضح ذلك من دخول فاء الترتيب والتعقيب التى تستدعى تعلق ما بعدها بما قبلها ؛ إذ لما بين حال الكفار ومآل أعمالهم من الإهمال وعدم الاعتبار ، وصيرورتهم مع ذلك صادين مؤذين لغيرهم حسن إعدامهم بضرب أعناقهم عند لقائهم . انظر : التفسير الكبير - الفخر الرازى ٥٠٦/٧ .

إلى صدهم عن السبيل ، قال تعالى « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ » ( الأنفال ٥٧ ) ، وقال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » ( الأنفال ٦٠ ) .

واللافت للنظر هنا أن أمر الله بقتل هؤلاء الكفار عند لقائهم فى الحرب لا يأتى مباشراً هكذا « اقتلوهم » كما جاء فى آيات أخر ، وإنما يصدر التعبير عن هذا الأمر بما يشجع المؤمنين على تنفيذه ، وأنهم ينبغى أن يكون موقفهم من الكافرين بحيث يتمكنون من القتل بضرب أعناقهم فى الحرب وألا يهنوا أو يتهاونوا فى ذلك بعد أن أعذروا الكفار واستنفدوا معهم وسائل الإقناع بالحكمة والحسنى ، ولكن هؤلاء قابلوا ذلك كله بإصرارهم على مجابهة المسلمين وإخافة من يفكر فى ترك معتقداتهم واعتناق عقيدة المسلمين والدخول فى دينهم ، فهذا الأمر يصدر عن الله بهذا الأسلوب القوى مع إيجازه « فضرب الرقاب »[1] حيث ينصب الضرب على الرقاب ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأشرف أعضائه وأوجهها ومجمع حواس البدن ثم بقاؤه ملقى هكذا على هيئة منكرة[2] .

---

(١) من مظاهر قوة التعبير استخدام المصدر المؤكد لفعله وحذف فعله ثم تقديم المصدر وإحلاله محل فعله المحذوف وإضافة المصدر إلى مفعوله .

(٢) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٢٢٦/١٦ ، روح المعانى ٣٩/٢٦ .

وليس من شك أن تنفيذ الأمر بالضرب على هذا النحو إنما يؤدى إلى الغاية منه وهو كسر شوكة الكفار وقهرهم بإكثار القتل فيهم على هذا النحو الغليظ المعبر عنه بإثخانهم وتحطيم قوتهم وخطرهم ، وهى غاية ما تلبث أن تتحقق فإذا بها تمهيد وتوطئة لما يترتب عليها من الأوامر الأخرى كأن هذه الغاية مفروغ من وقوعها وتحققها ، فإذا ما كان الأمر كذلك وأكثر المؤمنون القتل فى الكفار وتمكنوا من أخذ من لم يقتل منهم حتى لم تعد بهم قوة على هجوم أو قدرة على دفاع - فعليهم أن يحكموا قبضتهم على الكفار ويأسروهم ، ويظلوا محتفظين بهم فى قبضتهم وهو المكنى عنه بشد وثاقهم .

أما ماذا يكون بعد هذا الأسر وتشديد القبضة عليهم ؟ فهذا ما تقررت أحكامه بهذا الجزء من الآية « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » ، وهذا هو حكم الإسلام فى أسرى الحرب من الكفار ، إنه التخيير بين أن يمن المسلمون على الأسرى ويطلقوا سراحهم دون مقابل أو عوض ، أو أن يقبلوا منهم الفداء نظير إطلاق سراحهم ليستعين به المسلمون على مصالحهم ، أو يكون ذلك مقابل إطلاق الكفار سراح أسرى المسلمين عندهم .

هذا ولا تذكر الآية - هنا ولا غيرها من آيات - خيارا ثالثاً فى حكم الأسرى[1] ، وإنما تمضى لتقرير غاية أخرى تنتهى إليها هذه الأحكام ، وهى انتهاء حالة الحرب عامة ، وأمن شرور الأعداء وعدم مناوأتهم المسلمين ، فهاهنا فى الآية غايتان : أولاهما الإثخان وهى غاية الأمر بالضرب لتحطيم

---

(١) ستأتى مناقشة هذه القضية فيما يطرحه المقطع القرآنى من قضايا إنسانية عالجها القرآن الكريم انظر ص ١١٤ .

قوة العدو وكسر شوكته التى هى الهدف الأول من القتال وخاصة حين يكون المسلمون قلة وأعداؤهم كثرة ، وبعد ذلك يكون الأسر فالمن أو الفداء حتى تتحقق الغاية الثانية التى حددها الله بقوله : « حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا »[1] .

فالأمر بضرب الرقاب والأمر بشد الوثاق بعد الإثخان فى قتل الكفار كلاهما مازال قائماً وسيظل[2] ؛ إذ الأمر لم يستقر بعد للمسلمين ، ومازال كثير منهم فى بقاع شتى من العالم غير آمنين على دينهم وعقيدتهم فضلاً عن أنفسهم وأوطانهم وأموالهم ، ومازالت قوى الباطل قابضة على مصائرهم وأمورهم وموجهة لآرائهم وفكرهم ، ومن ثم لا يمكن أن نقول إن الحرب قد وضعت أوزارها حتى الآن .

إننا مازلنا نشهد مظاهر الحرب والصراع بين الحق والباطل ومقاومة الكفار للدعوة متمثلة فى روح البغى والعدوان من جانب الكفار جميعاً صهيونيين وملاحدة وغيرهم ، وهم يندسون فى كل شعب ويتسللون إلى كل بلد ويمارسون أنشطتهم المكشوفة للعيان وفتنتهم للمسلمين عن دينهم فى كل وسائل الإعلام ، فكيف نخدع أنفسنا رغم كل هذه المظاهر فنزعم أن

---

(١) فى تحديد معنى وضع الحرب لأوزارها خلاف كبير وطويل عند المفسرين ، راجع : فتح القدير ٣٠-٣١ ، روح المعانى ٢٦/٤١ - ٤٢ .

(٢) لقتال المسلمين للكفار وتحقيق هذه الأوامر شروط معينة وأحوال بعينها نعرض لها فيما أثارته الآية من وهم دموية الإسلام وعدم إنسانيته وغير ذلك من أفهام سيئة وسقيمة اعترض بها على شريعة الإسلام وكتابه الكريم .

الحرب قد وضعت أوزارها وأن النصر قد أصبح لدين الله وكلمته ، ومن هنا نفهم قوله ﷺ : « والجهاد ماض منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر أمتى الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل »[1] .

غير أن الحرب - فى جوهرها - ليست عاملاً أصيلاً فى نصرة الحق على الباطل ، وفى عزة المؤمنين وذلة الكافرين ، فإن الله عز وجل لو أراد للحق أن ينتصر دون صراع ومن غير أن تكون حرب بين المؤمنين والكافرين لكان ذلك وتم النصر للمسلمين دون أن يحملوا سيفا أو يهريقوا دما أو يأخذوا من الكفار أسرى ، وقد وعى التاريخ البشرى وقائع كثيرة لكثير من الأمم ناهضت الحق الذى أتاهم به أنبياؤهم ، وظلوا سادرين فى غيهم ، لا يستجيبون لنصح الناصحين ولا يحذرون وعيد المنذرين حتى حل بهم عذاب الله ، وأخذهم بذنوبهم وطغيانهم[2] دون قتال من المؤمنين لهم أو مجالدتهم ومحاربتهم من إخوانهم بنى البشر ، وإنما بجنود أخر سلطها الله عليهم كالطوفان والصيحة والريح العقيم وغيرها من جنود الله « **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ** » ( المزمل ٣١ ) .

---

(١) أخرجه أبو داود من رواية أنس ، راجع : السنن كتاب الجهاد - باب الغزو مع أئمة الجور ١٨/٣ .

(٢) راجع صورا من ذلك الهلاك فى قصص الأنبياء بالسور القرآنية : الأعراف ، يونس ، هود ، المؤمنون ، الشعراء ، القصص .

ومن ثم يبين الله الحكمة من الأمر بالقتال ، وهى اختبار المؤمنين وامتحانهم بهذا القتال الذى فرض عليهم أن يخوضوه ، ففيه يتبين القوى من الضعيف ، ويتبين مدى صبرهم على المكاره واحتمالهم الشدائد فى سبيل الله ، ويتميز الجلد الصبور عمن لا صبر له ، ويتجلى ذو الإيمان المكين ومن فى إيمانه ضعف ، قال تعالى : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » ( آل عمران ١٤٢ ) ، « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » ( البقرة ٢١٤ ) ، « أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » ( العنكبوت ٢ - ٣ ) .

إن الغاية من القتال - إذن ليست نصرة الحق على الباطل ، فالله قدير على نصرته دون قتال ، وإنما الغاية أن يبتلى كلا من المؤمنين والكفار بهذا الأمر ، فالمؤمنون يقاتلون الكفار وقتالهم جهاد فى سبيل الله أمروا به وكلفوا تحمل متاعبه ، فهو ابتلاء لهم يرفع الله به درجتهم فى الآخرة ويجزل ثوابهم عليه ، والكفار يقاتلون المؤمنين ولكن قتالهم عناد ومكابرة وتشبث بالباطل ، فهو ابتلاء لهم يزيد من جرائمهم ، وييسر لهم ما يستحقون به غضب الله وعذابه ومضاعفة العقاب لهم فى نار جهنم .

ولا ينتهى هذا المقطع قبل أن يبين لنا سياق الآيات فيه صورة من ثواب المجاهدين ومنزلتهم عند ربهم ، ويجيب على السؤال المهم الذى يتردد فى نفوس البشر - وبخاصة المؤمنين - مع ابتلاء الله لهم وامتحانه إياهم بهذا الامتحان الرهيب ، وفحوى هذا السؤال أن الشئ النفيس لا يختبر بما يخاف منه هلاكه ، ولما كان الآدمى مكرماً كرمه الله وشرفه وعظمه كما قال تعالى عنه : « وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ » ( الإسراء ٧٠ ) ، وأن « مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً » ( المائدة ٣٢ ) فلماذا ابتلاه الله بالقتال وهو يفضى إلى القتل والهلاك إفضاء غير نادر ؟ وكيف يحسن هذا الابتلاء وهذه نتيجته[1] ؟

والحق أن القتل بالنسبة إلى المؤمن ليس هلاكاً ، إنما هو مورث للحياة الأبدية ، فإذا ابتلاه الله بالقتال فعلى تقدير قتله هو مكرم ؛ لأنه ظفر بالشهادة والحسنى فى الآخرة ، قال تعالى : « وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ » ( آل عمران ١٦٩ ) ، وعلى تقدير عدم قتله هو مكرم ، فقد نال الأجر الكبير والنصر المبين ، وإن لم يقاتل فالموت لابد منه وقد فوت على نفسه الأجر الكبير[2] .

---

(١) التفسير الكبير - الفخر الرازى ٧/ ٥١٠ .

(٢) التفسير الكبير - الفخر الرازى ٧/ ٥١٠ .

وفوق هذا فمغالبة المؤمنين للكفار ودفع بعضهم ببعض هو نوع من إصلاح أحوال الناس لإقرار القيم السليمة فى هذه الأرض والالتفات إلى وجوه الخير والنعم فيها التى ما تتميز وتدرك على حقيقتها إلا بهذه المدافعة التى تزلزل الناس من حين لآخر فتمحص بعضهم وتوقظ الآخرين وتنبههم ، وهو ما يشير إليه إجمال قول الله تعالى : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » ( البقرة ٢٥١ ) ، « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً » (الحج ٤٠) ، وهذا وذاك من فضل الله على الناس الذى يهون معه تطهير الأرض من هؤلاء وأمثالهم وافتداء دين الله وتوحيده بهم .

فأعمال المقاتلين فى سبيل الله من المؤمنين لذلك مهتدية موصولة بالحق الثابت الذى انبعثت حماية له ، وهى باقية غير ضائعة كضياع أعمال الكافرين[1] ، بل إن الله يكثرها وينميها ويضاعف الأجر عليها كما وعدهم ، وما داموا على طريق الحق فإن الله يتعهدهم بالهداية والرعاية وإصلاح الحال

(١) يلاحظ هنا ما بين التعبير عن إضلال عمل الكفار وعدم ضلال عمل المؤمنين المقاتلين من فرق جوهرى وتفاوت استدعاء ما وراءه من معنى مهم ، ففى حق الكافر كان التعبير بالمضي « أضل » ، وفى حق المؤمن بالمضارع « لن يضل » ؛ وذلك أن المؤمن المقاتل داع إلى الإيمان ، والكافر المقاتل صاد عنه ، وبينهما تباين وتضاد ، فقال فى حق الكافر « أضل » إشارة إلى أن عمله حيث كان عدم وكأنه لم يوجد من أصله وقال فى حق المؤمن « لن يضل » إشارة إلى أن عمله كلما ثبت عليه أثبت له . انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥١٠ .

والشـأن ، ويحفظهم ويصونهم عما يورث الضلال ويحبط الأعمال ، فلن يشغلهم عن سعادتهم ونعيمهم شاغل ، ولن يعكر عليهم صفوهم قلق نفسى أو اضطراب مادى مما يعرض لحياة غيرهم ، وكيف ينشغلون بذلك وقد تكفل الله لهم بالنعيم المقيم والفضل العظيم الذى ينالونه فى مقرهم الخالد ومنازلهم الطيبة التى عرفوها مع النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وفى هذه الصورة من ثواب المجاهدين الشهداء يروى الإمام أحمد وغيره عن المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له مع أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر[1] » ، فنعم ما أعطاهم ربهم من تلك الرعاية والعناية ، وبلوغهم ذلك المقام من رضى الله عز وجل عنهم فى حياتهم الباقية الدائمة فى ظلال الله ، وصدق الله العظيم : « **وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** » ( البقرة ١٥٤ ) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى كتاب الجهاد باب ما أعد الله للشهداء فى الجنة ، راجع : الفتح الربانى ١٤ / ٣٠ .

يمثل قتال الذين كفروا الذى أمرت به الآية القرآنية أحد المبادئ الإسلامية والقضايا القرآنية التى أسئ فهمها كثيرا على طول التاريخ الإسلامى واختلاف أوضاع المسلمين قوة وضعفا يستوى فى ذلك الفهم السئ من لا يؤمنون بالإسلام ولا يرون فى رسوله ﷺ أحد الرسل وخاتمهم الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، ومن يؤمنون بذلك ويرون فى قتال غير المؤمنين بشروطه فريضة على المسلمين توجبها الدعوة إلى الله ، ويناط بها استقامة الناس وهدايتهم على صراط الله الحميد .

نعم قد يكون لهذا الموقف من أعداء المسلمين وسوء فهمهم لقتال المسلمين إياهم ما يعذرون به ويسوغه لديهم حين يضعونه خطأ فى إطار ارتباطه فى أول أمره بانتشار الإسلام والدفاع عن دعوته ومقاومة أعدائه الذى لا يكون إلا على حساب انحسار خريطة الكفر وحقد الكافرين على هذا المد الإسلامى العظيم الذى قال عنه أبو سفيان وقد رأى قوة محمد ﷺ فى أصحابه يوم فتح مكة : سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ قال العباس هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار ، قال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ، قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة ، قال : فنعم إذن[١] .

---

(١) راجع : السيرة النبوية - ابن هشام ٤ / ٢٣ .

واعتبره إمام فى الكفر كـ - ڤولتير - جريمة فى حق البشرية ارتكبها محمد بإخراجه الناس وسوقهم كالقطيع من النور إلى الظلام[1] ، ليثبت للكافة من بنى البشر أنه - وهو محسوب من أئمة التحرر الفكرى - يتمتع بنصيب من الظلم لم يظلمه أحد للرسول الكريم ، وأن المتحررين - إياهم - لم يتحرروا بعد من تعصبهم ضد الإسلام ونبيه ﷺ .

أما « جلبرت » المؤرخ - وهو يؤرخ لحياة الرسول ﷺ فقد عد حماية الرسول والمسلمين للدعوة فى مهدها وقتال الكافرين ودفعهم عنها نوعا من الظلم فيقول : إنه ليست لديه مصادر عربية يستند إليها فى تقرير هذه الدعوى ، ولكن - يقول جلبرت : « لا خوف من الكلام عن رجل تفوق شروره أى ظلم يمكن أن نظلمه به[2] » .

ولكن كيف نفهم موقف بعض المسلمين المؤمنين بهذه الفريضة ووقوعها عندهم بين طرفى الإفراط والتفريط ؟ .

الإفراط الذى يخرج بحدود الفريضة ليجعل هم المسلمين بالليل والنهار وشغلهم الشاغل هو رفع السيف فى وجه من لا يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لا فرق عندهم بين حال وحال ، ودون نظر إلى قدرة المسلمين ومكنتهم من تحقيق ما ادعاه هؤلاء وفهموه عن هذه الفريضة ، ليصل هؤلاء بإفراطهم أن يكونوا هم المؤكدين لدعاوى أعداء الإسلام وتزييفهم لهذه الفريضة الإسلامية .

(١) راجع : تاريخ الإمام - محمد رشيد رضا ٢ / ٤٠٧ - ٤٠٩ .

(٢) الغزو الفكرى - محمد جلال كشك ص ١٩ .

والتفريط الذى يذهب بهذه الفريضة إلى دائرة التغييب كأنها ليست من الدين ، أو المرادفة بينها وبين المسالمة والموادعة ، والاستسلام والاستخذاء لأعداء الإسلام ، وقبول الهوان والذلة لمن يريد الله لهم الاستعلاء والعزة ، « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » ( المنافقون ٨ ) ، « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » ( محمد ٣٥ ) .

ونعرض فى هذه الوقفة لما أصاب الناس فى فهم هذه الفريضة من القتال فى سبيل الله التى فرضت على المسلمين وكتبت عليهم على كره منهم لها كما قال تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ » (البقرة ٢١٦ ) ، وما أثارته الآيات من قضايا إنسانية حول فريضة الجهاد احتدم النقاش حولها وانحرف الناس قليلا أو كثيرا عن هدى القرآن الكريم فيها .

**١- الجهاد فى فكر غير المسلمين واتباعهم :**

يتفق معظم المؤرخين على أن الشر الذى تمخضت عنه الحروب الصليبية قد تجاوز القتل والتدمير إلى التجهيل والتضليل ، فقد نقل الأوربيون صورة مشوهة عن الإسلام وحقيقته وقيمه الأخلاقية وعقيدته السمحة وشرعته الإلهية ، واستقر فى الضمير الأوربى بعامة أن الإسلام دين شهوانية وعنف ، وانجرف رجال الكهنوت والمستشرقون والمثقفون لقبول ذلك وتصديقه كحقيقة لا تقبل الحوار ، ووقفوا موقف العداء السافر والكراهية المطلقة للإسلام ، وقد عالجوا الإسلام لا على أنه موضوع بحث علمى بل كمتهم يقف أمام قضاته ، وبعض المستشرقين يمثلون المدعى العام الذى يحاول إثبات الجريمة ، وتذكر

أساليبهم فى ذلك بأساليب محاكم التفتيش التى كانت تقوم على فكرة ثابتة مسبقة لا سبيل لمناقشتها ، فهم يرون أن الطريق العلمى لبحث الإسلام هو إنكار قيمه مقدما ، فمحمد ليس إلا مصلحا دينيا وقرآنه صنعة بشرية ، فليس له من الحجية أكثر مما لرأى أى مسلم أو تفكيره ، بل إن تفكير كثير من الطوائف المنحرفة كالزنادقة والباطنية مساو فى القيمة الدينية للقرآن الكريم والسنة النبوية ، لأنها جميعا تصورات بشرية وأن المسلم فى كل عصر هو حجة على الإسلام فى سلوكه وأعماله والتزامه الخلقى[1] .

ويلخص روح العداء والحقد على الإسلام « كيمون » المستشرق الفرنسى فى هذا القول : « إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هو مرض مريع ، وشلل عام وجنون ذهولى يبعث على الخمول والكسل ، ولا يصحو المسلم منهما إلا لسفك الدماء والإدمان على معاقرة الخمر[2] » .

ومن هذا الفهم غير الموضوعى للإسلام ينبع فهمهم لمبدأ الجهاد ودعواهم أنه بغى وعدوان من أتباع محمد أقاموا عليه دينهم الجديد وأدخلوا الناس قهرا فى دينهم ، وما يزال المسلمون يغزون الناس فى عقر دارهم ويضربونهم بسيوفهم لتطويعهم للإسلام وإذلالهم لسلطانه ، وكلما سمعت لفظة الجهاد انصرفت أذهان غير المسلمين وأفكارهم إلى فئة تحمل سلاحها

---

(١) انظر : الله أو الدمار - سعد جمعة ص ٦٣ ، الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد ٥٣ .

(٢) انظر : الله أو الدمار - سعد جمعة ص ٦٥ .

على أكتافها تجوب البلاد وتفتك بالعباد لتقول لهم إما أن تدخلوا فى الإسلام وإما أن نضرب أعناقكم[(١)] .

يقول أحدهم : « فى القرن السابع الميلادى برز فى الشرق عدو جديد هو الإسلام الذى أسس على القوة وقام على أشد أنواع التعصب ، لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق حين سمح لأتباعه بالفجور والسلب ، ووعد الذين يهلكون فى القتال بالاستمتاع بالملذات الدائمة[(٢)] ، حتى قامت النصرانية تضع حدا بسيف « شارل مارتل » فى وجه سير الإسلام المنتصر عند « بواتيه » ، ثم قامت الحروب الصليبية فى سبيل الدين فتقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب وانتصر الإنجيل على القرآن[(٣)] » .

ويقول آخر : « لقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كله على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة ، وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عجل ، ودخلت فلسطين فى سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد » ، ويقول غيرهما : « إن محمدا أمر أتباعه أن يخضعوا العالم ويبدلوا جميع الأديان بدينه ، وما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين وبين النصارى[(٤)] .

---

(١) انظر : الجهاد - أبو الأعلى المودودى ص ٦ .

(٢) يشير المدعى هنا إلى معانى كثير من الآيات التى تقرر تكفير سيئات المؤمنين وفوزهم فى الآخرة بالنعيم المقيم كقوله تعالى هنا : « وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » .

(٣) انظر الله أو الدمار ص ٧٢ .

(٤) السابق نفس الصفحة ٧٢ .

ولقد نبه على هذا الفهم الضال وآثاره أحد المسيحيين الشرقيين فى كتابه المعروف « فى خطى محمد » فأشار إلى أن تلك الأفهام ترسبت فى عقول المسيحيين الغربيين ، وجعلتهم يرون فى الإسلام عدوا للمسيحيين بعامة ، ومثل هذا الشعور الخاطئ لا يخالج المسلم إطلاقا ، فالمسلم إذا كان مسلما حقيقيا لا يمنكه أن يشعر تجاه المسيحى إلا بالمودة والمحبة ، وذلك لأن القرآن الكريم وهو كلام الله يأمر بإكرام المسيح ومريم والمسيحيين وبمحبتهم .

أما المؤلفات الغربية عن محمد والإسلام فمعظمها ينفث التفرقة والتعصب الطائفى بتؤدة وفطنة حتى يغدو فى رأى الناس حقيقة لا جدال فيها ، مع أن الإسلام والمسيحية لم يقتتلا ولم يصطدما إلا لأسباب سياسية زمنية ، ولقد توصلت معظم الدول الغربية فيما مضى إلى استغلال الدين بحقن رعاياهم بذلك السائل المسموم فجعلها تفور لدى التلفظ بكلمتى مسلم وإسلام[1] .

كانت هذه ثمار التضليل والحقد فى نفوس مسيحى الغرب ومستشرقيه[2] ، أما فى الشرق فقد أثمرت أحقاد هؤلاء وضغائنهم ولقحت مناهجهم المزعومة فى البحث والنقد العلمى قرائح كثير من تلامذتهم من الشرقيين ، وانتقلت عدوى هذا الظلم إليهم وكانوا أقسى على أهليهم من هؤلاء الغربيين ، ولم ينج من ذلك بعض علماء الدين فى مصر الذى جاء فى

---

(١) انظر : الله أو الدمار - سعد جمعة ص ٥٣ .

(٢) السابق ونفس الصفحة .

كتابه « أن فكرة الجهاد خصيصة من خصائص الزعامة النبوية موقوتة بوقتها وظروفها ، ولذا فقد انتهى أمر الجهاد بوفاة صاحب الزعامة وانتهت بذلك شخصية الجماعة الإسلامية ، وبقى المسلمون بعد وفاته شيعا يختار كل منها الاتجاه السياسى الذى ينزع إليه[1] » .

ويسود فكر هذا الكتاب[2] روح التشويه لمعنى الجهاد فى الإسلام ورسالته وظروفه ، فهو لم يكن فى سبيل الدعوة إلى الدين أو حمل الناس على الإيمان بالله ورسوله ، وإنما كان لتثبيت السلطان وتكوين الحكومة الإسلامية وتوسيع الملك ، وما يمكن أن يفهم إلا على ذلك ، وإن تدبير الجيوش الإسلامية وعمارة المدن والثغور لا شأن للدين بها ، فليس فى الإسلام جهاد على الحقيقة ، وجهاد النبى لم يكن من صميم رسالته ولا جزءا منها[3] .

أما فى الشرق الأقصى فكان التشويه على نحو آخر وظهرت دعوة كبيرة تنسب نفسها إلى الإسلام ولكنها تساعد أعداءه وتمكن لهم من المسلمين بدعوتها إلى إبطال الجهاد كلية ، وتحريم إشهار السلاح فى وجوه الظالمين ليبقى أعداء الإسلام ببلاد المسلمين ينتهبون خيراتها ويمزقون أوصالها ويزرعون الحقد والفساد والضغينة بين أهليها ، يقول صنيعتهم ميرزا غلام أحمد : « لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الانجليزية

---

(١) الإسلام والخلافة فى العصر الحديث - ضياء الريس ص ٢٧١ .

(٢) نعنى بهذا الكتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرازق ، وقد انتهى نقد هذا الكتاب ودرسه إلى أنه لأحد المستشرقين ، وقد استغل الشيخ فى إصدار الكتاب باسمه لتسهيل نشره وتحقيق الأهداف السياسية التى استهدفت من نشره منسوبا لعالم دينى ، انظر : الإسلام والخلافة فى العصر الحديث ٢٠٣ - ٢٤٤ .

(٣) الإسلام والخلافة فى العصر الحديث - ضياء الريس ص ٢٧٧ .

ونصرتها ، وقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر ( الانجليز ) كثيرا من الكتب وقد نشرت جميعها فى البلاد العربية ومصر والشام وتركيا ، وكان هدفى أن يصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة ، وتمحى من قلوبهم الأحكام التى تبعث فيهم عاطفة الجهاد ، وتفسد قلوب الحمقى[1] » .

ويصرح قاديانى آخر هو قاسم على بقوله : « لقد ظللت منذ حداثة سنى وقد ناهزت الستين أجاهد بلسانى وقلمى لأصرف قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الانجليزية والنصح لها والعطف عليها ، وألغى فكرة الجهاد التى يدين بها بعض جهالهم والتى تمنعهم من الإخلاص لهذه الحكومة ، كما صرح بتحريم الجهاد الذى أقلق الانجليز وشغل بالهم فى كتابه الأربعين فقال : « لقد ألغى الجهاد فى عصر المسيح الموعود إلغاء باتا » ، وقال فى خطبته : « لقد آن أن تفتح أبواب السماء ، وقد عطل الجهاد فى الأرض وتوقفت الحروب[2] » .

فهل نعجب إذا سمعنا أو قرأنا مثل هذا ممن عطلوا عقولهم عن التفكير بعد أن أفرغوا وجدانهم من كل معانى الدين وزعموا أن الجهاد كان وسيلة العجزة فى الزمن القديم ، وأن العصور الحديثة قد تجاوزت ذلك إلى التعايش الأمين والسلم المكين ؟ ! .

ومن الواضح أن فى هذا الزعم خلطا شنيعا بين ضرورة تفرض المهادنة وعدم التعرض للتهلكة انتظارا لزوال هذه الضرورة وعملا على تغيير ما يفرضها وبين تعطيل المبدأ ، أو إلغائه بالكلية وإعطاء الدنية فى الدين فى

---

(١) ترياق القلوب ص ١٥ نقلا عن القاديانى والقاديانية - أبو الحسن الندوى ٩٦ ، الله أو الدمار ٧٤ .

(٢) انظر : القاديانى والقاديانية - الندوى ص ٩٧ .

أحوال الضعف والقوة إيثارا لسلامة النفوس والجاه والسلطان وتضحية بالدين والأعراض والأوطان ، وقد قال الله تعالى عن أمثال هؤلاء : « وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » ( البقرة ٢١٦ ) ، قال القرطبى : « حب الدعة وترك القتال شر لكم فى أنكم تغلبون وتذلون ويذهب أمركم ، وهذا صحيح لا غبار عليه كما اتفق فى بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار فاستولى العدو على البلاد ، وأى بلاد ؟ ! ، وأسر وقتل وسبى واسترق[1] » .

فما نصيب هذا الادعاء من الواقع ؟ وهل من الحق أن الإسلام أسس على القوة والتعصب وانتشر بالسيف وقام عليه ، ولولا السيف الذى سلط على رقاب أعداء المسلمين ما قامت للإسلام دولة ولا امتد له سلطان ؟ .

إن الوجه الآخر لهذه الدعوى أن الإسلام بتشريعه للقتال والجهاد قد اتخذه سبيلا لإكراه الناس على اعتناقه ، ولا مفر للأمم من قبول ذلك تحت سلطان القهر والإلجاء وإلا ووجهوا بحد السيف والاستئصال .

والحق أن منشأ هذه الشبهة - إن افترضنا أنها شبهة - هو اقتران ظهور الإسلام وانتشاره بالحرب التى وقعت فى أيام الدعوة بين المسلمين وغيرهم وعرفت فى التاريخ الإسلامى بالغزوات والفتوح ، ولكن هل يكفى اقتران شئ بشئ فى الوجود دليلا على سببية أحدهما للآخر ؟ .

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٣٩ .

إن أصحاب العقول المتوسطة يعلمون عدم كفاية ذلك دليلا ، كما يعلمه أصحاب العقول الراجحة ، وإن الشأن فى معرفة الأسباب والمسببات إنما هو الفحص الدقيق والتعمق الواعى وعدم الاكتفاء بالنظرة السطحية ، ولو نظرنا إلى الموضوع هذه النظرة الفاحصة لتبين لنا أن الزعم الذى زعموه باطل لا أساس له[١] .

وقبل تقرير هذه النظرة الفاحصة لابد من الإشارة إلى أن هناك من المنصفين من جلدة القوم من وقع على الحقيقة وأقرها كاملة ، وها نحن نقدم بتقريراتهم لفحص هذا الموضوع من جميع جوانبه حتى نسهم بذلك فى إزاحة الحساسية والغبش اللذين يكتنفان هذا الموضوع دائما ويقال عن حكم الإسلام فيه : إن به مساسا بالأقليات غير المسلمة ، ويتجنب الناس الحديث فيه مخافة الوقوع فى الفتنة بين المسلمين وغير المسلمين .

يقول « چوستاف لوبون » : « لم تقل براعة الخلفاء الأولين السياسية عن براعتهم الحربية التى اكتسبوها على عجل ، وكانت الطريق التى يجب على الخلفاء أن يسلكوها واضحة ، فعرفوا كيف يحجمون عن حمل أحد بالقوة على ترك دينه ، وعرفوا كيف يبتعدون عن إعمال السيف فيمن لم يسلم ، وأعلنوا فى كل مكان أنهم يحترمون عقائد الشعوب وعرفها وعاداتها مكتفين بأخذهم - فى مقابل حمايتها - جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه إلى سادتها السابقين من الضرائب[٢] » .

---

(١) راجع : تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٥٢٣ .

(٢) حضارة العرب ص ١٣٤ .

« ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى مدينة القدس مقدار الرفق العظيم الذى كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة ، فلم يرد عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه ، وطلب من البطريق « صفرونيوس » أن يرافقه فى زيارته لجميع الأماكن المقدسة وأعطى الأهلين الأمان وقطع لهم باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحريم العبادة على المسلمين فى بيعهم » ، وبذلك أظهر المسلمون من التسامح الدينى ما لم يظهره شعب منتصر فى التاريخ [(١)] .

وهذا مسيحى آخر هو « سير أورلند » الذى لا يتهم بالتحيز للإسلام يقرر أن الصلات الودية التى قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب تمكننا من الحكم بأن القوة لم تكن عاملا حاسما فى تحويل الناس إلى الإسلام ، فمحمد نفسه قد عقد حلفا مع بعض القبائل المسيحية وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية فى إقامة شعائرهم الدينية كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم فى أمن وطمأنينة[(٢)] ، ويستطرد فيقول : « ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن وعسكر أبو عبيدة فى « فحل » كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا[(٣)] » .

---

(١) حضارة العرب ص ١٣٥ ، وانظر : الله أو الدمار ص ٥٢ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ٤٨ نقلا عن شبهات حول الإسلام - محمد قطب ١٩٥ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ص ٥٣ .

ثم يخلص هذا المستشرق إلى النتيجة الحاسمة التى تدمغ الغربيين بظلمهم للإسلام وافترائهم المفضوح وزعمهم المكذوب قال : « ومن هذه الأمثلة التى قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذى بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين فى القرن الأول من الهجرة واستمر فى الأجيال المتعاقبة نستطيع أن نخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح[1] .

إن الإسلام لم يفترض يوما أن يكون البشر جميعا على ملة واحدة ، ولهذا كان المبدأ الإسلامى الضابط لهذا الأمر أنه « لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ » ( البقرة ٢٥٦ ) ، وعلى ذلك فمن الوارد أن يكون فى المجتمع الإسلامى من يؤثرون أن يظلوا على دين آخر غير الإسلام ، ولا يستجيبون لدعوته ، فلهؤلاء حق الحياة والعيش فى حماه وذمته لا يضارون فى أنفسهم وأموالهم ما لم يكيدوا للإسلام أو يظاهروا عليه عدوا ، ويشاركون فى الأعباء العامة بأداء الجزية ، كما يؤتى المسلمون زكاة أموالهم ، فإذا ما دخلوا الإسلام طوعا دون إلجاء إليه وإكراه من أحد فهم من الأمة لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ويمتد مبدأ الحرية والتسامح معهم من العقيدة إلى المعاملات المدنية والاقتصادية وهم المحتمون بحمى الإسلام المستظلون بحديث رسول الله ﷺ فيهم : « من آذى ذميا فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة[2] » .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٥١ .

(٢) أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه عن عبد الله بن مسعود راجع : الجامع الصغير - السيوطى ٢ / ١٥٨ .

وكانت تطبيقات المسلمين لمبادئ دينهم أشهر من أن تخطئها عين فاحصة منصفة ، وقد نوه بها المنصفون من أهل الغرب الذين يسوق شهاداتهم صاحب حضارة العرب ويختمها بقوله : « إن القوة لم تكن قط عاملا فى انتشار الإسلام ، فقد ترك العرب المسلمون المغلوبين أحرارا فى أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الشعوب النصرانية الإسلام فذلك لما رأوه من عدل المسلمين الغالبين مما لم يروا مثله من قبل .. وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام ، ولم ينتشر الإسلام بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقت الإسلام الشعوب التى قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول ، وقد انتشر الإسلام فى الهند ولم يكن العرب فيها غير عابرى سبيل ويزداد عددهم فيها يوما فيوما[1] » .

وقد بلغ من قوة هذا الواقع التاريخى أن فرض الإقرار به على يهودى متعصب هو « جولد تسيهر » المعروف بحقده الأسود على الإسلام والمسلمين فكتب شهادته يقول : « مما لا يمكن إنكاره أن الأوامر القديمة التى وضعت للمسلمين الفاتحين إزاء أهل الكتاب الخاضعين لهم كانت قائمة على روح التسامح وعدم التعصب ، ولم يكن العرب فى العصور الإسلامية متعصبين ، بل ائتلفوا مع المسيحيين وكادوا يتآخون معهم ... ، ويرجع هذا إلى ما كان فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى ( الأول الهجرى ) من مبادئ الحرية الدينية التى منحت لأهل الكتاب فى مباشرة أعمالهم الدينية[2] .

---

(١) راجع : حضارة العرب - جوستاف لوبون ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) راجع : العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٣٧ .

وبعـد : فهـذه صـورة واضحـة من تطبيـقـات المؤمنين لمبـادئ دينهم الحنيف مع أهل الكتاب والتى لا تخرج فى مجملها عن المبدأ الفقهى المهم « لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » ، فأين موقع السيف والقوة إذن ؟ ولو كـان لأى منهـمـا دور أو أثر فى تغـيـيـر عـقـائد الناس أو تبـديل دينهم يستأهل اتهام الإسلام به ، وغمز تشريعه للقتال بالوحشية والهمجية - ما أغفله هؤلاء الذين رصدوا أعمال المسلمين وتطبيقاتهم لتعاليم دينهم فما وسعـهم إلا الإقـرار بالحق والاعـتـراف بأن تعـاليم الإسـلام تأمـر بالبـر بأهل الكتاب والعدل فى معاملتهم ، والمساواة بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات التى تتعلق بنظام المجتمع[1] ، وحقوق المواطنين فيه ، وتدعو إلى توثيق الروابط بينهم وبين المسلمين بالتـزاور والمؤاكلة والمشـاركة ، وهى لا تكون إلا بين الأصدقاء المتحابين ، ثم تتوج ذلك كله بإباحة الارتباط بأوثق رباط عرفتـه الإنسانيـة وباركتـه الأديان والشرائع السـماوية وهو رباط الزواج والمصاهرة[2] .

---

(١) من الواضح أن تكاليف الإسلام التى تقتضيها عقيدته وشريعته وشعائره خارجة عن نطاق هذه المساواة .

(٢) من آيات القرآن الكريم الجامعة فى هذا الشأن قوله تعالى : « لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ( الممتحنة ٨ - ٩ ) ، « الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » ( المائدة ٥ ) .

إن شياطين الإنس وحدهم هم الذين يبوءون بهذا الإثم وبجريرة تخريب العلاقة بين المسلمين ومن لا يحادون الله ورسوله ، ولا يعادون المسلمين أو يصدون عن سبيل الله ، إنهم وحدهم الذين يخلون بالمسيحيين ويقولون لهم : « اتبعونا وسنحطم لكم هذا الإسلام الذى يفرق بين الناس على أساس العقيدة « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً » ( الكهف ٥ ) ، فليس الإسلام هو الذى يفرق فى نظامه ومعاملاته بين الناس على أساس العقيدة وهو الذى يمنحهم كل الحقوق الحيوية بلا تفريق ، وإنما هو يجمع بينهم على أساس الإنسانية ثم يترك لهم بعد ذلك كامل الحرية فى اعتناق العقيدة التى يريدونها برضى الإسلام بل بحمايته وتحت رعايته ، وإنا لنعلم مع هذا أن المسيحيين فى الشرق أحرص على روابطهم التاريخية مع المسلمين وأحرص على مصالحهم المتشابكة من أن يستمعوا لدس الدساسين أو وسوسة الشياطين[1] .

أما من تمكنت منهم وسوسة الشياطين ولغطوا بما أوحوا إليهم من أنه لا جهاد فى الإسلام ، بل ولا تعلق للإسلام بشئ من شؤون الدنيا ، أو أن الجهاد قد صار باطلا وملغيا فيكفينا هنا الآن الكشف عن مقصود هذا الزعم وهدفه فالنتائج التى تؤدى إليها هذه الآراء خطيرة ؛ إذ تدعو المسلمين أن يظلوا ضعافا راضين بتخلفهم ، فليس من أصول إسلامهم ولا فروضه الجهاد أو تدبير الجيوش أو تحصين الثغور ، وإنما كل الذى يطلبه منهم الدين أن ينصرفوا إلى عبادتهم أفرادا فى دورهم أو فى المساجد[2] .

---

(١) شبهات حول الإسلام - محمد قطب ص ١٩٩ .

(٢) الإسلام والخلافة فى العصر الحديث - ضياء الريس ص ١٨٧ .

فأى منهج أعظم وأخبث من هذا ينادى به ويسعى إليه المستعمرون والصهاينة أعداء الإسلام والمسلمين لكى يبقى المسلمون ضعافا مفككين لا حول لهم ولا قوة ، ولا جيش ولا دولة فيسهل افتراسهم والطمع فيهم ، والحال أن ديانة المسلمين قد وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والقوة والعزة ، وأن المتدينين بها لابد أن يكونوا أول أمة حربية ، وأن تسبق الأمم كلها إلى اختراع الآلات الحربية وإتقان العلوم العسكرية وكل ما يلزم ذلك من الفنون والصناعات(١) .

ولما كان أعداء الإسلام على وعى بقيمة الجهاد فى الإسلام وعلى يقين بخطره عليهم ، وأن المسلمين لو تمسكوا بدينهم وعملوا بمقتضاه ، وتمكن حب الجهاد فى قلوبهم فلن يهادنوا الكفر وأهله - فقد دسوا سمومهم وكادوا لهذا الدين وأذاعوا افتراءاتهم السابقة عن الجهاد ، وجندوا من أتباعهم من تولى نشر ذلك فى أمم المسلمين لقاء ما وعدوهم به من عرض الدنيا الزائل ، وما مكنوهم من السلطان السياسى والاجتماعى ، ورموا بذلك الزعم فى وجوه المسلمين وأشاعوه فى العالمين على نحو ما ذكرناه على ألسنة هؤلاء وأولئك .

إن دعوى قيام الإسلام على السيف ونشره بين الناس بالقوة وتقديم أتباعه على مذبح التضحية لإقامته تجديف يراد منه فى الحقيقة تجريد مجتمع المسلمين من القوة التى تحرسه حتى تتداعى عليهم قوى البغى والعدوان التى لا تفتأ تقوى نفسها بأسلحة الخراب والدمار التى تتهدد

---

(١) الإسلام والخلافة فى العصر الحديث - ضياء الريس ص ١٨٧ .

العالم وتنذر بإهلاك البشرية كلها ، وننظر فإذا اليوم الذى تخلى فيه المسلمون عن القوة والسيف كان هو اليوم الذى لقوا فيه مصارعهم بأيدى هؤلاء المدعين عليهم من الباغين والمستعمرين الذين سلطوا السيف على رقابهم وتحكموا فى مقدرات أرزاقهم ، ثم لم يكن لهم ملاذ فى هذه المحن القاسية إلا إسلامهم الذى ما ضعف أو غاب بضعف أصحابه أو غيابهم ، وما استطاع الباغون أن ينالوا منه أو يقفوا فى وجه الداخلين فيه ، بل استمر المد الإسلامى يزداد ويزداد بقواه الذاتية لا بقوة أتباعه الذين أتى عليهم حين من الدهر لم يكن لهم من القوة شيئا[1] .

**٢ - أساس علاقة المسلمين بغيرهم :**

منذ بعث الله نبيه محمدا ﷺ رحمة للعالمين إلى أن لحق بربه ، ومبادئ رسالته وتعاليمها وسلوكه وسنته ﷺ تفيض بصور شتى من الرحمة والعطف والبر بالناس فى عمومهم ، ولأن الإسلام قد قدر أن الأمة لا تعيش مغلقة على نفسها بمعزل عن سائر الأمم فقد وضع كتاب الإسلام لأمته الأصول والمبادئ العامة للتعامل مع غيرها ليكون لهذه المبادئ حرمتها الدينية فى حدود ما أمر الله به من العدل والتقوى والتسامح وحسن الجوار .

ومن أبرز صور الرحمة بالناس دعوتهم إلى الإسلام والاهتداء بما جاءهم به محمد ﷺ مهما فرقت بين الناس المذاهب والنحل واختلفت بينهم الأديان والملل . قال تعالى : « **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** » ( الأنبياء ١٠٧ ) ، « **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ**

---

(١) الحرب والسلام فى الإسلام ص ٨٠ ، ٨٢ .

جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ( يونس ٩٩ ) ، « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ( هود ١١٨ - ١١٩ ) .

فالسلام - وهو اسم الله - الذى اشتق منه اسم الإسلام هو أساس العلاقة بين المسلمين وغيرهم كما هو أساس العلاقة فيما بينهم ؛ إذ لا يتصور كون الرسول ﷺ رحمة للعالمين وبينهم من الفوضى والقلاقل والإحن والمشاحنات ما يبيتون معه على غير سلام وأمان ، والسلام على ذلك هو شعار الإسلام الأصيل ، ونصوص القرآن الكريم فى هذا الشأن كثيرة ، فشأن المسلمين - أفرادا وجماعات - الذين يأخذون أنفسهم بشريعة الإسلام ويلتزمون أحكامه - أن تتحقق فيهم هذه الصفة ، فهم مسلمون ومسالمون ، وهم دعاة إسلام وسلام ، وتحيتهم عند لقائهم السلام ، وأنه لن يكون المسلم مسلما حقا إلا إذا كان على هذا الوصف لفظا ومعنى كما يقول ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه[(١)] » ، وكلمة المؤمنين التى يلقون بها سفاهة الجاهلين سلام ، « وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً » ( الفرقان ٦٣ ) ، « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » ( القصص ٥٥ ) .

(١) متفق عليه من رواية عبد الله بن عمر ، راجع : فتح البارى كتاب الإيمان باب المسلم ....... والمهاجر ....... ١ / ٥٣ .

ولا تقتصر توجيهات القرآن الكريم على إشاعة السلم بين أفراد الجماعة المؤمنة وحدها ، بل إنها تحثهم على أن يدخلوا فى السلم كافة مع غيرهم طالما لم يبدأوهم بعدوان أو يهضموا لهم حقا وينالوا من دينهم منالا ، فليس هناك من سبيل عليهم إذا رغبوا فى السلام مع المسلمين قال تعالى :

**« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »** ( البقرة ٢٠٨ ) ، **« فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً »** ( النساء ٩٠ ) ، **« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »** ( الأنفال ٦١ ) .

وقد اتسعت دائرة المسالمة لغير المسلمين لتشمل برهم والتقرب إليهم ومخالطتهم والانصهار معهم إلى حد مؤاكلتهم ومعاشرتهم والتصاهر معهم ، وما أدراك ما المصاهرة مع هؤلاء ؟ إنها العلاقة التى تتكون بها الأسر ويمتزج الطرفان ويشتركان فى التناسل والمسؤولية عن تربية الأبناء ، وهذا أسمى ما يتضاءل أمام روعته أحدث مبدأ فى العلاقات الدولية العامة[١] .

فالإحسان إلى المخالفين فى الدين والإقساط إليهم ما لم يبدأوا المسلمين بقتال أو يعتدوا على دينهم وأوطانهم مبدأ عام قررته الآية القرآنية الكريمة **« لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ**

---

(١) تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٥٣٠ .

اللهَ يُحِبُّ المُقسِطينَ . إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُم فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » ( الممتحنة ٨ - ٩ ) ، « اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » ( المائدة ٥ ) ، وهكذا قبل أن تسمع الدنيا بالتعايش السلمي قررت شريعة الإسلام المبدأ العام لهذا التعايش السلمي مع التفرقة بينه وبين مسالمة البغي والعدوان وموالاة الأعداء ومن يظاهرونهم على الشر[١] .

ومن أصالة هذا المعنى في نفوس المسلمين ما كان أحد منهم يتمنى الحرب أو يفرح للقائها أو يسعى إليها إلا مضطرا لما فيها من المشقة والتعب والدمار والهلاك ، وكان في وعيهم ما قاله ﷺ : « لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف[٢] » ، بل إن الله سبحانه وتعالى لما كتب عليهم القتال لم يغفل الإشارة إلى هذا المعنى فقال : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » ( البقرة ٢١٦ ) .

(١) راجع : الشخصية الإسلامية - بنت الشاطئ ص ١٩٨ .

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى في كتاب الجهاد باب لا تمنوا لقاء العدو ٦ / ١٥٦ .

والإسلام وهو يجعل السلام قاعدة وأساسا لعلاقة الأفراد والأمم فيما بينهم يريد به السلام القائم على موازين الحق والعدل والإحسان ، أى السلام القوى - وليس الاستسلام الضعيف المستخذى - وهو سلام الأقوياء الذين يمكنهم إقامته بالعدل والإحسان ، كما يمكنهم إقامة الحرب بالبغى والعدوان ، وهنا يكون سلمهم محمدة ومكرمة وهم قادرون على البغى والعدوان ، كما يكون عفوهم فضلا ومكرمة وهم قادرون على القصاص والانتقام ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى : « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ » (فصلت ٣٤) . « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (الشورى ٣٩ - ٤٣)[1] .

---

(١) يسجل تاريخ الإسلام أروع صورة لهذا السلام القوى المقتدر ، وامتداده ليشمل بالرحمة والعفو وهو فى قمة النصر من عاداه بالأمس وأخرجوا أصحابه من ديارهم وأموالهم ، ومازلنا نسمع رسول الله ﷺ - بعد هذا الزمن الطويل - وهو واقف على باب الكعبة يوحد ربه ويحمده ويساوى بين البشر ويحطم كبرياء الجاهلية ويعفو عمن تمكن من رقابهم وهم وقوف أمامه ينظرون ماذا يريد بهم ؟ ، فيقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وقد أمن رسول الله ص جميع الناس إذا أرادوا ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح حتى إن عثنونه ليكاد يمس راحلته » السيرة النبوية - ابن هشام ٤ / ٢٢ ، ٢٤ ، ٣٢ .

أمـا السلم الذى ليس وراءه رصـيـد من القـوة القـادرة على ردع أهل البغى والعدوان فهو استسلام ذليل ووجه منكر بغيض من وجوه السلم يلبس أصحابه ثوب الذلة والمهانة(١) .

فالسـلام الذى يتعـامل به المسلمون مع غيـرهم هو سلام الأقـوياء الذى حرس الإسلام قوتهم من أن تكون مخالب بغى أو أنياب عدوان ، إنها القوة التى أمـر الله تعـالى المسلمـين بامـتـلاكـهـا والتـمكن منهـا فى قـوله : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » ( الأنفال ٦٠ ) ، ففى الآية كشف عن متجه القوة التى ينبغى أن تكون حـارسـة للأمن والسـلام من أهل البـغى والعـدوان فـإنهم إذا وجدوا القوة الرادعة لهم والقادرة على التنكيل بهم أمسكوا عن عدوانهم وبغيهم .

نعم ، إن الحرب - أصـلا - شر وبلاء ، ولكن المسلمين - كـمـا نعرف بعـد فى مـشـروعـيـة القـتـال - لايدخلون الحرب إلا دفـعـا للشـر والعـدوان ، وعندئذ يكون هذا الشر خيـرا ، كـمـا يصبح البلاء عـافـيـة ، إذ لو ترك الشر دون أن يؤخذ على أيدى فـاعليه لاسـتـشرى وأتى على كل خيـر ، ومن رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن أقام من عباده الصالحين المحسنين من يتصدى للشر وأهله الذى لو ترك لعم الفساد فى الأرض وعطلت فيـها معـانى الحيـاة الكريمـة وقيـمهـا ، قـال تعالى : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ » ( البـقـرة ٢٥١ ) ، « وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » ( الحج ٤٠ ) .

---

(١) الحرب والسلام فى الإسلام ص ١٥ .

وإذا كانت الحياة لا تخلو أبدا من الأشرار وهم مسلطون دائما على الأخيار الذين إن سالموا الأشرار لم يسلموا من شرهم ، وإن كفوا أيديهم عنهم أغواهم ذلك بأن يعيثوا بالفساد والإفساد فيهم - فلا خيار للمسلمين - حينئذ - مع من يسوق الشر لهم إلا الحرب التى يدخلها المسلمون بكل ما يملكون من قوة وبكل ما يقدمون لها من تضحية بالأموال والأنفس[1] ، فإذا كان سلام بعد ذلك فليس فى الدنيا مكان أزكى لمغارسه وأطيب لثماره من مواطن الإسلام ، وليس فى قلوب المسلمين ومشاعرهم شئ أحرص عليه منه وأسعد به ، إنه رسالة الإسلام وشريعة المسلمين ، وإذا كانت الحرب التى لابد منها ولا موضع للسلم معها كانت مواطن الإسلام كلها حربا وكان المسلمون كلهم محاربين مجاهدين فى سبيل الله ، يؤثرون الموت على الحياة ويجدون فى الاستشهاد إنجازا للصفقة التى عقدوها مع الله فى قوله :

**« إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »**[2] ( التوبة ١١١ ) .

---

(١) الحرب والسلام فى الإسلام ص ٢٣ ، وقد قال شوقى أمير الشعراء فى هذا المعنى : -

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

وفى دفع مفتريات المفترين بقيام الإسلام على السيف قال : -

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتسفيه أحلام وسفسطة ... فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك منهم كل ذى حلم ... تكفل السيف بالجهل والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

(٢) الحرب والسلام فى الإسلام ص ٢٤ - ٢٥ .

٣ - مشروعية القتال - ضرورته واحواله :

عرفنا أن قاعدة الإسلام فى علاقته بغير المسلمين هى السلام ، والسلم دعوته العامة للمؤمنين كافة ، وأن الحرب فى شريعته شر لا يفتح بابه ولا تهيج ناره ، وهى فتنة يلعن الإسلام من يوقظها ويثير أسبابها ويحرك دواعيها ، وأنه ليس أرضى للإسلام ولا أحب إليه من سلام ينشر أجنحته على الناس جميعا ويقيم حياتهم على بساط الأمن والسلام ويجرى أمورهم على طريق الحق والعدل ، قال تعالى : « **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ** » ( البقرة ٢٠٨ ) .

ولكن إذا كانت طبيعة الحياة تأبى على الناس أن تنتظم خطواتهم جميعا على طريق المسالمة والموادعة مجانبين البغى والعدوان فإن نشر ألوية السلام بينهم والحال كذلك أمر بعيد المنال بل مستحيل الوقوع ، حيث لا تسلم الحياة أبدا من وجود الشر إلى جانب الخير ومواجهة المفسدين للمصلحين ، ولهذا كان موقف الإسلام من أهل البغى والعدوان موقفا حكيما عادلا ، كما يقف الطبيب فى مواجهة مرض خطير إذا لم يبادره بالعلاج الحاسم الذى يقضى عليه انتشر واستشرى وأتى على جميع الأصحاء .

فالإسلام إذ يقف فى جانب السلام حاميا وحارسا يتوقع دائما وعلى البعد وقوع الحرب من أهل البغى والعدوان ، فيعد لها ليأخذ على المعتدين الطريق إلى الإفساد فى الأرض ، وإزعاج الآمنين والتسلط عليهم ، فليس

فى الإسلام ولا منه حرب على أهل السلامة والمسالمة أيا كان دينهم وجنسهم مادامـوا ممسكين أنفسهم عن العدوان على الناس ، والناظر فى كتاب الله و سنة رسوله ﷺ يجد الشواهد المؤكدة أن الحرب فى الإسلام ضرورة يفرضها رد عدوان أو دفع بغى أو استئصال أعضاء فاسدة فى المجتمع الإنسانى إذا لم تستأصل أفسدته وأتت عليه ، فحرب المسلمين لغيرهم إنما تفرضها الحياة قبل أن يفرضها الدين حتى تنفسح للناس طرق العمل لعمارة الأرض وأداء حق الخلافة التى استخلف الله الناس عليها[1] .

ومن موقف الإسلام الحكيم فى معالجة هذه الضرورة يبين القرآن الكريم لأمة الإسلام منهج سلوكهم فى الحرب والسلم ، ويوطنهم على التعبئة والاحتشاد حتى لا يطمع فيهم عدو أو يجترئ عليهم خائن ، بل يجعل ذلك من التكليفات الشرعية حيث يأمرهم أن يأخذوا حذرهم من عدوهم ، وأن يسلحوا أنفسهم بكل ما يعرفه الناس من العتاد والأسلحة والخطط الحكيمة التى تمكنهم من عدوهم وتحقق لهم النصر بأقل التضحيات ، كما ينصحهم فى هذا الإعداد بتدريبهم على وسائل الكر والفر ، والتعرف على وسائل العدو وخططه حتى لا يخدعهم عدوهم ويأخذهم على غرة ، وأنه حين ينادى منادى الحرب لم يكن لمسلم أن يتخلف عنها أو يخلى مكانه فيها ، فإن كان قادرا فبنفسه وماله أو بنفسه إن لم يكن ذا مال ، وإن كان مريضا أو شيخا أو ذا عاهة كان فى الحرب بمشاعره وعواطفه وكان خليفة للمجاهدين فى أهليهم يرعاهم ويقوم على شؤونهم ، فإن لم يكن المسلم فى هذا أو ذاك كان

(١) الحرب والسلام فى الإسلام ص ٢٣ .

خائنا لله ولرسوله وللمؤمنين ، لأن الحرب حينئذ فريضة من فرائض الله على المسلمين ، قال تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً** » ( النساء ٧١ ) ، « **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّنْ قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ** » ( الأنفال ٦٠ ) ، « **انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** » ( التوبة ٤١ ) .

ومن تمام الخطط الحربية وتنفيذها بدقة وإتقان لتؤتى نتائجها الطيبة من النصر المبين تؤكد آيات القرآن الكريم ضرورة تقسيم المسلمين إلى فريقين عند الاستنفار العام : فرقة تقاتل فى سبيل الله فى قلب المعركة ولظاها ، وفرقة أخرى تجاهد فى سبيل الله داخل المجتمع تأمينا لضروريات حياته وتماسكه وصلابة أفراده وطوائفه ، وحماية لإخوانهم المقاتلين على ثغور بلاد المسلمين وحدودها ، وليكن قتالهم لأعدائهم إذا تكاثروا عليهم حسبما تقتضيه طبيعة المعركة وظروفها بأن يقاتل الأقرب فالأقرب ، كل يقاتل من يليه من الأعداء ويقرب منه ، فلا يتعدوهم إلى غيرهم فيوقعوا أنفسهم بين أعدائهم ولا يأمنوا على أنفسهم[1] ، قال تعالى : « **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا**

---

(١) انظر : الشبه والاعتراضات ص ١٢٢ .

إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ( التوبة ١٢٢ - ١٢٣ ) .

فهذا الإعداد للحرب والاستعداد لتحسب وقوعها هو فى الواقع حرب وقائية يدفع بها المسلمون - بغير قتال - مطامع الطامعين وعدوان الباغين ، كما فيه مع هذا حراسة للسلم وانتصار للسلام ، فإن كانت الحرب بعد ذلك ولا بد كان المسلمون بما أعدوا لها من رجال وسلاح وعتاد ومال هم رجالها وسادة الموقف فيها[١] .

إنه لابد للحق من قوة تؤيده وتدفع عنه أيدى الظالمين الفاسدين حفظا للنظام العام وتلافيا لإفساد هؤلاء وطغيانهم ، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تولى أخذ الظالمين وعقابهم حين كان الفساد عاما وأهل الرشاد قليل كما أنبأت عنه آيات القرآن الكريم فى هلاك مكذبى الرسل من الأمم السابقة[٢] ، فلما بلغت الإنسانية رشدها زمن البعثة المحمدية جعل الله مهمة التقويم وإصلاح المعوج فى المجتمعات البشرية من واجبات أهل الرشد ففرض عليهم الجهاد ليصلحوا بأيديهم ما أفسد المفسدون منهم ، وبذلك « يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ » ( الأنفال ٧ - ٨ ) .

---

(١) الحرب والسلام فى الإسلام ص ٢٦ .

(٢) راجع ذلك واضحا فى سورة « المؤمنون » وغيرها من سور القرآن التى عرضت لقصص الأنبياء مع أقوامهم .

هذا ومما سفه به السفهاء بين يدى مشروعية هذه الفريضة وتكليف المسلمين أهل الحق بها قولهم : إن الإسلام يغري أهله بالعدوان على غيرهم ، وأنه لا يفتأ يحرضهم ويوقفهم من غيرهم موقف الراصد المتربص فيملأ نفوسهم بالشر ويحول أيديهم إلى مناجل تحصد رؤوس البشر بلا حساب أو مبالاة ، ألم يقل الله : « **فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا** » ( محمد ٤ ) ؟ ، أليس رسول الله ﷺ هو القائل : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق[1] » ؟ أليس فى هذا القول دفع للمسلم بالولغ فى دماء الآخرين ليحفظ على نفسه دينه وإسلامه ولا يكون كهؤلاء المنافقين الذين يرضون لأنفسهم أن يكونوا مع الخوالف والقاعدين عن الجهاد ونصرة دين الله ؟ .

وأمر هؤلاء غريب فى تحريفهم الكلم عن مواضعه وتزييفهم للقضية برمتها وهى أوضح وأصرح من أن تقف أمامها إلا عقول مأفونة مريضة ، فالأمر بضرب الرقاب فى الآية ليس مطلقا فى كل المواقف والأحوال ، وإنما فى موقف القتال وعند اللقاء فحسب مع عدو يقاتل المسلمين ويبغى القضاء عليهم ، فهل للمسلم - أو غيره - فى موقف كهذا يدافع فيه عن نفسه ودينه وعرضه خيار آخر غير خيار قتله لعدوه الذى يريد له هذا القتل ؟ وهل يمكن تجاوز اللغة وإغفال دلالاتها فى هذا المقام لتمرير هذا التزييف والتلبيس ؟ فما لزوم إذا الشرطية هنا إذن مع ما فيها من دلالة الظرفية فى

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والإمام أحمد وغيرهم ، راجع : صحيح مسلم بشرح النووى كتاب الجهاد - باب من مات ولم يغز ١٣ / ٥٦ ، وانظر : سنن أبى داود ٣ / ١٠ ، الفتح الربانى ١٣ / ٢٦ .

القابل من الزمان ، يعنى عند حدوث اللقاء فحسب وليس فى كل الأحوال ؟ ألا يعنى ذلك امتناع ضرب رقاب الذين كفروا فى غير حال اللقاء والتلبس بقتالهم ، وهو ما يشعر - فى مفهومه - بسيادة الأمن والسلام فى عموم الأحوال ؟ .

وهل يمكن إغفال سياق الآيات فى تكليفها المسلمين بهذه الفريضة وفيه التصريح بحالة اعتداء هؤلاء الكفار بصدهم عن سبيل الله مما يجعل الأمر بالقتل واقعا على كفار بأعينهم ردا على اعتدائهم بهذا الصد ؟ أما من كان منهم على حال من الحياد لا يضار المسلمين ولا يفتنهم عن دينهم أو يصد الناس عنه ، كمن دخل معهم فى عهد أو كان فى ذمة المسلمين وتحت رعايتهم فليس داخلا فى عموم المأمور بضرب رقابهم ، وقد نقل القرطبى فى تحديد هؤلاء الكفار أنهم كل من خالف دين الإسلام من مشرك أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، ذكره الماوردى واختاره ابن العربى وقال : وهو الصحيح لعموم الآية فيه[(١)] .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما أشرنا إليه قبل من المعنى الخاص للفظ اللقاء والذى ينأى به عن معناه العرفى العام المتبادر إلى الذهن ، ويتساوى به مع لفظ قتال وحرب كما نبه عليه الزمخشرى بحق - تبين لنا مدى سفه هؤلاء وتزييفهم ، ومع هذا فإن ضرب رقاب الأعداء فى حرب المسلمين لعدوهم إنما يكون حيث لا سبيل إلى غيره وبعد استنفاد وبسط جميع الوسائل لإقناع الكفار برفع أذاهم عن المسلمين والكف عن اضطهادهم وتخويف من يقبلون على الإسلام وينخرطون فى دعوته ، ثم هو مقدر بمقدار إزاحة العوائق فى

(١) الجامع لأحكام القرآن - القرطبى ١٦ / ٢٢٥ .

طريق الدعوة لتصل إلى كل الناس فى سهولة ويسر ودون الاصطدام بهؤلاء الصادين المعوقين لقبول الناس لها والمقاتلين فى سبيل وأدها والتخلص منها .

وعلى ذلك فمن جرح من الأعداء ولم يعد فى موقف المقاتلين الصادين فلا تمتد إليه يد تقتل ، بل يشد عليه وثاقه حى تنتهى الحرب ، ثم المسلمون بعد ذلك فى خيار من أمره ، إما بالمن عليه أو فدائه ، إنهم يحاذرون أن يتجاوزوا أمر الله فيكونوا فى عداد الباغين المعتدين الذين لا يحبهم الله ، ولكنهم يخوضون قتالهم وينفذون أمر الله تظللهم موازين العدل والرحمة والإحسان ، فأى حرب أعدل وأكرم من هذه الحرب التى بلا ضغينة ولا أحقاد ، ولا شهوة انتقام ولو كانوا فى موقع النصرة على أعدائهم ، قال تعالى : « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ( البقرة ١٩٠ ) ، « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » ( البقرة ١٩٣ ) ، « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ( البقرة ١٩٤ ) .

فتشريع الإسلام للحرب وإقراره بها لا يخرج عن كونه ضرورة وقائية وعلاج اضطرارى يقدر بقدر الضرورة وفى حدود المطلوب من هذا العلاج ، ومن ثم يراعى الإسلام مع هذه الضرورة إنسانية الإنسان ويرفعها فوق كل الاعتبارات ، فلا يقاتل إلا من قاتل فى المعركة ، ومن تجنب القتال فلا يحل قتاله ، وحين يشخن الأعداء المقاتلون بالجراح ، ولم تعد بهم قدرة على

المقاومة ، ومناهضة جنود الحق ، ويقعون فى قبضة المسلمين تحقن الدماء فورا ، ويستبدل بالقتل الإحسان والرحمة ، فلا يجهز على جريح أو يتبع فار أو يمثل بقتيل أو تحرق بيوت أو تخرب أموال ؛ لأن هذا كله لا يتفق مع ما شرعت الحرب والقتال من أجله ، وهو حماية المستضعفين ، ودفع الظلم والعدوان عنهم ، وتمكين الراغبين فى الدين الحق من اعتناقه فى طمأنينة وأمان ، ولا عجب أن نرى هذه الرحمة ممثلة فى تعاليم القرآن الكريم تدعو إلى الإحسان إلى الأسرى ثم إلى المن عليهم والفداء[1] حتى تنتهى المعركة لما فيه خير الإنسانية بانتصار الحق واندحار الباطل فى قوله تعالى : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » ومن هنا نفهم لماذا اقتصر النص القرآنى فى موطن القوة والانتصار على هذين الاختيارين دون غيرهما من اختيارات أخرى كالقتل والاسترقاق فى مواطن أخرى[2] .

---

(١) يمثل الإحسان إلى الأسرى فى هذا الموقف الحلقة الأخيرة من سلسلة الإحسان وآداب القتال ودستوره التى توضحها وصايا النبى ﷺ وخلفائه الراشدين ، فقد كان ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا » ، وكذلك فعل أبو بكر رضى الله عنه فى وصيته لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بقوم قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع - يريد الرهبان - فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » ، أخرج الحديث الإمام أحمد عن بريدة الأسلمى ، والدارمى عن ابن عمر ، راجع : الفتح الربانى كتاب الجهاد ١٤ / ٤٦ ، وانظر : سنن الدارمى كتاب السير ٢ / ١٣٥ .

(٢) فى سنة رسول الله ﷺ العملية تصرفات أخرى كالقتل والاسترقاق بالإضافة إلى المن والفداء ، وقد ترتب على ذلك خلاف فقهى كبير فى أحكام الأسرى نخرج منه بأن لكل موقف وحال ما يناسبه من هذه التصرفات ، ومدار ذلك على ما يراه الإمام والحاكم من مصلحة المسلمين كأن يكون المسلمون قلة فتقتضى المصلحة قتل الأسرى لإخافة الأعداء ، كما كانت مشورة عمر ، فإذا كان المسلمون كثرة والإسلام شامخا عزيزا كان المن عن قوة وعزة لا عن ضعف وذله .

إنه لا مصلحة للإسلام والدعوة فى إراقة الدماء بغير ضرورة ، بل إن المصلحة تكمن فى حقنها واستبقاء الحياة لتسهم بالحق فى استمرار الخلافة وإنماء العمارة فى الأرض ، وقد كسبت الدعوة كثيرا - وما زالت وستظل - بهذه الخيارات الإنسانية العليا ، وما دخول الناس - وفى مقدمتهم الطلقاء فى مكة - فى دين الله أفواجا بعد الفتح العظيم والنصر المبين عنا ببعيد ، وقد فعلت بهم رحمة الرسول ﷺ وعفوه عنهم ومنه عليهم فى لحظة واحدة مالم تفعله مجاهدتهم ومجالدتهم سنين طوالا .

ويخطئ من يتصور أن جهاد المسلمين لا يكون إلا بقتال أعدائهم ، فلا تاريخ الدعوة والتشريع يقر هذا ، ولا تسعف به نصوص القرآن الكريم الكثيرة فى هذا الموضوع ، كما يخطئ من يتصور كذلك أن هذه النصوص بها من التعارض والتضارب ما لا يسمح بإحكامها جميعا ، إذ يقف بعضها من حدود المسامحة والصبر فى أقصى طر ف للموادعة والمسالمة ، ويقف بعضها الآخر عند حدود الانتصار والأخذ بالحق فى أقصى طرف المواجهة والحرب والمفاصلة التى لا يعتبر فيها ذى ملة غير ملة الإسلام .

والصحيح أن الآيات والأحاديث التى بدت لهؤلاء كذلك إنما تشرع لحالات مختلفة ، وظروف وأوضاع متباينة لأهل الإيمان من جهة وأعدائهم من جهة أخرى .

وتبدأ أولى مراحل الجهاد من موقع المسالمة والحدب على الغير بالكلمة الطيبة ، أو بعبارة القرآن الكريم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويظل هذا المنهج سلاحا للمؤمن فى جهاده ودعوته حتى لو تغيرت الظروف وتعرض لاضطهاد وظلم أو فتنة تضطره لاتخاذ وسائل تدفع هذا الظلم أو الاضطهاد ، فحيث يكون المسلمون قلة وبهم من الضعف مالا يقدرون معه على ملاقاة أعدائهم ،

ولا على دفع الظلم عن أنفسهم كما كان عليه حالهم فى مكة طوال ثلاث عشرة سنة - هم مطالبون بالصبر والعفو والصفح لحين تبدل الأوضاع وتغير الأحوال ، وتمكن المسلمين من الدفاع عن أنفسهم ومقابلة عدوان الآخرين عليهم .

وفى هذا الحال وتلك المرحلة لا يطالب المسلمون بقتال أعدائهم ولا يؤذن لهم فيه ؛ لأن قتالهم حينذاك يكون مهلكة لا يليق بمؤمن - ولا يجوز له - أن يلقى بنفسه فيها ، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ يطالبونه أن يأذن لهم فى القتال ، فيجيبهم : « لم أومر بقتال[1] » ، غير أنهم إن تمكنوا من دفع ما يقع بهم من غير قتال فلهم ذلك ، وقد وضعت الآيات القرآنية لهم الدستور الذى ينبغى الاهتداء به فى هذه المرحلة فيما نزل على رسول الله ﷺ من آيات سورة الشورى المكية ، قال تعالى : «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ . وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلَمَنِ انْتَصَرَ

(١) يحكى ابن كثير أن المسلمين لما كانوا بمكة والمشركون أكثر عددا منهم فلو أمروا بقتالهم لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب رسول الله ﷺ ليلة العقبة واستشعروا من أنفسهم قوة إذ كانوا نيفا وثمانين ، قالوا : يا رسول الله . ألا نميل على أهل الوادى ، يعنون أهل منى ليالى منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنى لم أومر بهذا » ، فلما بغى المشركون وأخرجوا النبى ﷺ من بين أظهرهم وهموا بقتله وشردوا أصحابه شذر مذر ، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة وآخرون إلى المدينة ، فلما استقروا بالمدينة ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه وقاموا بنصره ، وصارت لهم المدينة معقلا يلجأون إليه شرع الله قتال الأعداء فى هذا الوقت الأليق وأذن لهم فيه بقوله تعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ » ( الحج ٣٩ ) ، قال أبو بكر رضى الله عنه فعرفت أنه سيكون قتال . انظر : تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٢٥ .

بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّنْ سَبِيلٍ . إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (الشورى ٣٩-٤٢)[1] .

وقد جاهد المسلمون الأوائل حال ضعفهم جهادا كبيرا ، وبذلوا من نفوسهم ما ضربوا به المثل وكانوا به القدوة فى التضحية والفداء والصبر والمصابرة على إيذاء أعدائهم ، وإيثارهم لدينهم على دنياهم ، فتركوا مواطنهم وأهليهم وأموالهم فرارا بدينهم ولو لم يتعرض محمد ﷺ وصحبه لهذا كله ، وخلى بينه وبين قيامه بدعوته يؤمن بها من يؤمن ويصدف عنها من يصدف ، ولم يعنفوا عليه وعلى متبعيه لا نتشرت دعوة الإسلام بما تحمل فى طبيعتها من قوة ووضوح ، وبما تجد من إقبال الطبائع المستقيمة عليها .

ولكن أعداء الرسالة لم يتركوا الرسول ﷺ ودعوته فى مهجرها الجديد ، وحاولوا مناهضة الدين والإغارة على المسلمين فى المدينة وطردهم منها كما طردوهم من مكة ، والله غالب على أمره ، فما أن استقر المقام بالمسلمين فى المدينة ، وكثر عددهم وازدادت قوتهم بإخوانهم من الأنصار حتى احتاطوا لأنفسهم ، وفكروا فى دفع الأخطار المحيطة بهم من قبل ومن بعد ، وتهيؤوا لرد العدوان عليهم ، ولما تكاملت لهم أسباب الحيطة والحذر ، وذكروا أوطانهم وأموالهم والمستضعفين من أهليهم فى مكة ، حينئذ أذن لهم - مجرد إذن - بقتال الظالمين لهم ، ونزلت أول آية فى القرآن الكريم

(١) الدستور القرآنى فى شؤون الحياة - دروزة ١ / ٣٩٢ .

تتحدث عن إباحة قتال الأعداء ورد ظلمهم ، وتسجل بين ما فيها من الإذن بذلك سببه الواضح ، وهو ما وقع على المسلمين من ظلم ، وما أكرهوا عليه من الهجرة والخروج من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

وهكذا يتأكد لنا أن آية الإذن بالقتال لم تعلله بنشر الإسلام أو إلجاء الناس إليه ، فليس فيها شائبة من شوائب الإكراه فى العقيدة ، وإنما تبين أن هذا الإذن موافق لما تقضى به سنة التدافع بين الحق والباطل حفظاً للتوازن وردا للطغيان وتمكينا لأرباب الخير والصلاح من التمسك بعقائدهم وأداء عباداتهم[1] ، وحملا للناس على التزام حدودهم واحترام بعضهم لحقوق بعض ، فلا يقوى الشر ويستشرى الظلم والفساد ، ويستبد الأقوياء بالضعفاء ، ويحال بين الناس وحرياتهم ، وتتعطل بالتبعية شعائر الدين التى يجب أن تتوفر لها الحرية وتمكين أصحابها من إقامتها دون خوف أو ابتلاء[2] ، قال تعالى : « **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** » ( الحج ٣٨ - ٤١ ) .

---

(١) انظر : تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٥٢٨ - ٥٢٩ .

(٢) انظر : الدستور القرآنى فى شؤون الحياة - دروزة ٣٩٤/١ .

وهذا المبدأ الذى قام الإذن المدنى الأول للجهاد عليه متسق تماماً مع المبدأ الذى قررته آيات سورة الشورى ، وهو الدفاع ومقابلة البغى والعدوان بالمثل ، وهذا الإذن إن تجاوز معنى العفو وعدم السكوت أو الصبر على تحمل الظلم والاعتداء فى جهة ، كما كان عليه الحال مع آيات سورة الشورى ، ولما فى طبيعة الاعتداء من الخصوصية والفردية التى لا تجعله عاماً على كل الناس - فهو فى جهة أخرى لم يتجاوز المثلية فى رد الاعتداء ، ولم يسمح بالعدوان والتعدى مهما كان الحال ، والمتأمل فى كثرة النصوص القرآنية فى القتال يجد هذا المبدأ قد ظل محكماً تدور عليه هذه الآيات كلها فى تحديدها لسبب القتال وجعله خاصاً بالاعتداء العام على المجتمع ومحاولة فتنة الناس فى دينهم مع التحذير من الاعتداء والتعدى أبدا .

فآيات سورة البقرة وهى ثانى آيات القتال نزولاً أمرت المسلمين بقتال الذين يقاتلونهم فحسب والاستمرار فى قتالهم إلى أن ينتهوا من موقفهم ، وتتوفر الحرية لدين الله والدعوة إليه ، ولا يبقى إمكان لفتنة المسلمين عن دينهم ، وصد الناس عن الإسلام وصد المسلمين عن الدعوة إليه قال تعالى : « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ( البقرة ١٩٠ ) ، « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » ( البقرة ١٩٣ ) ، فالأمر بالقتال هنا واقع على من قاتل المسلمين ، ولما لم يكن كل كافر وكل مشرك مقاتلاً ومحارباً بالبداهة

حيث كان منهم المسالم والمحايد والمواد على ما ذكرته آيات أخرى[1] - علم أن القول بتوجه الأمر بالقتال إلى كل الكفار[2] حتى لا يكون شرك ويعم دين الله وهو الإسلام فيه نظر[3] .

ومن المعلوم اليقيني أن النبي ﷺ صالح مشركي قريش في السنة السادسة الهجرية بالحديبية وبعد نزول هذه الآيات ببضع سنين ، ولو كان المراد بالفتنة ما ذكره هؤلاء لما خالفه رسول الله ﷺ في صلحه ، وقد جاء فيه « أنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه »[4] ، بل ولما عفا عن كثير من الطلقاء في الفتح العظيم .

(١) من مثل قوله تعالى : « إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً » ( النساء ٩٠ ) ، « إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً » ( التوبة ٤ ) ، « لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » ( الممتحنة ٨ ) .

(٢) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٢٢٩/١٦ ، تفسير القرآن العظيم ١٧٣/٤ ، فتح القدير ٣١/٥ ، التفسير الكبير ٥٠٨/٧ .

(٣) الدستور القرآني في شؤون الحياة - دروزة ص ٣٩٥ .

(٤) السيرة النبوية - ابن هشام ٣٦٦/٣ .

ويؤكد توجيه الأمر بالقتال ووقوعه على من قاتل المسلمين فقط ، وأن معنى الفتنة هو الصد عن سبيل الله ومنع المسلمين من الدعوة إليه ما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما بصدد قوله تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ » قال : فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلاً ، فكان الرجل يفتن عن دينه إما قتلوه وإما عذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة »[1] .

ثم تتابعت الآيات نزولاً فى مختلف أدوار التنزيل لتؤكد هذا المعنى ، وتصرح بمفهومه وبخاصة فى سورة النساء حيث نبهت على أن الكفار الذين يقفون من المسلمين موقف الحياد والاعتزال والمسالمة ولم يقاتلوهم ، سواء أكان ذلك نتيجة لفرارهم أو بسبب تواثقهم مع فريق متواثق مع المسلمين لا يقاتلون بل يتركون وشأنهم[2] ، قال تعالى : « إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً » ( النساء ٩٠ ) .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير باب « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ » عن نافع عن ابن عمر ، وفى رواية أخرى عنه أن رجلين أتياه فى فتنة ابن الزبير يستحثانه على الخروج وسألاه : ألم يقل الله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله » . راجع : فتح البارى ١٨٣/٨ ، وانظر : تفسير القرآن العظيم ٢٢٧/١ - ٢٢٨ .

(٢) انظر : الدستور القرآنى فى شؤون الحياة ٣٩٧/١ .

وفي آخر آيات القرآن الكريم نزولاً في القتال يتأكد أن القتال إنما هو ضد المعتدين والناكثين في عهودهم وأيمانهم والصادين عن سبيل الله والذين بدأوا النبي ﷺ والمسلمين بالعداء ، وأن كل ذلك من موجبات القتال . قال تعالى : « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » ( التوبة ٧ - ١٣ ) .

**٤ - شبه واعتراضات :**

وضح من الآيات السابقة - وغيرها كثير - مبنى القتال في الإسلام ، ومبادئ الجهاد وقيامهما على الدفاع ومقابلة العدوان ودفع الظلم وإيقاف صد الناس عن دين الله ، ولكن خصوم الإسلام يزعمون مع كل هذا أن الدين الإسلامي أمر بقتال الكفار عامة حصل اعتداء منهم أو لم يحصل ، ويسوقون على ذلك شبهاً كثيرة منها :

أ ) الوقائع الحربية التى ترويها كتب السيرة بين المسلمين والمشركين قبل غزوة بدر ، والتى كان المسلمون فيها هم البادئون بالتحرش وقتال أعدائهم[1] .

وهذا التقرير - من بدء المسلمين التحرش بالمشركين وقتالهم - صحيح فى ظاهره إذا أغفلنا ما حدث قبل ذلك من هؤلاء المشركين فى مكة قبل الهجرة إلى المدينة ، فإذا اعتبرنا ذلك كان التقرير - فى حقيقته - غير صحيح ، وقد اعتبر القرآن الكريم ما كان من الكفار فى مكة من أذى المسلمين واضطهادهم وفتنتهم مما زهقت من جرائه بعض أرواح المسلمين ، ومن تآمر على حياة النبى ﷺ حكته الآية الكريمة « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ ويمكر الله والله خير الماكرين " ( الانفال ٣٠ ).

(١) من هذه الوقائع سرية عبيدة بن الحرث إلى بطن رابغ بثنية المرة ، وكان على المشركين عكرمة بن أبى جهل ، وسرية حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر وكان على المشركين أبو جهل ، وسرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار من أرض الحجاز ، وغزوات النبى ﷺ إلى الأبواء قرب مكة ، وإلى بواط قرب المدينة ، وإلى ذى العشيرة من بطن ينبع ، وإلى سفوان وهى بدر الصغرى ، وأخيراً سرية عبد الله بن جحش إلى بطن نخلة بين مكة والطائف ، وكانت تمر بها عير لقريش وأبى سفيان عليها عمرو بن الحضرمى . راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٢/٢٢٣ - ٢٤٣ .

(٢) بالنظر فى هذه السرايا والغزوات ومن وجهت إليهم من المشركين يعرف أن هؤلاء ممن أسهموا وشاركوا فى إيذاء المسلمين واضطهادهم ، ولا نفتقد أسماء شهيرة فى هذا الأمر كأبى جهل وغيره ، فتحرش المسلمين بهم هو فى دائرة الإذن لهم بالرد على ظلم هؤلاء المشركين واضطهادهم لهم ودفع عدوانهم عليهم .

وقد صرحت آية سورة الحج في الإذن بالقتال بأنهم ظلموا ، حتى آخر الآيات النازلة في القتال بسورة التوبة تصرح بأن قتال المسلمين هو لقوم « نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » ( التوبة ١٣ ) ، ولعل في جملة آية سورة البقرة « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ » ( البقرة ١٩١ ) دعما لهذا الاعتبار الذى فيه كل الحق ، فلما تمت الهجرة وأذن الله للمسلمين بالقتال كان موقفهم موقف المقابل[١] ، وليس موقف البادئ ، أما استمرار الحرب مع المشركين وبخاصة قريش فقد كان امتدادا لهذا الموقف إلى أن وقف بصلح الحديبية .

ب ) قول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » ( التوبة ١٢٣ ) ، وقد تمسكوا بظاهر الآية في أمرها المسلمين بقتال الكفار القريبين منهم بإطلاق دون إشارة إلى سبب القتال أو الغرض منه، والآية في الحقيقة ليست واردة لهذا الغرض أو ذاك ، وإنما موضوعها هي وسابقتها شئ آخر ، وهو توزيع الجهود والتبعات بين المسلمين في إنجاز مهمتهم القتالية على نحو محكم ، وإرشادهم إلى الخطط السليمة التي يجب أن يتبعوها في قتالهم المشروع .

---

(١) انظر : الدستور القرآني في شؤون الحياة - دروزة ص ٤٠٠ .

وإذا رجعنا إلى سبب نزول هذه الآية وما قبلها اتضح لنا ذلك على نحو لا يقبل نقاشاً ، فقد نزلتا عندما تزاحم المسلمون واحتشدوا فى المدينة من كل صوب للقتال مع رسول الله ﷺ [1] بعد حملة القرآن على المتخلفين والقاعدين عن الجهاد والمعتذرين بأعذار غير مقبولة ومرضى القلوب والمنافقين ، وقد تضمنت الآية الأولى إيذاناً بعدم ضرورة احتشادهم جميعاً فى مواجهة الأخطار ونفرتهم كلهم لرد العدوان الخارجى ، وإنما يكفى أن يتناوبوا فيخرج فى كل مرة فرقة من كل طائفة ، ويقسموا أنفسهم إلى فرقتين : تضرب إحداهما فى الأرض ابتغاء فضل الله ، وأخرى تقاتل فى سبيل الله ، فالجهاد لا يكون بالقتال وحده ، بل والعمل على توفير الحياة الكريمة للمقاتلين والتزود بما يقوم بالمجتمع كله اقتصادياً وعلمياً ودينياً ، وهذا هو مجتمع الحرب ومجتمع المعركة فى أسمى صورها وأعلى مراتبها[2] ، قال تعالى : « **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** » ( التوبة ١٢٢ ) .

ثم تكمل الآية الثانية - شاهد الشبهة والاعتراض - قاعدة الحرب وأسلوب تنفيذها فى أرض المعركة ، وترشدهم إلى الخطة العملية التى عليهم أن يترسموها عند نشوب القتال المشروع ، إذ توعز للمسلمين بقتال من حولهم أولا ووجوب البدء - عند تعدد الأعداء - بقتال الأقرب منهم

(١) راجع : أسباب نزول القرآن - الواحدى ص ٢٦٦ .

(٢) انظر : الله أو الدمار ص ١٦٧ .

فالأقرب ، عملاً على إخلاء الطريق من الأعداء المناوئين وتسهيلاً لسبل الانتصار[1] ؛ لأنه من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار فى جميع البلاد فى زمن واحد ؛ ولأن ترك الأقرب والاشتغال بقتال الأبعد لا يؤمن معه من الهجوم على الذرارى والضعفاء غير المحاربين من الأمة[2] ، وكأن الآية بعموم المنادين فيها توجه المؤمنين جميعاً لهذا الفن الحربى ، وهو توجيه مستمر المدى[3] فى البلاد التى تكون محاطة بالأعداء والمتربصين ليكونوا على استعداد دائم لمواجهتهم ، وليتولى القتال فى كل ناحية من أنحاء العدو القريبون لتلك الناحية والمقابلون لها ؛ لأنهم أعرف بها وأقدر عليها .

---

(١) هذا المبدأ الذى قرره القرآن الكريم من المبادئ التى تعمل بها الدول المتحاربة فى العصر الحديث ، فلا تدخل معركة مع غيرها إلا وهى مطمئنة إلى جبهتها الداخلية أمنيا واقتصادياً واجتماعياً لتوفر لجبهة القتال أداء مهمتها بدقة ونجاح ، ثم هى لا تخطو أو تتقدم فى ساحة المعركة إلى دولة أو قوة بينها وبينهم دول أو قوى محاربة عملاً على إزالة العقبات من أمامها من جهة واطمئنانا لسلامة ما خلفته من ساحة المعركة ووراء ظهرها من جهة أخرى .
انظر : تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٥٣١ .

(٢) انظر : روح المعانى - الألوسى ٥٠/١١ .

(٣) صاحب نزول هاتين الآيتين فى آخر عهد النبى ﷺ واقع أليم تعددت فيه جبهات العداوة للمسلمين ، فالروم عند مشارف الشام حتى حدود مؤتة ، وبنو حنيفة فى اليمامة وبنو أسد فى نجد وبنو عبس فى اليمن يتحفزون للتمرد استجابة لدعوى النبوة التى ادعاها زعماؤهم الثلاثة حيث يبدو أن الآيتين قصدتا عدم خلو هذه البلاد من المسلمين المجاهدين والإهابة بهم لقتال الأعداء عندهم .
راجع : تفسير القرآن العظيم ٤٠١/٢ ، الدستور القرآنى ٤٦٦ .

وعلى ذلك فلا وجه للاعتراض بهذه الآية ، حيث إن الأمر بالقتال فيها مبنى على استمرار موقف العداء من هؤلاء المأمور بقتالهم واستمرار صدهم عن سبيل الله وصرف الناس عن دين الله وشغلهم بأطماع سياسية وزعامات بيئية افتعلها وادعاها المغامرون منهم فى ذلك الوقت .

جـ ) ومن أهم الشبهات التى تتردد هنا الإيهام باحتواء آيات القرآن الكريم على أمر صريح برفع السيف على أهل الكتاب وتجريده ضدهم حتى الإذلال ودفع الجزية رغماً عنهم ، وهو ما جاء فى قوله تعالى : « **قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** » ( التوبة ٢٩ ) .

وأسلوب الآية فى الحقيقة يحمل الرد على هذه الشبهة ، ولو جاء - افتراضا - على هذا النحو : قاتلوا أهل الكتاب ... أو الذين أوتوا الكتاب ... ما وسعنا إلا التسليم بهذه الشبهة ، لكن الآية اقتصرت فى أمرها المسلمين بالقتال على من تحققت فيهم هذه الصفات ، وهم بعض من كل الذين أوتوا الكتاب ، وهذه الصفات فى حقيقة أمرها تمثل عدواناً لا على حقوق المسلمين ووجودهم فحسب إنما على حقيقة الألوهية بالتثنية والتثليث ، وتحريمهم ما أحل الله وتحليلهم ما حرم الله ، وعدم قبولهم للدين الحق أو إيمانهم بيوم الحساب(١) .

---

(١) ظهرت آثار هذه الصفات وخلافهم المنهجى بها عن منهج الإسلام فى عداوتهم للإسلام وكراهيتهم للمسلمين ، ووضعهم العراقيل فى طريق الدعوة إليه وتأليبهم الناس ضده كما فعل اليهود فى المدينة وما حولها ، وكما فعل نصارى الروم فى حدود بلاد العرب من قبل فى عصر الرسول ﷺ مما نشير إليه بعد فى السياق التاريخى .

وقد جاء سياق الآيات بعد ذلك مفصلاً لهذا الإجمال ومبيناً أن هذه الصفات ، وإن كانت واقعة حال لما كان عليه نصارى الشام والروم وغيرهم وقت نزول الآيات ، فهى واقعة بالقياس إلى غيرهم منذ حرفت المجامع المقدسة دين المسيح عليه السلام وقالت ببنوته لله وبتثليث الأقانيم وغير ذلك من الأباطيل ، وساروا على نهج إخوانهم اليهود من قبل فى قولهم ببنوة عزير لله ، ودخلوا فى مضاهاة عقيدة المشركين بانحرافهم ومخالفتهم للعقيدة الصحيحة التى جاءتهم بها كتبهم .

وهذا الحال من الاعتداء والبغى بنوعيه المعنوى والمادى من هذا الصنف من أهل الكتاب واستحقاقه قتال المسلمين له حتى يخضع ويستسلم رداً على بغيه واعتدائه يرشح له فى الحقيقة أمران :

أولهما : الواقع التاريخى الذى نزلت فيه الآيات فى بداية السنة التاسعة للهجرة تقريباً بعد أن نال هؤلاء من المسلمين منالا ، فإن رسول الله ﷺ بعد أن وقع مع قريش ومشركى مكة معاهدة صلح فى الحديبية أرسل كتبه ورسله إلى ملوك الأرض وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام ، ومنهم أمير بصرى أحد أمراء الروم ، ولما بلغ الرسول الذى بعثه رسول الله ﷺ قرية مؤتة من قرى الشام تعرض له شرحبيل الغسانى وعرف مهمته فأمر به فضربت عنقه ، وكان الرسول الوحيد الذى قتل من رسل النبى ﷺ ، وحزن النبى ﷺ لقتله حزناً شديداً ، وكان العرب والناس جميعاً متواضعين على أن قتل الرسول من أكبر أنواع الغدر الذى تشن الحرب لأجله ، وقد قدر الروم أن محمداً وأصحابه لن يسكتوا على قتل الرسول فحشدوا من الروم

ومتنصرى العرب قوة يستأصلون بها أمر محمد ، وكانت الموقعة المعروفة بمؤتة واستشهد فيها ثلاثة من قادة المسلمين[1] .

ثانيهما : سياق الآيات بعد ذلك ؛ إذ ورد فيه آيتان تدعمان وقوع الأمر بقتال أهل الكتاب فى هذه الآية فى إطار المبدأ الذى قام عليه الجهاد ، وليس أمرا باضطهاد غيرهم أو ترويعهم والتعدى عليهم ، وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : « **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** » ( التوبة ٣٢ ) ، وقوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** » ( التوبة ٣٤ ) ، كما تسبق هاتين الآيتين آيتان أخريان تؤكد أن كفرهم وشركهم وعدم إيمانهم بما يجب لله من التوحيد الحق والعبودية الخالصة ، يضاهئون بأقوالهم قول الذين كفروا من قبلهم من الوثنيين ، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم فاستحلوا ما أحلوه لهم من الحرام وحرموا ما حرموه لهم من الحلال ، فكانوا بذلك مشركين لا يدينون دين الحق[2] .

---

(١) راجع : السيرة النبوية - ابن هشام ٣/٤٢٧-٤٣٥ ، وأنظر : الدستور القرآنى - دروزة ١/٤٠٢ .

(٢) وهاتان الآيتان هما قوله تعالى : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » ( التوبة ٣٠ - ٣١ ) .

وبعد قليل من هذه الآيات تجئ آيات أخرى تستنفر المسلمين إلى غزوة أجمع الرواة على أن المراد بها غزوة تبوك التى بعدت بها الشقة على المتخلفين ، وتبوك فى مشارف الشام كان يسكنها كثير من قبائل النصارى التى اعتدت على سابلة المسلمين ورسلهم وبعثاتهم ، ففى هذه الحوادث تأكيد آخر يمكن القول معه : إن الأمر بالقتال فى الآية المعترض بها قد كان بسبب البغى والعدوان ، وتأمين حرية الدعوة الإسلامية وكف الصد عنها مما صدر من الكتابيين أى النصارى بمشارف الشام(١) .

وإذ كنا نقرر أن الموادعين والمسالمين والموادين لهم شأن آخر فى النظر الإسلامى ، وإنه لكذلك ، فإن من تحققت فيهم هذه الصفات المسجلة قرآنياً - فى هذه الآية - غير داخلين ضمن دائرة الموادعة والمسالمة ؛ إذ إن اعتداءهم قائم ابتداء على وحدانية الله وتفرده بالألوهية من جهة ، وعلى حرية العباد بتعبيدهم لغير الله من جهة أخرى ؛ وإذن فالأمر فى الآية عام يقرر قاعدة مطلقة فى التعامل مع أهل الكتاب الذين تنطبق عليهم هذه الصفات التى كانت قائمة فى نصارى العرب ونصارى الروم(٢) .

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقاداً وسلوكاً ، كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم بين منهج الله وعقيدتهم وواقعهم الذى صورته الآيات ، وقد أثبت الواقع التاريخى الذى أشرنا إليه حقيقة التعارض وطبيعة التصادم ، ووقوف أهل الكتاب فعلاً فى وجه دين الله وإعلان الحرب عليه بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية ، بل وطوال الفترات اللاحقة لها(٣) .

---

(١) انظر : الدستور القرآنى - دروزة ١ / ٤٠٢ .
(٢) انظر : فى ظلال القرآن - سيد قطب ١٦٣٢/٣ .
(٣) السابق ١٦٣٣/٣ .

فهل يوجد من أهل الكتاب اليوم من لا تنطبق عليهم الصفات القرآنية كما انطبقت من قبل حتى يكونوا بمنأى عن وقوعهم فى دائرة المأمور به فى الآية ؟ ، وفى المقابل فإن خطاب الله فى الآية لمن آمنوا به حقا ، واقتضى إيمانهم تبعة تكليفهم بهذا الأمر وحراسة دينه ، واستأهلوا شرف خطاب الله لهم فى هذا النداء وتنفيذه على ما ينبغى له ، فمن لنا بأمثال هؤلاء اليوم يقومون بأمر الله وسائر المجتمعات الإسلامية اليوم من الهوان والضعف وإعطاء الدنية فى الدين مالا يخفى على كل الناس ؟ ! .

وأخيراً فإن هذا الأمر فى الآية لو كان مطلقاً غير مقيد بهذه الصفات القرآنية ، وفى غير نطاق المبدأ لاقتضى أن يقاتل المسلمون كل كتابى إطلاقاً إلى أن يعطى الجزية ، فى حين أن هذا لم يقع لا فى عهد النبى ﷺ ولا فى عهد الخلفاء الراشدين من بعده ، بل إن رسول الله ﷺ يؤكد توجيه الأمر بالقتال إلى العدو من الكافرين وليس الكافر بإطلاق حيث جاء فى حديثه الشهير عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أميراً على سرية أو جيش أوصاه بتقوى الله فى خاصة نفسه ومن معه من المسلمين خيراً ، وقال : « إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال فأيتها أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ... فإن هم أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية ، فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم »(١) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الجهاد . راجع : السنن ٣٧/٣ ، والدارمى فى كتاب السير . راجع : السنن ١٣٦/٢ .

**٥ - دعوى إجبار الناس على الإسلام بالقتال :**

لا يخفى اعتماد أصحاب هذه الدعوى على مالا يصح قبوله فى العقل من اقتران انتشار دعوة الإسلام برد عدوان المعتدين عليها وعلى أصحابها فيما عرف فى تاريخ الدعوة وسيرة الرسول ﷺ بالسرايا والغزوات التى أشرنا إلى بعض منها من قبل ، ورغم بطلان هذه الدعوى ، وفراغ المسلمين من الكشف عن زيفها وفسادها وإيداعها ذمة التاريخ - فما يزال أهل الباطل يرددونها ويذيعونها فى الناس ، ولا يملون من ابتعاثها وطرحها لشغل الأذهان بها وغيرها وصرفها عن التفرغ لما هو أجدى وأنفع للأمة من العمل الصالح وبخاصة عندما يلوح فى الأفق أمل جديد وهمة جادة تبشر بنهضة المسلمين وقوتهم ، الأمر الذى تفزع له قوى الباطل وتأرق فتقوم بإثارة الشبه ووضع العوائق لتعطيل مسيرة المسلمين وتخويف العالمين من نهضتهم وقوتهم ، وصدهم عن الالتفات إليها أو الاقتناع بها .

فهل من الحق والواقع أن جهاد المسلمين لغيرهم وقتالهم - كما جاء فى تعاليم الإسلام وسيرة النبى ﷺ وصحابته - إنما يستهدف إجبار الناس على الدخول فى هذا الدين ؟ وما مدى سلطان الإكراه على القلوب وهى محل التصديق الوجدانى والإذعان الداخلى الذى تنعقد به العقيدة وتخضع لمقتضياتها جوارح الناس وأعمالهم ؟

إن حقيقة الإيمان ترجع دون منازعة أحد إلى الإذعان القلبى والاطمئنان إلى حقيقة من الحقائق بحيث لا يقترب منها شك ، فإذا وجد هذا المعنى فى القلب وجد الإيمان وتحقق ، ولا ريب أن الإكراه والإجبار على شئ ليس له

سلطان على القلوب ، وإنما سلطانه على الجوارح والظواهر والأعمال ، فهل يمكن - مع وضوح هذه الحقيقة - قبول هذا التقرير ، وهو أن الغاية التى كان يعمل لها الإسلام هى مجرد إخضاع الجوارح وإكراهها على أن تظهر صورة الإيمان ، وحسب محمد هذا فى تبليغ رسالته ؟ بل وحسب الناس كذلك عند ربهم أن يكون منهم هذا الخضوع الظاهرى والانقياد الشكلى ؟

لا يستطيع أى منصف قبول هذا ، أو الإجابة بالإيجاب ؛ ذلك أن نصوص الإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ صريحة فى أن الإكراه لا يكون فى الدين ، إن مثل هذا الخضوع الذى لا يصحبه اطمئنان القلب ويقينه بما خضعت له الجوارح لا يقبله الله ، ولا يناط به انخراط أصحابه فى عداد المؤمنين وإن حسبوا أنفسهم - وحسبوا على الناس - أنهم كذلك ، ومن قبل ومن بعد حكى لنا القرآن الكريم عن أصناف وطوائف من البشر أهدر الله دعواها الإيمان وإظهارها الخضوع لمقتضياته تحت سلطان البأس والقوة أو خشية مصيبة قاهرة ، أو - ربما - نفاقا لسلطة حاكم ونظام مجتمع دون أن تتبطن حقيقة الإيمان وتنعقد عليه قلوبها .

فحين أدرك فرعون الغرق وأيقن مصيره المحتوم - وهو يتبع المؤمنين مع موسى بغيا وعدوانا - صاح فى الناس : « آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » (يونس ٩٠) ، فما نفعه ذلك الذى أظهره تحت وطأة المصير المحتوم ، وما قبل الله منه ذلك العبث ورده عليه ، وأخذه بذنبه واستكباره وكفره الذى طالما أعلنه فى الناس وأكرههم عليه بقوله : « يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى »

( القصص ٣٨ ) ، وكان الرد عليه واضحاً فى أن هذا الإيمان الذى نطق به فى تلك الحال التى رأى فيها من العذاب ما رأى لا يعتد به ولا ينفعه ولا يقبله الله ؛ لأنه غير نابع من قلبه « الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ . فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ » ( يونس ٩١ - ٩٢ ) .

ومثل هذا كان شأن المكذبين لرسلهم من الأمم السابقة حين رأوا فى الدنيا عاقبتهم السيئة وحاق بهم من العذاب ما كانوا يستهزئون به حين يوعدون ويهددون به ما نفعهم إيمانهم فى هذا الحال ولا قبل منهم . « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » ( غافر ٨٤ - ٨٥ ) ، « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْراً » ( الأنعام ١٥٨ ) ، والآيات صريحة فى تقرير الحقيقة وإهدار دعوى الإيمان تحت سلطان غير سلطان قلب المؤمن وإرادته الذى هو مناط الكفر والإيمان[1] .

(١) كما لا يعترف الإسلام بمظهر الإيمان الناشئ عن القهر والإلجاء الخارج عن إرادة صاحبه ، لا يعبأ كذلك بمظهر الكفر الناشئ من التسلط والضغط والإكراه طالما ظل القلب على إيمانه ويقينه قال تعالى : « مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » ( النحل ١٠٦ ) .

وأمثال هؤلاء تماماً من يظهرون الإيمان مسايرة لقوة المؤمنين من حولهم وحرصاً على أوضاع اجتماعية ومراكز وجيهة وامتيازات يختصون بها من دون المؤمنين ، فهم يقولون : « آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ » ( البقرة ٨ ) ، « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا » ( البقرة ١٤ ) ، فإذا ما خلوا إلى أنفسهم وشياطينهم نقضوا ما أظهروه وقالوا لشياطينهم : « إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » ( البقرة ١٤ ) .

ولما كان الإسلام لا يعتد بما يظهره هؤلاء وإنما اعتداده ببواطنهم وما وطنوا عليه سرائرهم من الكفر الذى يجمعهم وإخوانهم من الكفار فى جهنم جميعاً - فقد جاءت تقريرات القرآن الكريم جامعة لهؤلاء وأولئك فى حكم واحد ؛ لأنهم إخوة للكافرين فى الحقيقة وإن أظهروا كذبا ونفاقا أنهم إخوة للمؤمنين « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ( الحشر ١١ ) فمصير هؤلاء كمصير أولئك أو أشد ، وقد « وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ » ( التوبة ٦٨ ) ، وهو « جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً » ( النساء ١٤٠ ) ، بل « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً » ( النساء ١٤٥ ) .

فإيمان هؤلاء الذى أظهروه نفاقاً ومسايرة لقوة المؤمنين لا اعتبار له عند الله ، ولا قيمة لقولهم وإن عاملهم المسلمون على الظاهر من أحوالهم ومقتضى قولهم ، وقد أكثر القرآن الكريم من تعريف المسلمين ورسول الله ﷺ بحقيقة أمورهم وإعلامهم بآياتهم وصفاتهم ليكونوا على حذر منهم

ولا يخدعون بمعسول كلامهم ، فخطورتهم على المسلمين قد تكون أشد من خطورة إخوانهم الكافرين ، قال تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » ( محمد ٣٠ ) ، وأمر الله رسوله ﷺ بمجاهدتهم والكفار سواء بسواء ، ولا يطع لهم أو يسمع منهم ، فهم كاذبون وإن نطقوا بحق ، ولا أمان لهم وقد فقدوا الإيمان ، قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ » ( التحريم ٩ ) ، « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ » ( الأحزاب ١ ) ، « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » ( المنافقون ١ - ٤ ) .

وإذا كان الإسلام يشجب الإكراه في العقيدة ، ويقرر حرية الفرد فيما يعتقد ، فإنه يجعل قضية الهداية والكفر - من وراء الظاهر الذي قد يضمنه الإكراه - شأناً من شؤون الله وحده ، يغذيه الإقناع العقلي بأسلوب مهذب رفيع « ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » ( النحل ١٢٥ ) من جهة ، ثم هو من

جهة أخرى لا يتساهل فى الحض على حماية المجتمع الإسلامى من التفكك الداخلى والفتنة التى قد يحدثها هؤلاء المنافقون داخل صفوف المؤمنين وتطهيره أولا بأول من خبال هؤلاء تماماً كحماية المجتمع من الغزو الخارجى ومناجزة الكفار فلا يفكروا فى اعتداء أو اضطهاد ، وهذا هو منهاج الحق الذى يترجم ما استقر فى أعماق الضمائر وخبايا النفوس حتى يطهرها وينظفها ، ويتحقق بذلك التطابق التام والانسجام بين الاعتقاد والسلوك ، ويرتفع بالإيمان عن أن يكون قولاً فحسب ، أو شهادة ينطلق بها لسان ، فلا يكون الإيمان صادقاً إلا إذا تحقق فى مظهر خارجى هو العمل فى حدود الالتزام الأخلاقى المنبثق من الداخل لا المفروض قسراً أو إجباراً من خارج الإنسان[1] .

وبعد : فهل يرفض الإسلام أمثال هؤلاء وأولئك ولا يعتد بإظهارهم للإسلام لما لم يطابق ذلك بواطنهم ، ثم هو يناقض نفسه فيسعى لإجبار الناس على الدخول فيه وإظهار مثل هذا الذى رفضه وإن كانوا فى حقيقة أمرهم رافضين لما أظهروه وغير مقتنعين به ؟ وهل من مسؤولية الإسلام وواجبات المسلمين أن يدخل الناس فيه إما طوعاً أو كرها دون مراعاة الاقتناع به والاعتقاد فى صحته وصدق من جاء به ؟ ! .

كلا ، فنصوص القرآن الكريم واضحة فى هذا الأمر لا تحتاج إلى بيان أو تفسير ، وكلها تؤكد أن إيمان الناس أو كفرهم إنما هو محض اختيارهم ، وهم المسؤولون عنه قبل غيرهم ، وأن الله لو شاء أن يكون الناس جميعاً

---

(١) وصف الله من كان إيمانهم على هذه الشاكلة بدخولهم دائرة المقت والغضب فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ » ( الصف ٢ - ٣ ) .

مؤمنين لخلقهم على طبيعة الإيمان بحيث لا يستطيعون أن ينخلعوا منه إلى الكفر وأنه لا إكراه لأحد على الإيمان ، وأن اختلاف الناس فى هذا الأمر وغيره من إرادة الله النافذة فى خلقه ، وهى حقيقة يواجه بها القرآن الكريم أعداءه قبل أوليائه ، فلا يعقل أن يواجه الجميع بها ثم هو يعمل بنقيضها ، قال تعالى : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ » ( البقرة ٢٥٦ ) ، وقال تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ( يونس ٩٩ ) ، وقال تعالى : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ( هود ١١٨ - ١١٩ ) ، « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ » (الأنعام ٣٥) .

ومن الواضح أن مسؤولية الرسول ﷺ - ومن ورائه أمته - فى هذا الشأن من هداية البشر وإيمانهم منعدمة ، وهى محصورة فى مجرد التبليغ والإرشاد وإنذارهم وتبشيرهم ، وأنه لا أحد من المسلمين يسأل عن كفر من كفر ولا عناد من عاند حتى يتخذ المسلمون والإسلام القهر والإلجاء طريقاً إلى الإسلام ، وأن دعوة النبى ﷺ إلى الإسلام إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة وجدال الناس بالتى هى أحسن ، وأن يعلن فى الناس أن من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وأنه ليس جباراً على الدين ولا وكيلاً على الناس ولا مسيطراً عليهم ، قال تعالى : « ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » ( النحل ١٢٥ ) ، وقال تعالى : « إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » ( القصص ٥٦ ) ، وقال تعالى : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ » ( النور ٥٤ ) .

وهناك وراء ما يستفاد من هذه النصوص وأمثالها[1] فى تقرير تلك الحقيقة أمر واقعى يشهد به التاريخ فى أحوال الذين دخلوا الإسلام ، ذلك أن كثيراً من الأقطار الإسلامية قد دخلها الإسلام عن طريق التجارة والسياحة وتبادل الزيارات من غير أن يكون للحرب دخل فى إسلامها ، وأن كثيراً من هؤلاء وغيرهم الذين دخل الإيمان فى قلوبهم تقلبت عليهم عوامل الضغط والإلجاء لإخراجهم عن دينهم وإكراههم على التخلى عنه ، فلم تنجح

(١) تكثر هذه النصوص فى القرآن الكريم كثرة واضحة كقوله تعالى : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ » ( يونس ١٠٨ ) ، « وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » ( الكهف ٢٩ ) ، « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » ( ق ٤٥ ) ، « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » ( الذاريات ٥٤ - ٥٥ ) ، « إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ . لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ » ( التكوير ٢٧ - ٢٨ ) ، « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ » ( الغاشية ٢١ - ٢٤ ) .

هذه العوامل ولم تزدهم إلا تمسكا بدينهم وقوة فى إيمانهم[١] ، وإذ كان المسلمون بحسب تعاليم دينهم هذه يأبون أن يكرهوا أحدا على تغيير معتقده ، فإنهم بالأحرى يأبون أن يكرههم أحد على تغيير معتقداتهم ، وبخاصة أنهم يؤمنون برسالة جميع الرسل كما يؤمنون برسالة محمد ﷺ ولا يفرقون بين أحد من رسله[٢] .

وإذا حدث انحراف عن مبادئ الإسلام فى عصور معينة وبيئات محددة ممن يشغبون على الإسلام وأهله قبل شغبهم على غيرهم ، فمن سفه الرأى وجهالته المقارنة بين المبادئ وتصرفات هؤلاء التى حادت عن مسار الرسالة وهديها المحمدى ؛ لأن ذلك الانحراف عن هدى الإسلام - كما يقول الإمام محمد عبده - مما لا يلصق بطبيعته ولا يختلط بطينته ، بل هو عليه دخيل ولا يتفق مع أصول الدين فى كثير أو قليل[٣] .

والإسلام من وراء ذلك ليس حكرا لفئة أو شعب أو أمة بل هو دين الناس جميعاً ، « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » ( الأعراف ١٥٨ ) ، ولذا يخاطب القرآن الكريم جميع البشر وتتجه أحكامه

---

(١) تفسير القرآن الكريم - شلتوت ٥٢٦ ، وانظر تقرير « جوستاف لوبون » عن ذلك ص ٩٦ من هذا الكتاب .

(٢) عرفنا من قبل شهادة التاريخ فى ذلك التى سجلها مؤرخ حضارة العرب ، وهى أن الأديان لا تفرض بالقوة ، وما ساقه مثالا على ذلك من أن النصارى فى الأندلس لما قهروا العرب وأرادوهم على التنصر بعد هزيمتهم بها فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام . انظر ص ٩٦ وراجع : حضارة العرب ص ١٢٨ .

(٣) انظر : رسالة التوحيد ص ١٥١ - ١٥٩ .

بعموميتها المطلقة إليهم جميعاً دون تمييز ، ومن هذا الموقف العام ينتفى من الإسلام إكراه الناس على اعتناقه ، ويصبح لكل إنسان فى المجتمع الإنسانى الحق فى حرية الاختيار الكامل للعقيدة التى يعتنقها وحرية ممارستها فى ظل المودة والتسامح[1] ، وتوفير الحماية الكاملة لممارسة الشعائر والعبادات ، وفى التاريخ الإسلامى من قصص التسامح الدينى ، والتشدد فى المحافظة على حقوق غير المسلمين فى عقيدتهم وممارساتهم وأموالهم وتقاليدهم وطقوسهم وقضائهم مالا مثيل له فى تاريخ الإنسانية كلها .

ولقد يقال برغم هذه النصوص الكثيرة والمبادئ الإسلامية النافية لإجبار الناس على اعتناق الإسلام وإكراههم عليه إن هناك من النصوص ما يفيد الأمر بقتال الناس والتشديد فى هذا الأمر بغرض الوصول إلى هدف محدد بعينه وهو إسلام هؤلاء الكفار ، وعندها فحسب يغمد الإسلام عنهم سيفه ويقبلهم إخواناً فى الدين .

أليس هذا منصوص قوله تعالى : « فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » ( التوبة ٥ ) ؟ ، وقوله تعالى : « لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

---

(١) لم يتشدد الإسلام – حقيقة – إلا فيمن دخل الإسلام وارتد عنه ؛ لأنه فى حكم ما يسمى اليوم بالخائن خيانة عظمى ، فمن دخل فى الإسلام فقد دخل فى النظام العام للجماعة ، فإذا خرج منه فقد قصد التشكيك فيه ، والإساءة إليه والإضرار بالدعوة الإسلامية التى هى شريعة الله .

وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ » ( التـوبة ١٠ - ١١ ) ؟ ، وقـوله تعـالى : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » ( الأنفال ٥٧ ) ؟ .

وفى سـنة رسـول الله ﷺ عن أبـى هـريـرة عن النبى ﷺ قـال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله »(١) ، وعن أنس عن النبى ﷺ قال : « أمرت أن أقـاتل الناس حتى يشـهـدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ... فإذا فعلوا ذلك حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم »(٢) .

فـآيتـا سورة التـوبة تعلقـان تخلية سـبيل المشـركين والكف عنهم على توبتهم وإسلامهم وإقامتهم الصلاة وإيتائهم الزكاة ، وهذا معناه الإكراه على الإسلام وإلا ما كف عن قتالهم ولا خلى سبيلهم .

والحق أن هاتين الآيتـين قد نزلتـا من جهـة فى حق فـريق اعـتـدوا على المسلمين بدءا ثم عوهدوا ، ولكنهم ظلوا مبـيـتـين نيـة الغـدر والنكث ، ولم يروا أنفسهم مقيدين نحو المسلمين بأى عهد ولا ذمة فليس من الشذوذ فى شئ أن يشدد مع هذا الفريق وألا يقبل منهم إلا التسليم بدون قيـد ولا شرط والدخول فى الإسلام حيث يصـبـحون إخوانا للمسلمـين ويضـمن بذلك عـدم نكثـهم وغدرهم ، ولا يتضمن هذا معنى الإكراه على الإسلام بالقوة قـصدا وهدفا ومبدأ بقدر ما يتضمن عقابهم بالقتل على نكثهم العهد وغدرهم(٣) .

(١) اخرجه مسلم ، راجع : الصحيح بشرح النووى - كتاب الإيمان ٢٠٦/١ .
(٢) راجع : شرح النووى على صحيح مسلم - كتاب الإيمان ٢٠٦/١ .
(٣) انظر : الدستور القرآنى - دروزة ٤٠٧/١ ، ٤٠٩ .

ومثل هؤلاء المشركين فى نكثهم العهد وغدرهم مثل يهود المدينة الذين عاهدهم رسول الله ﷺ على حريتهم وأمنهم على شرط المناصحة والمسالمة ، وقد وسعهم فى كل مواقف الجدل والمماحكة والكيد ، بل والطعن والتشكيك وتقوية المنافقين وتحريكهم ، ولكنهم لم يكتفوا بهذا الموقف العدائى الذى هو من مبررات قتالهم ، بل نقضوا عهودهم مرة بعد مرة ، وتآمروا مع المنافقين تارة ومع المشركين أخرى ، وظاهروهم حربيا ، فكان من الطبيعى أن يكون للنبى ﷺ الحق الصريح فى ألا يرضى إلا بالطمأنينة التامة التى لا يتعرض المسلمون معها لخطر خيانتهم[1] ، ويؤكد هذا المعنى أن هذه الآيات من سورة براءة تضمنت دلائل قاطعة على أن المقصودين بالقتل فيها هم المشركون الناكثون لأيمانهم والغادرون فى عهودهم مثل هؤلاء اليهود ، مما استحقوا به عدم رحمتهم والبراءة منهم بهذا الحسم وتلك الشدة التى استهلت بها هذه السورة [2] .

أما أية سورة الأنفال فسياقها كاف بحد ذاته فى التأكيد على أن هؤلاء الكفار الذين وصفوا بأنهم شر الدواب قد ضموا إلى كفرهم ما استوجبوا به قتلهم من استمرائهم نقض العهود والغدر بمواثيقهم مع المؤمنين ، فلم يكن قتلهم غاية ولا إكراها لهم على الإسلام بقدر ما كان تأديباً لهم وعقوبة على خيانتهم وغدرهم وتخويفا وإرهابا لغيرهم ممن تسول لهم

---

(١) الدستور القرآنى ١ / ٤٠٥ .

(٢) يظهر ذلك فى ترك التسمية باسم الله ورحمته أولها كسائر سور القرآن الكريم كما قال على بن أبى طالب لابن عباس حين سأله عن عدم كتابتها فقال : إن التسمية أمان ورحمة ، وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان . انظر : روح المعانى - الألوسى ١٠ / ٤١ .

نفوسهم الخيانة والغدر وعدم احترام عهودهم ومواثيقهم مع المؤمنين ، قال تعالى : « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » ( الأنفال ٥٥ - ٥٧ ) .

أما حديثا أبى هريرة وأنس وما يبدو فيهما من الأمر بقتال الناس حتى يسلموا ، وما فى ذلك من معارضة لآيات القرآن الكريم التى تمنع قتال المسالمين والحياديين من غير المسلمين ، وتأمر بالكف عمن يخضع منهم ، وتجيز الصلح مع الكفار مشركين وكتابيين دون أن يسلموا ، وتأمر بالوفاء للذين يوفون بعهدهم ويستقيمون عليه ، فيأبى إيماننا بحكمة النبى ﷺ التسليم بأنه ناقض نفسه والقرآن الكريم والوقائع التى تمت فى عهده ﷺ بهذين الحديثين .

والذى يمكن قوله هنا : أن كلمة الناس فى الحديثين يراد بها من استحقوا القتال بموجب المبادئ القرآنية إما ردا لعدوانهم السابق أو عقابا لهم على نكثهم العهود والمواثيق ، ولا خيار لهم حينذاك إلا شهادتهم وإيمانهم فيعصمون بذلك دماءهم وأموالهم ونفوسهم أو قتالهم أبدا .

ولقد روى عن جابر عن النبى ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ، ثم قرأ : « إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[1] ( الغاشية ٢١ - ٢٢ ) ، فهذه الإضافة

---

(١) راجع : صحيح مسلم بشرح النووى - كتاب الإيمان ١ / ٢١١ .

فى حديث جابر أفادت أن النبى ﷺ إنما قال الحديث ليكون مفسرا لخطته بالنسبة لمن يعصمون بقولهم لا إله إلا الله دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وليقول : إنه ليس مسيطرا على الناس ولا مسؤولا عن خفاياهم ، وأنه ترك حساب مالا يعرف من أعمالهم إلى الله بعد أن يقولوا لا إله إلا الله ، وقد نقل النووى عن بعض العلماء ما يرشح لهذا قال : قال الخطابى : معلوم أن المراد بهذا أهل الأوثان دون أهل الكتاب ، وذكر القاضى عياض معنى هذا ، وزاد عليه وأوضحه فقال : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحد ، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه[1] .

**٦ - حكم القتال فى الإسلام وأهدافه :**

لم تختلف الأمة أن القتال كان محظورا على المسلمين قبل الهجرة ، وكان دستورهم فى ذلك قول الله تعالى : « **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** » (فصلت ٣٤) . « **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ** » ( الشورى ٤٨ ) ، « **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً** » ( الفرقان ٦٣ ) ، « **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ** » ( النساء ٧٧ ) ، وقد ظل المسلمون على ذلك أعواما يسامون سوء العذاب ويصادرون فى حريتهم الدينية ،

---

(١) راجع : شرح النووى على صحيح مسلم ١ / ٢٠٦ - ٢٠٧ .

ويضطهدون فى عقيدتهم التى اطمأنوا إليها ، ويفتنون فى أموالهم حتى أكرهوا على الهجرة فخرجوا من أوطانهم ، ثم أقاموا فى المدينة صابرين لأمر الله راضين بحكمه ، وكانوا كلما همت نفوسهم بالرد على الظلم أو تطلعت إلى الانتقام من الظالمين ردهم رسول الله إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلا : « لم أومر بقتال ! لم أومر بقتال[1] » .

وما لبث المؤمنون أن أذن لهم فى القتال بعد أن كاد اليأس يساورهم ويفضى بهم إلى الظنون فكان مباحا لهم أن يقاتلوا أو يمتنعوا حسبما تقتضيه ظروفهم وتقديرهم للمصلحة من القتال أو عدمه وكان الإذن لهم بأول آيات فى القتال تنزل على رسول الله ﷺ : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » ( الحج ٣٩ - ٤١ ) .

هذا وقد عللت الآيات فى وضوح هذا الإذن بالقتال بما أصاب المسلمين من الظلم والإكراه على الهجرة بغير الحق ، وأرشدت إلى أن هذا الإذن موافق لما تقضى به سنة التدافع بين الناس حفظا للتوازن الجماعى

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ٣ / ٢٢٥ ، تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٢٤٣

ودرءا للطغيان البشرى ، وتمكينا لأرباب العقائد والعبادات من أداء عباداتهم والبقاء على عقائدهم ، ثم أرشدت الآيات إلى أن الله إنما ينصر بمقتضى سنته فى خلقه من ينصره[1] ويتقيه بإقامة العدل وإقرار الأمن وبث الطمأنينة ، ولا يتخذ الحرب أداة للتخريب والإفساد وإذلال الضعفاء وإرضاء الشهوات ، وإنما يتخذها وسيلة إلى عمارة الكون ، وإنفاذ أمر الله فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[2] .

وحين صارت للمؤمنين فى مجموعهم قوة يستطيعون الرد بها على مقاتليهم والمعتدين عليهم كان الأمر بقتال هؤلاء والاعتداء على من اعتدى منهم على المؤمنين ، فنزلت الآيات الآمرة بالقتال فى سورتى البقرة والنساء وغيرهما ، وكلها تحصر دائرة القتال - الذى أذن فيه للمؤمنين وأمروا به - فى رد العدوان والقضاء على الفتنة فى الدين التى يثيرها أرباب المطامع والأهواء ، وإشاعة الأمن والاستقرار لإقامة الحياة على موازين العدل والمساواة ، قال تعالى : « وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » ( البقرة ١٩٠ ) ، « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » ( البقرة ١٩٣ ) ، « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ »

---

(١) لا يفتأ القرآن الكريم يؤكد على هذه الحقيقة وتلك السنة ومنها ما ذكر معنافى المقطع الثالث من سورة القتال « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ( محمد ٧ ) .

(٢) راجع : تفسير القرآن الكريم - شلتوت ص ٢٤٤ .

( البقرة ١٩٤ ) ، « وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا » ( النساء ٧٥ ) ، « فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً » ( النساء ٨٤ ) ، « فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ » ( النساء ٩١ ) .

ثم كان الأمر بقتال المشركين كافة اعتدوا مجددا أو لم يعتدوا ، إذ كان ظلمهم للمسلمين وإخراجهم لهم من ديارهم يمثل اعتداءا مستمرا ، فليس لهؤلاء إلا قتالهم ردا على هذا الظلم والاعتداء إلا إن كانوا بمكة عند المسجد الحرام ، فهم مأمورون بإخراجهم من حوله إلا إذا قاتلوا المسلمين عنده فلهم مقاتلتهم ، قال تعالى : « وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ » ( البقرة ١٩١ ) ، فإنه أمر بقتال المشركين وقتلهم إذا ظفر بهم المسلمون ، من قاتل المسلمين منهم ومن لم يقاتل إلا من كان منهم بمكة فهم مأمورون بإخراجهم إذا تمكنوا من ذلك إذ كانوا منهيين عن القتال فيها عند المسجد الحرام إلا أن يقاتلوهم فيه ، وهو معنى قوله تعالى : « وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ » ( البقرة ١٩١ ) ، وقد جاء ذلك الأمر العام بقتال المشركين بعد انتصار

المسلمين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف[1] فى آخر سور القرآن الكريم نزولا ، قال تعالى : « وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » ( التوبة ١٢ - ١٣ ) ، « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ » ( التوبة ٣٦ ) .

ويجمل ابن القيم أحكام القتال وتدرج تشريعه بقوله : إن الله لم يأذن للمسلمين بمكة فى القتال ولا كانت لهم به شوكة يمكنون بها من القتال ، ثم فرض عليهم بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم ، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة ، وكان محرما ثم مأذونا به ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ثم مأمورا به لجميع المشركين إما فرض عين على أحد القولين أو فرض كفاية على المشهور[2] ، فإن كان الإسلام ظاهرا والعدو خارج البلاد فالقتال فرض على الكفاية بأن ينهض للقتال قوم يكفون فى قتال العدو ممن أعدوا أنفسهم لهذا الواجب كالجند وغيرهم ممن يعاونونهم حماية لثغور المسلمين وبلادهم[3] ، وقيام هؤلاء بتحقيق الواجب مسقط لوجوبه على باقى المسلمين .

---

(١) أحكام القرآن - الرازى الجصاص ١ / ٢٥٧ - ٢٦١ .

(٢) زاد المعاد ٢ / ٥٨ .

(٣) أحكام القرآن - ابن العربى ١ / ١٤٦ .

وهذا هو المتفق مع طبائع الأشياء فليس من المعقول ولا من الضرورى أن يشترك جميع المكلفين من المسلمين من رجال ونساء وفتيان وشيوخ فى الجهاد كما هو الأمر فى الصلاة والصيام .

غير أن هذا لا يفهم منه أن قوة فرض الجهاد أخف من قوة فرض الأركان الأخرى فضلا عن خطر أثره فى حياة المسلمين العامة الذى يفوق أثر الأركان الأخرى فى هذه الحياة ، وكل ما هناك أنه ركن جماعى وليس ركنا شخصيا ، فإذا دعت الحاجة إليه لغاياته المقررة وفى حدوده المعينة وجب على المسلمين المكلفين من رجال ونساء وفتيان وشيوخ أن يقوموا بواجبه بالقدر الذى يكفى لتحقيق تلك الغايات سعة وضيقا ، وكل حسب ما يستطيع على اختلاف وجوه الاستطاعة ، فإذا قصروا وقع المسلمون جميعهم - أو المقصرون المتقاعسون منهم - فى إثم عدم القيام بفرض خطير من فروض الدين وأركانه فضلا عما لتقصيرهم من آثار خطيرة فى حياتهم [(١)] .

فأما إن كان العدو ظاهرا كان القتال فرضا على الأعيان كفرض الصلاة لا يغنى القيام به من أحد عن غيره حتى يكشف الله تعالى ما بالمسلمين ، وهذا هو الصحيح لما روى عن مجاشع قال : أتيت النبى ﷺ أنا وأخى فقلت : بايعنى على الهجرة . فقال : مضت الهجرة لأهلها . قلت : علام تبايعنا ؟ قال على الإسلام والجهاد [(٢)] » ، وروى ابن عباس أن النبى ﷺ

---

(١) الدستور القرآنى - دروزة ١ / ٤٣٣ .

(٢) متفق عليه عن مجاشع ، راجع : فتح البارى - كتاب الجهاد - باب البيعة على الحرب ٦ / ١١٧ .

قـال : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا[1] » .

ووجوب الجهاد حينئذ على القادرين عليه لا يمنع منه مانع ، ولا يجوز التأخر عنه إذا دعت دواعيه حتى ولو لم يكن مع المقاتل أحد ، فلا يصح أن يكون انفراده مـانعـا له من القيـام بهـذا الواجب وقـد قـال الله فى حق من تقاعسوا عن النفرة للجهاد ، وثبطوا عن لقاء العدو : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ . إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » ( التـوبة ٣٨ - ٣٩ ) ، « فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً » ( النساء ٨٣ ) .

**ومن الحالات التى يتعين فيها فرض القتال :**

أ ) حالة النفير العام عند ما يأمر ولى أمر المسلمين بذلك لمواجهة هجوم الأعداء على المسلمين فإذا دخلوا البلاد وجب على كل قادر أن يخرج سـواء فى ذلك الذكـر والأنثى ، قـال تعـالى : « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » ( التوبة ٤١ ) .

---

(١) متفق عليه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، راجع : فتح البارى - كتاب الجهاد - باب فضل الجهاد والسير ٦ / ٣ .

ب ) إذا دخل العدو بلدا من بلاد المسلمين فيتعين على أهل البلاد قتاله وطرده منها ، ويلزم المسلمين أن يهبوا لنصرة ذلك البلد إذا عجز أهله عن إخراج العدو ، فالوجوب يبدأ بالأقرب فالأقرب فإذا عجزوا وخيف عليهم لزم من يليهم ، قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ[1] » ( التوبة ١٢٣ ) .

جـ ) إذا التقى الزحفان وتقابل الجيشان والتحم المقاتلون ففي هذا الحال يتعين على كل مسلم وقف بالصف أن يثبت ولا يفر ، فإن فعل ذلك وولى دبره للعدو ولغير خدعة حربية فقد ارتكب كبيرة موبقة[2] والتولى يوم الزحف هو المذكور فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » ( الأنفال ١٥ - ١٦ ) .

وما عدا هذه الحالات الثلاث فالقتال فرض كفاية كما ذكرنا من قبل ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ

---

(١) انظر : ص ١٢٦ من هذا الكتاب .

(٢) أخرج الشيخان عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » راجع : فتح البارى - كتاب الوصايا ٥ / ٣٩٣ .

وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » ( التوبة ١٢٢ ) ، وقوله تعالى : « لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً » ( النساء ٩٥ ) .

ووجه الدلالة هنا أن القاعدين لا إثم عليهم بسبب تخلفهم عن القتال وعدم اشتراكهم فيه ، بل إن الله وعدهم الحسنى كما وعد المجاهدين سواء بسواء ، ومن ذلك ما علم قطعا أنه ﷺ كان يبعث بالجيوش ويسيرها للغزو وهو موجود بالمدينة ، فلو كان فرضا على الجميع ما تخلف عن القتال أبدا ، وإذا ما خرج هو للقتال أخذ معه بعض المسلمين وترك باقيهم ، فدلت هذه الأدلة على أن القتال إنما يكون فرضا على الكفاية فى أكثر الأحوال دون ما ذكرناه من قبل .

وذهب قوم إلى أن الجهاد فرض عين على المسلمين فى كل الأحوال ، واستند إلى عموم النصوص فى قوله تعالى : « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً » ( التوبة ٤١ ) ، وقوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » ( البقرة ٢١٦ ) ، وقوله تعالى : « إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً » ( التوبة ٣٩ ) ، ونحو ذلك مما يدل بعمومه على الوجوب العينى على كل المسلمين .

وقد أجيب عن هذا كله بأنه كان فى أول الإسلام ثم نسخ بقوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ[1] » ( التوبة ١٢٢ ) ، ثم إن من حكمة الله تبارك وتعالى أنه لم يجعله فرضا دائما لئلا يشتغل المسلمون به جميعا فتتعطل المصالح كلها فالمقصود إذن كسر شوكة الكفار وإعزاز الدين ونصرته ليأمن المسلمون ويتمكنوا من القيام بمصالح دينهم ودنياهم ، ولو جعل فرضا فى كل وقت عاد على موضوعه بالنقض .

وقد حقق ابن القيم القول وفصله فى ذلك فقال : إن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب وإما باللسان وإما بالمال وإما باليد ، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع ، أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية ، وأما الجهاد بالمال فالصحيح وجوبه لأن الأمر بالجهاد به وبالنفس فى القرآن الكريم سواء كما فى قوله : « انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ » ( التوبة ٤١ ) ، وعلق النجاة من النار ومغفرة الذنب ودخول الجنة عليهما فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ[2] » ( الصف ١٠ - ١١ ) .

(١) راجع : المغنى - ابن قدامة المقدسى ٨ / ٣٤٥ - ٣٤٧ .

(٢) راجع : زاد المعاد - ابن القيم ٢ / ٥٨ - ٥٩ .

فالإسلام إذ يفرض الجهاد على المسلمين ويجعل الأمة كلها مشاركة فى هذا الواجب إنما ليمكن لها ولدينها فى الأرض وليضمن لها سلامتها وأمنها وعزتها فلا تستسلم لعدوان ولا تبيت على ضيم ، وإذ كان الإسلام هو رأس الأمر وعموده الصلاة فإن ذروة سنام الأمر الجهاد ، إنه السياج الذى يحمى أركان الإسلام ويمكن المسلمين منها ، ولولا الدفع بالجهاد ما قامت للإسلام دولة ، ولا استحقت تلك الأمة ما وصفت به من أنها « خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ( آل عمران ١١٠ ) ، وما استقامت لهم حياة ولاحف بهم الأمن والسلام ، وإنه ما كانت الحرب مشروعة فى الإسلام ولا كان الجهاد فرضا على المسلمين إلا ردا لعدوان أو دفعا لبغى أو نصرة لمظلوم أو تأمينا للدعوة وحرصا على توكيد الإيمان وتثبيته على هذه الأرض لمصلحة البشرية ، كل ذلك فى إطار الحدود الإنسانية التى لا تظلم ولا تجور ، ولا تتجاوز هذه الغايات أبدا ، فإذا ما جنح المعتدى للسلم ففرض على المؤمن أن يجنح له بلا مكابرة ولا عناد ولا تفريط ، وبلا ضعف أو خوف ، وإذا ما سكن العدو وكف عن بغيه ، وانتهت بهم الحرب إلى إطفاء نار الفتنة التى يثيرونها فى وجوه المؤمنين فلا حرب ولا قتال وإنما سلام وأمان .

وإذ كان الجهاد يشق على النفس لأسباب غريزية أشار إليها قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » ( البقرة ٢١٦ ) ، فهو فى سبيل الله عبادة وفريضة غير موقوتة بزمن لإقرار الإيمان بالله وحده ، ولولا الجهاد لطغت الفتنة المادية على الخصائص الإنسانية ولعادت البشرية فوضى يحكمها منطق الغاب وحصولها على ما تريد بالمخلب والناب ،

وعلى ذلك فالمسلمون لا يدخلون حرباً شهوة للقتال بل يدخلونها مضطرين وليس لهم بد من دخولها ابتلاء واختبارا لهم من الله وحماية للحرمات والحياة من الباغين المعتدين عليها ، أو كما قال الله تعالى هنا : « وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ » ( محمد ٤ ) .

وليس من شك أن الله قادر على إعلاء كلمة دينه ونصرة عباده المؤمنين على غيرهم دون تعريضهم لهذا الامتحان القاسي والابتلاء الشديد الذى لا يقوى على احتماله والصمود له إلا أولو العزم من الرجال ، ولكنه فرض الجهاد عليهم ابتلاء لينهضوا بدينهم ويعزوا أنفسهم بعزته ، وليتميز الطيب من الخبيث ، والكريم من الشحيح ، والمخلص من المنافق ، حتى يقوم مجتمع المؤمنين بعد هذا التميز والتمحيص على أقوى الدعائم وأرسخها قال تعالى: « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ » ( محمد ٣١ ) .

فميدان الجهاد هو الميدان الحقيقى لاختبار إيمان المقاتل وعزوفه عن الدنيا ومجاهدة النفس بإيثار التضحية والاستشهاد على هوان الدنيا والآخرة ، والمهم عند المسلمين ليس الغلبة أو النصرة ، فالنصر من عند الله شرط الاستعداد له وتوفر إرادة القتال والصبر عليه ، والهزيمة من عند الله لمخالفة أوامره ونواهيه ، بل المهم أن لا يضعف المجاهد ولا يستكين « إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » ( آل عمران ١٤٠ - ١٤٢ ) .

وأمارة المؤمن فى المعركة مهما تكن نتائجها أن لا يستخذى ولا يهون ، فإن تك هزيمة فهى موضع عبرة تقوده إلى اعتدال المسيرة من جديد ، وإن يك نصر فلا علو ولا إسراف ولا استكبار ، ولولا النكبات فى تاريخ الأمم ما اتضح الفرق بين الصبر حقا والصبر كرها ، والمحن هى محك الأفراد والأمم على السواء فتواجهها بالإرادة والتصميم والاتعاظ بما وقع من خلل أو تفريط أو انحراف ، والنصر هو حق القوى فى إيمانه بما يقاتل من أجله والاستعداد له بالعلم والتنظيم ، والعاقبة للمتقين مهما عدت العوادى وطال الزمن وعلا غرور الأعداء[1] .

وفى هذا الابتلاء بالجهاد الذى دارت عليه أهداف القتال وغاياته ونوه به فى قوله تعالى : « وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ » ( محمد ٤ ) استجاشة لما فى نفس المؤمن من طاقات واتجاهات ، واستثارة لما فيه من محامد ومكارم ، « فليس أكرم فى النفس من أن يعز عليها الحق الذى تؤمن به حتى تجاهد فى سبيله فتقتل وتقتل ، ولا تسلم فى هذا الحق الذى تعيش له وبه ، ولا تستطيع الحياة بدونه ، ولا تحب هذه الحياة فى غير ظله .

« وإن الله يريد ليربى المؤمنين فيخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة فى أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه ، ويظل يقوى فى نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص حتى يعرضوا عن رغائبهم ويلبوا دعوة الله للجهاد ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت ، وأنها تربت فعرفت وأنها لا تندفع بلا وعى ولكنها تقدر وتختار .

---

(١) انظر : الله أو الدمار ص ١٦٨ .

« وإنه يريد ليصلحهم ففى معاناة الجهاد فى سبيل الله والتعرض للموت فى كل جولة ما يعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف الذى يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازينهم وقيمهم ليتقوه ، وهو هين هين عند من يعتاد ملاقاته سواء سلم منه أو لاقاه ، وفى التوجه به فى كل مرة لله ما تعود به القلوب والأرواح فى صياغة جديدة على صفاء ونقاء وصلاح .

« ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم الحسنى لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب ، وتيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم السوأى ليكسبوا ما يستحقون عليه غضبه وعذابه[1] » .

**٧ - مبادئ وقواعد فى الجهاد الإسلامى :**

ودستور الجهاد وأطرافه المتشابكة أوسع من أن تتناول على ما ينبغى لها فى مثل هذا المقام كما لا يخفى على المطلعين على مفرداته الكثيرة فى آيات الكتاب الكريم وسنة الرسول ﷺ ، وباب الجهاد من أوسع أبواب الإسلام فى آيات الكتاب التى تدور عليها حياة المسلمين فى جميع جوانبها كما كانت عليه حياة الرسول ﷺ وقدوته للمسلمين فى هذه الحياة من الجهاد والابتلاء ، ونجتزئ هنا ما نذكر به من أهم هذه القواعد والمبادئ سواء أكانت إجرائية تنظيمية أو عقدية إيمانية .

**اولا : القواعد الإجرائية :**

* إن الجهاد فى الإسلام فرض على القادرين ، وفرضيته تتناول الجهاد بالمال والنفس معا ، وإذا كفى أن يقوم به بعض المسلمين فلا بأس ، وإذا دعت الحاجة إليه فتقاعس عنه المسلمون ، أو لم يكف أن يقوم به من

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن - سيد قطب ٦ / ٣٢٨٦ .

قام به منهم أثم القاعدون ، ولا يؤاخذ الله العاجزين بدنا ومالا ، ويتسامح مع أصحاب الأعذار المعقولة مع قيامهم بالأعمال المفيدة لمصلحة المسلمين فى ظروف الجهاد خاصة .

* استهدف الجهاد غايات عدة منها : دفع الظلم والبغى والاضطهاد عن المسلمين وتأمين حرية الدعوة حتى لا تكون فتنة فى الدين ، وابتلاء المسلمين وتمحيصهم لتمييز المؤمن الحق من غيره .

* إن الخيانة والغدر ونكث العهد وفتنة المسلمين عن دينهم والصد عن سبيل الله والطعن فى الدين ومظاهره أعداء المسلمين عليهم والكيد لهم - كل ذلك من موجبات الجهاد ، ولا قتال ضد المسالمين والحياديين والكافين أيديهم وألسنتهم .

* ليس الجهاد لإجبار الناس على الإسلام ؛ لأن الدعوة إليه قامت على الحكمة والموعظة الحسنة ، وعدم الإكراه فى الدين ، وليست الغنائم هدفا من أهدافه ولا يجوز أن تجعل كذلك بل يجب قبول جنوح الأعداء إلى السلم والخضوع أو إظهارهم الإسلام والتوبة مع أمن خيانتهم وغدرهم .

* يقوم الجهاد بدعوة أولى الأمر فى البلاد التى استقر بها سلطان المسلمين حين يرون ذلك ضروريا وملائما ، أما البلاد التى لا سلطان للمسلمين فيها وتسلط عليها غيرهم فالجهاد واجب على الجميع دون دعوة من أولى الأمر فيها ، حيث يتقدم أولو العزم ويدعون المسلمين إلى الجهاد أفرادا وجماعات لإرغام الظالمين وتقويض سلطانهم .

* على المتمتعين بالأمن والسلطان من المسلمين ألا يتوانوا فى الجهاد لنصرة وإنقاذ من يقع من إخوانهم تحت تسلط الأعداء وبغيهم وظلمهم .

* من واجب المسلمين قبل القتال بذل الجهد فى النصيحة والدعوة إلى الكف عن البغى والظلم والأذى والغدر ، فإذا لم تفد النصيحة وجب الجهاد .

* ليس القتال للإبادة ، وإنما لإثخان العدو وكسر شوكته وكفه عن بغيه ، ولذا ينبغى ترك الباب مفتوحا دائما لمن ينتهى عن موقفه الباغى ويجنح إلى السلم والإسلام ، أو يلقى السلاح ويعلن خضوعه .

* إذا انعقد صلح بين المسلمين وأعدائهم فعلى المسلمين الوفاء لمن استقاموا على عهدهم وليس لهم أن يقاتلوا إلا الناكثين منهم ، وإذا استشعروا نية الخيانة من بعضهم فعليهم أن يعلنوهم بذلك ليكونوا وإياهم فى موقف متساو ولا يباغتوهم مباغتة .

* ليس الجهاد هو الحرب فقط ، فإعداد القوة والمرابطة لإرهاب العدو وعمل كل ما يمكن فى سبيل دفع أذاه وحفظ هيبة المسلمين وحريتهم والإنفاق فى هذا السبيل هو من الجهاد .

* إن أمر الأسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين بعد كسر شوكتهم منوط بما يراه أولو الأمر من المصلحة للمسلمين بالتسريح منا بدون فداء أو بفداء .

* ليس لسائر الناس وعامتهم التدخل فى سياسة الجهاد العليا أو تناولها بالجدل والإذاعة بل عليهم الطاعة لأولى الأمر فيما يصدرونه من أوامر ويرونه من تدابير ، كما يجب اجتناب النزاع والخلاف وخاصة فى ظروف الجهاد .

* إذا رغب العدو أو بعض أفراده فى استماع كلام الله ومعرفة شروط السلم أو الإسلام وطلب الأمان فعلى أولى الأمر منحه ما طلب وعليهم حمايته إلى أن يعود إلى مأمنه .

* للمسلمين اغتنام كل فرصة لقهر أعدائهم وقتالهم وألا يتحرجوا من مقابلتهم بالمثل عملا وظرفا ، وعليهم ألا يهنوا فى طلبهم والاستعداد لهم والحذر منهم والاحتفاظ بنظامهم وقواهم المعنوية مهما طرأ عليهم من طوارئ أو دارت عليهم الدائرة فى بعض المواقف .

* لأولى الأمر تنظيم طريقة النفر والتعبئة العامة للجهاد بالنفس والمال على الوجه الذى يرونه صالحا وكفيلا بالمقصد .

* لأولى الأمر أن يفرغوا فريقا للجهاد والمرابطة بصورة دائمة ، كما أن لجماعات المسلمين أن يفعلوا ذلك حين تقضى المصلحة ، وعليهم أن يكفلوا لهم نفقاتهم ويكفوهم مؤونة التكسب .

**ثانيا : المبادئ الإيمانية الجهادية :**

* إن المسلم بإسلامه قد عقد عقدا مع الله باع فيه نفسه للجهاد فى سبيله بالمال والنفس واشترى الله منه ذلك بالجنة .

* الثقة فى نصر الله والاعتقاد الجازم أن الله قد كتب على نفسه نصرة المؤمنين وأنه ناصر من ينصره حقا .

* الاطمئنان إلى فوز المجاهدين وفلاحهم على كل حال ، فإن بقوا أحياء فلهم حسنى الجهاد وثوابه وكرامته ، وإن قتلوا كانت لهم حسنى الشهادة ، وإن كتب للمسلمين النصر كان الفتح والنصر والعزة لهم بالإضافة إلى إحدى الحسنيين ، وإن لم يكتب لهم النصر كان ابتلاء واختبارا يثاب الصابرون عليهما .

* اعتقاد المؤمن أن إيمانه وصدقه تحت الاختبار وأن الله قد يبتليه بالخوف والجوع والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات فى سبيل الله ،

وعليه مقابلة ذلك بالصبر والتسليم ، وأن لا يضعف فى طلب العدو أو يهن فى جهاده ، وأنه لا يصيبه ظمأ ولا نصب ولايطأ موطئا جهاديا ولا ينفق نفقة كبيرة ولا صغيرة إلا كتبها الله له وأثابه عليها بأحسن الثواب .

* اعتقاد المؤمن أن شهداء الجهاد أحياء عند ربهم مكرمون كل التكريم ومتمتعون بكل أسباب النعيم ، وأن الأجل لا يتقدم لحظة أو يتأخر عما هو مقرر فى علم الله وحين يدرك الإنسان أجله يموت لا يقدمه جهاد ولا يؤخره تجنبه .

* من صدق إيمان المسلم أن يكون الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إليه من كل شئ حتى من أبيه وابنه وأخيه وزوجته وعشيرته وماله وتجارته .

* المسارعة إلى تلبية داعى الجهاد بالمال والنفس فى أوقات الشدة والحرج أعظم درجة ممن يجاهد فى أوقات السعة وتباشير النصر .

* التقصير فى واجب الجهاد والاستعداد والمرابطة عدا أنه إخلال بواجب دينى مستوجب لغضب الله فهو مؤد إلى التهلكة والذل واختلال نظام المسلمين ومبرر لمؤاخذة أولى الأمر للمقصرين وتأديبهم .

* التثبيط والتعويق والتقاعس عن الجهاد ، والسعى فى الفتنة والفساد فى ظروف الجهاد والفرار عند اللقاء لغير غاية حربية فوق أنها جرائم دينية تستوجب غضب الله وسخطه فهى جرائم سياسية تعرض صاحبها للتأديب والتنكيل(١) .

(١) راجع : فى هذه المبادئ وغيرها : الدستور القرآنى - دروزة ١ / ٤٨١ - ٤٨٦ .

## المقطع الثالث

### سنة الله فى نصرة المؤمنين وتدمير الكافرين

قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ٨ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ٩ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ١٠ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ١١ » .

**التحليل اللغوى والقراءات :**

**تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ** : من النصر والاسم النصرة ، وهو على وجوه عدة أظهرها المنع والعون فوجه المنع كما فى قوله تعالى : « **هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ** » ( الشعراء ٩٣ ) يعنى هل يمنعونكم من العذاب أو يمتنعون ، ووجه العون كما فى قوله تعالى : « **وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ** » ( الحج ٤٠ ) يعنى وليعينن الله من يعينه ، وهذه ظاهرة فى حديث رسول الله ﷺ : « انصر آخاك ظالما أو مظلوما[١] » يعنى أن يمنعه من الظلم إن وجده ظالما وإن كان مظلوما أعانه ونصره على ظالمه ، وقد نصره ينصره نصرا إذا أعانه على عدوه وشد منه[٢] وهو المعنى المراد .

(١) أخرجه البخارى عن أنس فى كتابه المظالم والإكراه ، وتكملته قالوا يا رسول الله : هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره ، راجع : فتح البارى ٥ / ٩٨ ، ١٢ / ٣٢٣ .

(٢) راجع : لسان العرب مادة : نصر ٦ / ٤٤٣٩ .

ومن وجوه النصر الظفر كما في قوله تعالى : « وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » ( آل عمران ١٢٦ ) ، يعنى الظفر ، ومنها الانتقام كما فى قوله تعالى : « ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ » ( محمد ٤ ) يعنى لانتقم منهم[١] ، ولنصرة المؤمنين لله ونصرة الله للمؤمنين جزاء لذلك معان عدة تأتى فى التفسير والبيان .

يُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ : بالتشديد قراءة العامة ، وهو من التثبيت أى التقوية والتمكين ، تقول : فلان ثابت القدم من رجال ثبت ، وثابت الجنان إذا لم يزل فى خصام أو قتال[٢] ، ومنه قول الله تعالى : « يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ » ( إبراهيم ٢٧ ) يقويهم بالحجج القوية[٣] ومنه قوله تعالى : « وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » ( هود ١٢٠ ) ، فتثبيت الفؤاد تسكين القلب وتطمينه[٤] .

---

(١) وفى المجاز : النصر المطر والماء تقول : مدت الوادى التواصر أى مسايل الماء ، ونصر الله الأرض أمطرها ، والنصر الصدقة والعطاء للسائلين كقول أحدهم : انصرونى ينصركم الله ، أى اعطونى ، راجع : الأشباه والنظائر - مقاتل ص ٢٣٩ - ٢٤١ ، أساس البلاغة - الزمخشرى ص ٤٥٩ ، وأنظر ص ٧٠ من هذا الكتاب .

(٢) أساس البلاغة ص ٤٢ .

(٣) المفردات - الراغب ص ١٠٥ .

(٤) لسان العرب مادة : ثبت ١ / ٤٦٧ .

وأما قراءة المفضل عن عاصم يثبت مخففا فقريب من الأول ؛ لأنه من الإثبات فى المكان وعدم مفارقته كقول المشركين عن النبى ﷺ : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق[1] ، وفى حديث أبى قتادة عام الحديبية حين رأى صيدا وحشيا قال : فحملت عليه فطعنته فأثبته[2] » أى حبسته وجعلته ثابتا فى مكانه لايفارقه ، ومنه قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ .. » ( الأنفال ٣٠ ) أى يجرحوك جراحة لا تقوم معها[3] ، وتثبيت الأقدام هنا تمكينها وعدم زللها أو تعثرها وتعضيد أصحابها وتقويتهم لتحمل أعباء القتال والنصر ، والفعل مسند لضمير الجلالة على الحقيقة[4] .

**فَتَعْسًا لَهُمْ** : أصل التعس الانحطاط والعثر والسقوط على الوجه ، وضده النهوض والانتعاش والقيام من سقوط ، وهو دعاء على صاحبه بالهلاك ويقابله النكس وهو السقوط على الرأس من خلف ، وكثر فى الدعاء

---

(١) راجع : الفتح الربانى ٢٠ / ٢٧٧ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الحج باب تحريم الصيد للمحرم ، انظر الصحيح بشرح النووى ٨ / ١٠٨ .

(٣) لسان العرب مادة : ثبت ١ / ٤٦٧ .

(٤) أسند فعل التثبيت فى موضع آخر إلى الملائكة كقوله تعالى : « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا » ( الأنفال ١٢ ) ، ولا خلاف بينهما فهم واسطة وسبب ، ولا فاعل فى الحقيقة إلا الله ، ومثله « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى » ( الأنفال ١٧ ) راجع : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٣٢ .

على العاثر والهالك تعسا له[1] ، وفعله تعس بالفتح وقد يكسر ، ومنه الحديث « تعس عبد الدينار والدرهم[2] » .

وفى المراد بالكلمة أقوال كثيرة[3] مأثورة ترجع كلها إلى الدعاء عليهم بالهلاك ، وقد كان لهم فى الدنيا بالقتل ويكون فى الآخرة بالتردى فى النار كما روى عن ابن عباس[4] ، وما ألطف ذكر ذلك فى حقهم بعد ذكر تثبيت الأقدام فى حق المؤمنين ، والكلمة منصوبة على المصدر بفعل من لفظها واجب الحذف لأنه للدعاء مثل سقيا له ورعيا ، ودخلت عليه الفاء تشبيها للمبتدأ بالشرط ، والجملة « فَتَعْساً لَهُمْ » خبر « الَّذِينَ كَفَرُوا » .

**كَرِهُوا** : كره الشئ سخطه ولم يحبه لعدم موافقته طبعه أو لثقله ومشقته عليه[5] ، وقد كره هؤلاء ما أنزل الله لما فيه من التكاليف الشاقة عليهم وإلزامهم بترك ملذاتهم ولهوهم ، وقد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان للنفس والهوى .

**مَا أَنْزَلَ اللَّهُ** : الموصول المكروه لهم هل هو القرآن الكريم المنزل على الرسول ﷺ ، أو الكتب والشرائع المنزلة على رسله عليهم السلام

---

(١) لسان العرب مادة : تعس ١ / ٤٣٣ .

(٢) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب الجهاد ، راجع : فتح البارى ٦ / ٨١ .

(٣) بلغت هذه الأقوال عشرا فى تعداد القرطبى ، راجع : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٣٢ .

(٤) راجع : روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٤٤ .

(٥) راجع : أساس البلاغة ص ٣٩١ ، المعجم الوسيط ٢ / ٧٨٥ .

عامة ، أو بيان التوحيد ؟ أقوال للعلماء ، ولكل وجه[1] ، والظاهر عموم ذلك كله ، لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء[2] .

**أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** : أبطلها الله ، وأصل الحبط أن تأكل الماشية من مرعى سام فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها فتهلك وتموت[3] ، وفي الحديث : إنه كلُّ ما ينبتُ الربيع ما يَقْتُلُ حَبَطا[4] » ، والحبط والإحباط هنا من المجاز ، تقول : حبط عمله حبوطا وحبطا ، وأحبط الله عمله أفسده وأبطله ، وتقول : إن عمل عملا صالحا أتبعه ما يحبطه ، وإن أصعد كلما طيبا أرسل خلفه ما يهبطه[5] .

---

(١) فوجه القول بالقرآن أن كيفية العمل الصالح إنما تدرك بالشرع والقرآن ، فلما أعرضوا عنه لم يعرفوا ذلك فحبطت أعمالهم ، ووجه ما أنزل على الرسل احتواؤها جميعا على أصول العقائد والدين الصحيح ، ووجه بيان التوحيد أن الشرك محبط للعمل لأنه لا بقاء له في نفسه كما لا بقاء لمن عمل له من دون الله ، قال تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » (الزمر ٦٥ ) وقال تعالى عنهم : « وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » ( الزمر ٤٥ ) . راجع : التفسير الكبير ٧ / ٥١٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٣٣ ، وفتح القدير ٥ / ٣٢ .

(٢) راجع : روح المعاني ٢٦ / ٤٥ .

(٣) لسان العرب ، مادة : حبط ٢ / ٧٥٥ ، المفردات ص ١٥٣ .

(٤) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري راجع : فتح الباري كتاب الجهاد ٦ / ٤٩ ، صيح مسلم بشرح النووي كتاب الزكاة ٧ / ١٤١ .

(٥) راجع : أساس البلاغة ص ٧٢ .

**يَسِيرُوا** : من السير ، وهو الذهاب والمضى فى الأرض ليلا أو نهارا ، تقول : سار القوم يسيرون سيرا ومسيرا إذا امتد بهم السير فى جهة توجهوا إليها[1] ، وقد يراد به الحث على السياحة فى الأرض بأجسامهم أو الحث على إجالة الفكر ومراعاة أحواله كما روى فى الخبر أنه قيل فى وصف الأولياء : أبدانهم فى الأرض سائرة وقلوبهم فى الملكوت جائلة[2] .

**فَيَنْظُرُوا** : من النظر وهو حس العين المعروف بالبصر ، ويقال للبصيرة والإدراك كذلك ، وهل المراد به تأمل الشئ بالعين وإطالة البصر وتحريكه فيه[3] كما جاء فى الحديث : «يا على لا تتبع النظرة النظرة[4] » ، أو المراد به نظر القلب وإطالة التأمل والتفكر فى المنظور للعظة والاعتبار ؟ ، وجهان يرشح لكل منهما إهمال المنظور إليه وخلو الفعل من حرف التعدية ؛ إذ لو عدى بإلى كان من الأول كقوله تعالى : « **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ** » ( الغاشية ١٧ ) ، ولو عدى بفى الظرفية لكان من الثانى كقوله تعالى : « **أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** » ( الأعراف ١٨٥ ) فذلك حث على تأمل حكمته فى خلقها[5] .

---

(١) لسان العرب ، مادة : سير ٣ / ٢١٦٩ ، أما خصوص السير فى الليل فلا يعبر عنه إلا بالسرى ، ومنه الإسراء فى قوله تعالى : « سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا » ( الإسراء ١ ) .

(٢) المفردات - الراغب ص ٢٦٠ .

(٣) لسان العرب مادة : نظر ٦ / ٤٤٦٥ .

(٤) أخرجه أبو داود عن بريدة فى باب ما يؤمر به من غض البصر : سنن أبى داود ٢ / ٢٤٦ .

(٥) المفردات ص ٧٥٨ .

هذا واستعمال النظر فى البصر والرؤية أكثر عند العامة ، وفى البصيرة والإدراك أكثر عند الخاصة[1] .

**كَيْفَ** : لفظ استفهام يسأل به عن الحال تقول: كيف أنت ؟ أى بأى حال أنت ؟، وهو منبئ عن التغير فى حال المسؤول عنه ؛ ولهذا لا يصح أن يقال فى الله عز وجل : كيف ، وكل ما أخبر الله تعالى بلفظة كيف عن نفسه فهو استخبار على طريق التنبيه للمخاطب أو التوبيخ والتعجب مثل قوله تعالى : « **كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ** » ( آل عمران ٨٦ ) ، وقوله تعالى : « **أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ** » ( العنكبوت ١٩ )[2] .

**عَاقِبَةٌ** : العاقبة لكل شئ آخره ، ومثلها العقبى ، وتستخدم فى جزاء الإنسان ، وتختص العقبى بالثواب مثل قوله تعالى : « **هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً** » ( الكهف ٤٤) ، « **أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** » ( الرعد ٢٢ ) ، وكذلك العاقبة تختص بالثواب عند إطلاقها كقوله تعالى : « **وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** » ( القصص ٨٣ ) ، وبالإضافة قد تستعمل

---

(١) وفى غير هذين المعنيين الأساسين يستعمل النظر فى الانتظار كما فى قوله تعالى : « فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ » ( النمل ٣٥ ) ، « وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً » ( ص ١٥ ) ، كما يستعمل فى التحير فى الأمور والدهشة كقوله تعالى : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ » ( الأعراف ١٩٨ ) ، « وَمِنْهُم مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لاَ يُبْصِرُونَ » ( يونس ٤٣ ) . راجع المفردات ص ٧٥٩ .

(٢) المفردات ص ٦٦٧ ، تأويل مشكل القرآن - ابن قتيبة ص ٥٢٠ .

في العقوبة والنهاية المؤلمة غير الحميدة نحو قوله : « ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى » ( الروم ١٠ ) ، وكما معنا من قوله : « كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ »[١] ( محمد ١٠ ) .

**دَمَّرَ** : من التدمير وهو إهلاك الشئ مع استئصاله ، قال تعالى عن فرعون وقومه : « فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً » ( الفرقان ٣٦ ) ، والفعل هنا معدى بحرف الاستعلاء « على » قال العلماء : وهما بمعنى واحد « دَمَّرَهُمْ » و « دَمَّرَ عَلَيْهِمْ[٢] » ، والأصح أن بينهما فرقا واضحا ، فالثانى أبلغ من الأول ، وجاء ذلك من حذف المعمول ، وجعله نسيا منسيا[٣] ، والاتيان بكلمة الاستعلاء ، وهى لتضمين التدمير معنى الإيقاع أو الهجوم أو نحوه[٤] .

**أَمْثَالُهَا** : أشباهها ، جمع لمثل بكسر فسكون بمعنى شبيه ، والمتضايفان مبتدأ مؤخر للخبر المقدم شبه الجملة ، وهو قوله : « وَلِلْكَافِرِينَ » ، والضمير الغائب الشبيه عائد إما إلى المذكور وهو العاقبة ، أو إلى المفهوم

---

(١) المفردات ص ٥٠٩ .

(٢) راجع : لسان العرب ، مادة : دمر ٢ / ١٤٢٠ ، أساس البلاغة ص ١٣٥ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٣٤ .

(٣) فسر المفسرون هذا المعمول المحذوف قصدا بأنه ما يختص بهم من الأموال والأهل والأنفس وغير ذلك من متاع الدنيا ، انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥١٢ ، روح المعانى ٢٦ / ٤٥ .

(٤) انظر : روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٤٥ .

وهو عقوبة التدمير ، والكافرون الذين لهم أمثال هذه العقوبة إما الكافرون بمحمد ﷺ والمكذبون له فتكون عقوبة دنيوية[1] ، وإما أن يكونوا هم الكافرين من الأمم السابقة بوضع لفظ الكافرين الظاهر موضع المضمر فتكون عقوبة أخروية أضعاف ما وقع لهم من التدمير فى الدنيا[2] .

**مَوْلَى** : ولىّ ، والمولى والولىّ واحد ، واللفظ هكذا فى قراءة عبد الله بن مسعود « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ ولِىّ الَّذِينَ آمَنُوا[3] » ، وكلاهما يستعمل فى معنى الفاعل أى الموالى ، وفى معنى المفعول أى الموالَى ، والولىّ والمولى على وجوه عدة فى القرآن الكريم[4] ، أظهرها أنه بمعنى الناصر كما هنا ، وكما فى قوله تعالى : « وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ » ( الحج ٧٨ ) ، « وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ » ( التحريم ٤ ) ، وبمعنى الرب كما فى قوله تعالى : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ » ( الأنعام ٦٢ ) .

---

(١) كما وقع لهم من القتل والأسر بأيدى من كانوا يستخفونهم ويستضعفونهم ، وهى عقوبة من المثل أشد وآلم من الهلاك بسبب عام ، انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥١٢ ، روح المعانى ٢٦ / ٤٥ .

(٢) انظر : روح المعانى - الألوسى ٢٦ / ٤٥ .

(٣) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٢٦ / ٢٣٤ ، فتح القدير ٥ / ٣٢ .

(٤) بلغت هذه الوجوه ، عشرا كما فى عد صاحب الأشباه والنظائر ، وهى عند غيره أكثر من ذلك ، انظر : الأشباه والنظائر - مقاتل بن سليمان ص ١٩٥ - ١٩٨ ، المفردات - الراغب الأصفهانى ٨٣٧ - ٨٣٩ .

وولاية الله للمؤمنين ثابتة فى آى القرآن الكريم منفية عن الكافرين فى هذه الآية ، فإن قيل : قد ثبتت ولاية الله للكافرين فى غيرها ، فكيف يكون ذلك ؟ أجيب بأن النفى والإثبات لم يردا على معنى واحد ، فحيث قال : « لاَ مَوْلَى لَهُمْ » أراد لا ناصر لهم ، وحيث قال : : « مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ » أراد سيدهم وربهم ومالكهم ، كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » ( النساء ١ ) ، وفيهم المؤمن والكافر ، وقوله : « قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ » ( الشعراء ٢٦ )[1] .

**التفسير والبيان :**

انتهى المقطع السابق بتقرير صورة من ثواب المجاهدين ومنزلتهم عند ربهم فى استبقاء أعمالهم الموصولة بالحق والمنبعثة لحمايته ومضاعفة الأجر عليها ، بل برعاية أصحابها وتعهدهم بالعناية وإصلاح الحال والشأن الذى يصونهم ويحفظهم عما يورثهم الضلال والهلاك وبطلان الأعمال كما حدث للكافرين وأعمالهم ، وفى هذا المقطع نوع من تلخيص تلك المفارقة بين أعمال المؤمنين والكافرين ، وإبراز هذا الأمر فى السنة التى لا تتبدل ولا تتخلف شأن السنن الكونية التى يتحتم حدوثها بحدوث سببها وما يؤدى إليها .

وتتوجه الآيات بخطاب المؤمنين تشريفا لهم لتعقد هذه الموازنة بين عملهم وعمل الكافرين فى شكل مشارطة أولا بين الله والمؤمنين ما أن يتحقق طرفها الأول لدى المؤمنين بنصرتهم لله حتى يتحقق طرفها الثانى

---

(١) راجع : التفسير الكبير ٧ / ٥١٣ ، روح المعانى ٢٦ / ٤٥ .

بنصرة الله لهم وتثبيته لأقدامهم[1] ، « وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » ( الروم ٦ ) [2] .

أما الكفار ثانيا فلا ينالون شرف مخاطبتهم ، بل تتحدث عنهم الآيات بضمير الغائبين تحقيرا لهم وإزراء بشأنهم ، ثم لتقرر أنهم هالكون في الدنيا والآخرة لا محالة ؛ إذ إن آلهتهم الباطلة لا تدفع عنهم ما يهلكهم أو يؤذيهم ويضرهم ، فإن هم قاتلوا المؤمنين قتلوا بأيديهم ، وكان مصيرهم إلى النار لا يتحولون عنها ولا يفيدون من أعمالهم ، وكيف يفيدون منها أو ينتظرون ثوابها وقد كفروا بمن يجازيهم عليها وتوجهوا بها إلى غيره ؟ ، بل إنهم باتوا وأصبحوا وهم مصرون على جهلهم وكفرهم ، ومن ثم فقد طووا قلوبهم على كراهة ما أنزل الله على رسوله ﷺ ومعاداته ، وأغلقوها تماما دون هذا الحق ، ولم يتيحوا لها فرصة للتأمل والاهتداء ، فكانت ثمرة كراهتهم وكفرهم إبطال أعمالهم وإهدارها وعدم اعتبارها بالكلية .

---

(١) لا يخفى ما في ذلك الوعد المشروط من التحريض والحث على الجهاد بعد بيانه في الآية السابقة ما على القتال في سبيل الله من الأجر والثواب ليزداد من المسلمين الإقبال والإقدام . انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥١١ .

(٢) في معنى هذه المشارطة كثير من آيات القرآن الكريم المؤكدة لهذه السنة منها قوله تعالى : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » ( الحج ٤٠ ) ، « فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » ( الروم ٤٧ ) ، « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ » ( غافر ٥١ ) ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » ( الصف ١٠ - ١٣ ) .

ثم تمضى الآيات لتقرير هذه السنة من واقع التاريخ القديم عند مصارع الغابرين حيث تقرع الكافرين وهى تلوى أعناقهم لرؤية آثار القوم ممَّن كانوا على شاكلتهم فى الكفر ، وتحثهم على السير فى الأرض والإقلاع عن القعود والعمى للاتعاظ والاعتبار بنهاية هؤلاء ، وكيف أهلكهم الله - مع أهليهم وذويهم - وما يملكون من متاع الدنيا وزخرفها ، ولم يدعهم حتى دمر عليهم كل شئ ، فكانت أسوأ عاقبة وأشنعها فى الدنيا ، وإنهم لتنتظرهم فى الآخرة أضعاف أضعاف هذه النهاية مما هو أسوأ وأبشع منها ، فهلا اعتبر الكافرون من عاقبة إخوانهم وعقوبتهم ؟ وهم فى الكفر مشتركون ، وفى مثل غيهم وضلالهم سادرون ؟ ولقد نال كثير من هؤلاء بعضا من عواقبهم فى الدنيا قتلا وأسرا ، وما ادخر لهم عند الله فى الآخرة أبقى وأعظم .

وليس هناك من تفسير لهذا الأمر الهائل من نصرة الله المؤمنين والتدمير على الكافرين سوى ما قرره الله فى هذه القاعدة الدائمة « **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ** » ( محمد ١١ ) ، فهؤلاء ليس لهم ناصر يعتمدون عليه ويستندون إلى نصرته ويستمدون منه العون والتأييد ولو اتخذوا الإنس والجن كلهم أولياء ، ولو تجمعت لهم كل أسباب القوة والحماية ، فهم فى النهاية عاجزون مضيعون ، ومن لم يكن الله مولاه وناصره فلا مولى له ولا ناصر .

أما المؤمنون فإن الله ناصرهم ومعينهم يدفع عنهم الأذى والضر ، ويهيئ لهم سبل النصر ووسائله ، ثم يثيبهم فى الآخرة على إيمانهم به وحسن عبادتهم له ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه وفيه الكفاية والغناء ،

وما قد يصيبه دون النصر إنما هو إبتلاء وتمحيص وراءه الخير كل الخير وليس تخليا من الله عن ولايته له ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده المؤمنين[1] .

وفي هذه السنة من نصرة الله لعباده المؤمنين وإهلاكه للكافرين بعض القضايا والموضوعات المهمة التي استوقفت المفسرين لاستجلاء هدى القرآن الكريم فيها ولفت انتباه المسلمين إليها .

١ - إنه إذا كان نصر الله لعباده المؤمنين وتثبيته لأقدامهم وعدا منه لا يتخلف في مقابلة إهلاكه وإضلاله لأعدائهم وأعدائه على ما عرفنا في المشارطة السابقة - فكيف يحقق المؤمنون ما اشترطه الله عليهم من نصرتهم له ؟ وبماذا تكون نصرتهم له حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟ .

فأما نصرة المؤمنين لله فجائز أن تكون نصرتهم لدينه ورسوله ﷺ ، إذ هو جل شأنه المعين الناصر ، وغيره المعان المنصور[2] ، وجائز أن تكون نصرتهم لحزب الله وفريقه من إخوانهم المؤمنين[3] ، وجائز أن يكون ميدان النصرة - كما رأى الرازي - هو الجهاد والقتال في سبيل الله حيث يقول : «المؤمن ينصر الله بخروجه إلى القتال وإقدامه والله ينصره بتقويته وتثبيت أقدامه وإرساله الملائكة الحافظين له من خلفه وقدامه[4] » .

---

(١) انظر : في ظلال القرآن - سيد قطب ٦ / ٣٢٩٠ .

(٢) أنظر الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٣٢ ، فتح القدير ٥ / ٣١ ، روح المعاني ٢٦ / ٤٣ .

(٣) راجع : التفسير الكبير - الفخر الرازي ٧ / ٥١١ .

(٤) السابق ٧ / ٥١١ .

وإذ تتجه هذه الأقوال فى مجموعها إلى التخصيص فى ميادين النصرة التى تتسع لها جوانب الدين الإسلامى وحياة المسلمين - فالظاهر أن نصرة الله عامة وشاملة لكل ذلك ؛ إذ إن لله فى نفوس المؤمنين أن تتجرد له ولا تشرك به شيئا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه فى سرها وعلانيتها وحركاتها وسكناتها ونشاطها كله ، فهذا نصر الله فى ذوات نفوسها ، وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة تقوم على قواعد وتصور خاص للوجود كله وللحياة ، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه وتحكيمها فى الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله فى واقع الحياة ، قال الراغب : « ونصرة العبد هى نصرته لعباده ودينه ، والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده والتزام أحكامه واجتناب نواهيه[1] » .

٢ - فى تقرير الله تعالى للمؤمنين بإحدى الحسنيين هنا من النصر إن هم نصروه اشتراط أن يكون ذلك لله وفى سبيل الله تماما كاشتراط ذلك فى استحقاق الحسنى الأخرى من الاستشهاد فى سبيله ، وكما لاجهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون ذلك فى سبيل الله وحده فلا يكون انتصار للمؤمنين إلا إذا كانت نصرتهم لله وحده فى ذوات نفوسهم وفى منهج حياتهم ، وأن تكون كلمة الله هى العليا وشريعته هى الضابطة لأوضاعهم ونظامهم على السواء ومنهج قرآنه هو الحاكم لضمائرهم وأخلاقهم وسلوكهم ، وفى سؤال الصحابة رضوان الله عليهم

(١) راجع : المفردات - الراغب ص ٧٥٤ .

للرسول ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أيّ ذلك في سبيل الله ؟ كانت إجابته ﷺ واضحة وحاسمة : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[1] » .

وهذه لفتة بدهية يحسن أن يدركها المؤمنون المخلصون ، وأن يخلصوها في نفوسهم من كل ما يتعلق بها من شوائب وانحرافات ، وأن لا يخلطوا بكلمة الله كلمات أخر ، أو يلبسوا هدفهم في نصرتهم أهدافاً أخرى ، وإذا عـز على بعض المؤمنين أن يتخلصوا من هذه الأهداف الأرضية ويتجردوا لله فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع هذه البدهية في شرط الله[2] .

٣ - هذا شرط الله على الذين آمنوا ، فأما شرطه لهم أو جزاء ما اشترطه عليهم ووعدهم به فهو نصره لهم إما في الحياة عامة وتثبيتهم على الإسلام وصراطه المستقيم ، وتوفيقهم للدوام على طاعته[3] ، وإما على أعدائهم خاصة وفتحه عليهم وتثبيت أقدامهم عند القتال

---

(١) أخرجه البخاري من رواية أبي موسى الأشعري في كتاب الجهاد ، راجع : فتح الباري ٦ / ٢٧ - ٢٨ .

(٢) انظر : في ظلال القرآن - سيد قطب ٦ / ٣٢٨٨ .

(٣) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٣٢/١٦ ، فتح القدير ٣١/٥ ، روح المعاني ٤٣/٢٦ .

ومعونتهم فى مواطن الحرب ومواقفها ولقاء الأعداء ونزالهم ، وتطمين قلوبهم ، وهو وعد حق على الله كما قال : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » ( الروم ٤٧ ) لا يتخلف ولا يتبدل[1] .

**وها هنا سؤالان مهمان .**

أما أولهما فعن لزوم هذا الشرط من الله على المؤمنين ليرتب نصره لهم على نصرهم له ، وهو صاحب القدرة والقوة التى تتجاوز هذا الشرط ، ففيم إذن الجهد والمشقة والتضحية والآلام والعاقبة جد معروفة ومستيقنة ، ثم هو ولى المؤمنين ومولاهم ولا ناصر لهم سواه ؟ .

وأما ثانيهما فعن هذه اللزومية بين الشرط والجزاء مع أن الواقع كثيرا ما يكشف عن انفكاك هذا التلازم وافتقاد المؤمنين للنصر - فيما يرون - أو إبطائه بهم حتى ليظن أنهم على غير طريق الحق وأنهم ليسوا أهلا لهذه النصرة ؟ .

* فأما عن السؤال الأول ، فمن حكمة الله فى هذه اللزومية - فيما نعقله وندركه نحن البشر منها - أنه لم يرد للمؤمنين وحماة دينه أن يتنزل عليهم نصره سهلا رخيا بلا عناء وهم يجلسون فى استرخاء مكتفين بصلواتهم ودعواتهم ، بل شاءت إرادته أن يكون دفاعه عنهم ونصرته لهم

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن ٦ / ٣٢٨٨ .

عن طريقهم هم أنفسهم[1] كى يتم نضجهم وتستيقظ فيهم كل طاقاتهم المذخورة وهم يواجهون الأخطار ويقتحمون الأهوال ، والأمة الحية النامية البناءة التى تقوم على دعوة الله فى حاجة إلى إيقاظ كل خلاياها وحشد كل قواها وتجميع كل طاقاتها لتتهيأ لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها ، والنصر السريع الذى لا يكلف عناء والذى ينزل هينا لينا على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور فلا يحفزها ولا يستدعيها ، فوق أنه سهل الفقدان والضياع ؛ لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة ، ولأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم لكسبه فلا تتحفز أو تحتشد للدفاع عنه .

ومن حكمة الله فى هذه اللزومية التدريب العملى للأمة وتربية وجدانها التى تنشأ بالمواجهة مع أعدائها وهى تتلقى النصر أو الهزيمة وتقوم بالكر والفر وتتأرجح بين القوة والضعف والتقدم والتقهقر ، وما يصحب ذلك من مشاعر الأمل والألم والسكينة والقلق ، وما تتعلمه الأمة والجماعة من التجمع والتفرق والتنسيق والترتيب بين الاتجاهات أثناء المواجهة وقبلها وبعدها ، واكتشاف مواطن الضعف والقوة ، وتدبير الأمور فى جميع الحالات ، وكلها ضرورية للأمة التى تحمل دعوة الله إلى الناس وتقوم عليها[2] .

(١) يشبه هذا تماما إنفاذ أمر الله فى أعدائه وتحقيق ما يريده بهم من العذاب والتدمير من خلال فعل أوليائه المؤمنين ، وهو معنى قول الله تعالى : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » ( التوبة ١٤ ) .

(٢) عرفنا قبل أن الجهاد بالقتال ليس غاية لذاته ، إنما هو وسيلة لغاية أكبر من المسالمة والموادعة ، فالسلام هو غاية الإسلام الكبرى مع المؤمنين به والمخالفين له ، كما قررت ذلك آيات أخرى كثيرة فى القرآن ، وهو السلام الذى لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغى ولا عدوان . راجع : فى ظلال القرآن ٤/٢٤٢٦ .

من أجل ذلك كله - وغيره مما يعلمه الله - جعل الله نصره لعباده المؤمنين يتم عن طريقهم هم أنفسهم ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء .

* وأما عن السؤال الثانى وما يبدو فيه من واقع - فى إدارك البشر - قد يخدش سنة الله فى نصره لعباده المؤمنين وهزيمته لأعدائهم الكافرين ، أو يشكك فى وعد الله بذلك ، فإن الواقع يشهد من جهة أخرى - إذا دققنا النظر - أن نصر الله لعباده ووعدهم بذلك سنة لا تتبدل ، ولكنها قد تتأخر إلى أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتشبيت ، ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم التى يعرفها الله لهم ، أو تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين[1] ، وذلك حين يصح أن المؤمنين وفوا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله[2] .

---

(١) من يقارن بين حال المسلمين فى حرب العاشر من رمضان الأخيرة وحالهم فى الحروب السابقة عليها يدرك ما نشير إليه جيدا .

(٢) نقول حين يصح وفاء المؤمنين بشرطهم ؛ لأنا والعالم يشهد أن القائمين على أمور كثير منهم لا يوفون بهذا الشرط من نصرة الله ودينه ، ولا يكنون لهذا الدين من الولاء والمشاعر ما يكنه غيرهم لأديانهم ، ومن قريب بدا أكثر الحريصين منهم على الوفاء لمهمته فى أخطر قضايا المسلمين اليوم فى موقف لم يُعرفيه دين الله اهتماما ، ولم يرد له ذكر فى خريطة اهتمامه ، بل على العكس لقد فاخر الناس بذلك فى معرض التدليل على عدم اضطهاد بلده لذوى الملل المختلفة ، وقرأ على الناس تقريرا يؤكد علمانية هذا البلد ووقوع الدين فيها موقعا دونيا إن كان له موقع حرصا على مشاعر أعدائهم الكافرين الذين لم يأبه إمامهم بهذا الحرص ، بل حرص من جانبه هو على احترام أمر شكلى فى دينه والإلتزام به فى مقابل تفريط المسلمين فى واجب يومهم العينى ، وصدق الله العظيم « وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِمْ » ( البقرة ١٠٩ ) ، « وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ » ( البقرة ١٢٠ ) ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » ( آل عمران ١٠٠ ) .

فقد يبطئ النصر لأن الأمة لم يتم نضج بنيتها ولم تحشد بعد طاقاتها ولم تبذل أقصى المذخور فيها من قوى واستعداد ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا ، وقد يتأخر النصر حتى تجرب الأمة آخر قواها ولا تستبقى عزيزا أو غاليا لا تبذله هينا رخيصا فى سبيل الله ، ثم تدرك أن هذه القوى وحدها دون سند من الله لا تكفل النصر ، إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما فى طوقها ثم تكل الأمر بعد ذلك إلى الله ، وقد يبطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله وهى تعانى وتألم وتبذل فتتأكد صلتها بالله التى تضمن لها استقامتها على نهجه وثباتها على طريقه بعد النصر ، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذى نصرها الله به ، وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد فى كفاحها وبذلها لله ولدعوته ، بل تقاتل لمغنم تحققه أو حمية لذاتها أو شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد الجهاد فى سبيله وحده بريئا من هذه المشاعر التى تلابسه[1] .

كما قد يبطئ النصر لأن فى الشر الذى يكافحه المؤمنون بقية من خير يريد الله أن يجرد الشر منها ليذهب وحده هالكا ، وقد يبطئ النصر لأن الباطل لم ينكشف زيفه تماما وقد يكون فى الناس أنصار له من المخدوعين فيه فيبقيه الله دون نصر للمؤمنين عليه حتى ينكشف عاريا للناس ، وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير الذى تمثله الأمة المؤمنة ، وحينئذ تلقى من معارضة البيئة مالا يقر لها معها قرار ، فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق واستبقائه[2] .

---

(١) راجع قريبا حديث أبى موسى الأشعرى فى ذلك ص ١٧٧ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن ٢٤٢٦/٤ - ٢٤٢٧ .

من أجل هذا كله – وغيره مما يعلمه الله – قد يبطئ النصر ، لكنه متحقق في النهاية « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً » ( الفتح ٢٣ ) .

على أن للنصر – بعد ذلك كله – تكاليفه وأعباءه حين يأذن به الله يشير إلى بعضها تعبير الآية من تثبيت الأقدام بعد النصر الذي هو جزء من مهمة المؤمنين الذين استحقوا نصر الله وتلقوا وعده المؤكد الوثيق في قوله تعالى : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ » ( الحج ٤٠ – ٤١ ) .

٤ – من الواضح في جزاء الله هنا للمؤمنين ووعده لهم بما شرطه لهم أنه ينتظم أمرين هما النصر والتثبيت على ما وردا في ترتيبهما بالآية ، وهو ترتيب يصدم – لأول وهله – ما يتبادر إلى الذهن من ضرورة سبق التثبيت للنصر ؛ إذ هو من أسبابه وضروراته على نحو ما قررته الآيات القرآنية « إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » ( الأنفال ١٢ ) ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ( الأنفال ٤٥ ) .

ولكن تأخير التثبيت عن النصر هنا يوحى أن المقصود معنى آخر من معانى التثبيت يكون بعد النصر وليس قبله ، فليس النصر نهاية المعركة بين الكفر والإيمان والحق والباطل ، « بل للنصر تكاليف وتبعات أخرى فى ذات النفس وفى واقع الحياة من عدم الزهو به والبطر ، وعدم التراخى بعده والتهاون ، وكثير من النفوس تثبت على المحنة والبلاء ، ولكن القليل هو الذى يثبت على النصر والنعماء ، وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر ، ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن الكريم[(١)] .

٥ - ومن الزيادة فى تقوية قلوب المؤمنين وتثبيتها أن ذكر الله فى مقابلة ذلك حال الذين كفروا من انحطاطهم وتعثرهم وزوالهم وهلاكهم ؛ لأنه لما قال : « ويثبت أقدامكم » جاز أن يتوهم أن الكافر أيضا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطعان والضراب ، وفيه المشقة العظيمة ، فنبه أن لكم الثبات ولهم التعثر والزوال والهلاك ، إذ كان تثبيت قلوب المؤمنين وثباتهم على الجهاد ومشاقه من الله ، أما آلهة هؤلاء فلا قدرة لها ولا ثبات فى دفع الضر عن نفسها فهى بالأولى غير صالحة لدفع ما قدره الله تعالى على عابديها من الدمار والهلاك ، ولذا لا مفر من زوال أقدامهم وعثارهم بله زوالهم وهلاكهم[(٢)] .

---

(١) فى ظلال القرآن - ٦ / ٣٢٨٩ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٥١١/٥ .

٦ - فى تعليل الله هلاك الكافرين وتعاستهم بكراهيتهم للقرآن الكريم وما أنزل الله تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج فى نفوسهم من هذه المشاعر غير الحميدة والسخائم التى تنضح بها تجاه ما يتصل بكتاب الله وشريعته وهديه المستقيم ، وهذا هو الذى يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة ، وهى حالة كثير من النفوس الفاسدة التى تكره بطبعها ذلك النهج السليم بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته ، وهى نفوس يكثر وجودها فى كل زمان ومكان تنفر من الدين وما يتصل به ، وتفزع من مجرد ذكره أو سماع شئ عنه كما لو لذعتها العقارب ، وتتجنب أن يجئ ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث[1] .

ومثل هذا الشعور لا نفتقده عند كثير من المسلمين الذين لا ينال الدين منهم وتعاليمه وتكاليفه إلا الازدراء والسخرية ، والتضييق على الداعين إليه والمذكرين بتعاليمه كأنهم غرباء ليسوا من سكان هذا الكوكب ، أفنعجب بعد ذلك من تخبط هؤلاء فى أعمالهم وانتقالهم من السئ المحبط إلى ما هو أكثر سوءا وإحباطا حتى تنتهى إلى انتكاسه وردة يضل بها أصحابها بين العالمين !!

---

(١) فى ظلال القرآن ٣٢٨٩/٦ .

## المقطع الرابع

### تنعم المؤمنين وتمتع الكافرين

قال تعالى: « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ١٢ وَكَأَيِّن مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ ١٣ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ١٤ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ١٥ » .

**التحليل اللغوى والقراءات:**

**الأَنْهَارُ** : جمع واحده نهر ونهر بسكون الهاء وفتحها ، مجرى الماء الفائض الواسع وهو ما دون البحر وفوق الجدول ، واستخدامه فى عالم الشهادة على هذا المعنى ، قال تعالى : « وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً » ( النحل ١٥ ) ، وقال تعالى : « وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهراً[1] » ( الكهف ٣٣ ) ، وقد يوضع الواحد

(١) المفردات صـ ٧٧٣ .

موضع الجمع كما فى قوله تعالى : « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ » ( القمر ٥٤ ) أى أنهار[١] .

وقد جعل الله تعالى الأنهار مثلا لما يدر من فيضه وفضله فى الجنة على الناس لما فى النهر من الفيض والاتساع كما معناهنا وكما فى قوله تعالى : « وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً[٢] » ( نوح ١٢ ) .

يَتَمَتَّعُونَ : ينتفعون إلى حين ، وهو من التمتع بالمتاع والانتفاع به ، وهو أظهر وجوه المتاع والتمتع[٣] ، وأصل المتاع المتمتع به كل شئ ينتفع به ويتبلغ ويتزود ويأتى عليه الفناء فى الدنيا ، وقد ذكر الله تعالى المتاع والتمتع والاستمتاع والتمتيع فى مواضع من القرآن الكريم ، ومعانيها وإن اختلفت راجعة إلى هذا الأصل[٤] ، وفى حديث ابن الأكوع قالوا يا رسول الله : « لو متعتنا به » أى تركتنا ننتفع به[٥] .

وكل موضع ذكر فيه « تمتعوا » فى الدنيا فعلى سبيل التهديد[٦] ، كما معنا هنا ، وكما فى قوله تعالى : « ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا

---

(١) نظير ذلك قوله تعالى : « ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً » ( الحج ٥ ) أى أطفالا ، « وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » ( القمر ٤٥ ) أى الأدبار ، اللسان ٤٥٥٦/٦ .

(٢) المفردات صـ ٧٧٣ ، وإسناد الجرى إلى الأنهار فى الآية معنا مجاز ؛ لأن الذى يجرى حقيقة هو الماء فيها .

(٣) راجع : الأشباه والنظائر ص ١٥٤ - ١٥٥ ، تأويل مشكل القرآن ص ٥١٢ .

(٤) لسان العرب ، مادة : متع ٤١٢٧/٦ .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى راجع : فتح البارى ٤٦٤/٧ .

(٦) المفردات - الراغب ص ٦٩٩ .

وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » ( الحجر ٣ ) ، « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » ( لقمان ٢٤ ) ، فإن أريد به غير ذلك قيد به كما فى قوله تعالى : « وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً » ( هود ٣ ) .

**تَأْكُلُ الأَنْعَامُ** : واحده النعم ، وهو بالإفراد الإبل خاصة وتسمية الإبل بذلك لكونها عند العرب أعظم نعمة ، وقد أسموها المال الراعية[1] ، وبالجمع الإبل والبقر والغنم ، ولا يقال لها أنعام حتى يكون فى جملتها الإبل ، والأنعام تذكر وتؤنث ، ولذا عاد الضمير عليها بهذا وذاك كما فى قوله تعالى : « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا » ( المؤمنون ٢١ ) ، « وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ[2] » ( النحل ٦٦ ) .

وإنما شبه أكل الكفار بأكل الأنعام لأنهم لا يذكرون الله تعالى على طعامهم ، ولا يسمون ، كما أن الأنعام لا تفعل ذلك[3] .

---

(١) راجع : المفردات ص ٧٦١ ، لسان العرب مادة : نعم ٦/٤٤٨٢ .

(٢) لسان العرب ٦/٤٤٨٢ .

(٣) لسان العرب ٦/٤٤٨٢ .

**النَّارُ** : النار على وجوه ، فالنار اللهيب الذى يبدو للحاسة ويحرق ، والنار الحرب التى يشعلها أعداء الدين ، والنار النور[1] ، والمراد من النار هنا جهنم ، وهى دار جزاء الكافرين وعذابهم فى الآخرة التى وعدهم الله إياها فى قوله تعالى : « **النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا** » ( الحج ٧٢ ) ، وكما جعل الله الأنهار مثلا لفيضه وفضله على المؤمنين ، واكتفى بها فى وصف الجنة لما يتبعها من الأشجار والثمار ، فقد اكتفى فى ذكر جزاء الكافرين بالنار يتقلبون فيها ويتضررون بها[2] .

**مَثْوَى** : من الثواء ، وهو طول المقام مع الاستقرار ، قال تعالى : « **وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ** » ( القصص ٤٥ ) ، وثوى بالمكان نزل فيه وأوى ، وبه سمي المنزل مثوى ومأوى ، ومنه ما معنا هنا ، وما فى قوله تعالى : « **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** » ( محمد ١٩ ) ، وقوله تعالى : « **فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ** » ( فصلت ٢٤ ) ، وفى كتاب أهل نجران : وعلى نجران مثوى رسلى أى مسكنهم مدة مقامهم[3] .

---

(١) فالأول كما فى قوله تعالى : « أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ » ( الواقعة ٧١ ) ، والثانى كما فى قوله تعالى : « كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ » ( المائدة ٦٤ ) ، والثالث كما فى قوله تعالى : « أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا » ( النمل ٨ ) أى نور الله عز وجل ، وقد نقل الراغب هنا عن بعضهم : النار والنور من أصل واحد ، وكثيرا ما يتلازمان لكن النار متاع للمقوين فى الدنيا والنور متاع لهم فى الآخرة ، ولأجل ذلك استعمل فى النور الاقتباس فقال : « نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ » ( الحديد ١٣ ) ، راجع المفردات ص ٧٧٥ - ٧٧٦ ، الأشباه والنظائر ص ٢٢٣ ، لسان العرب ، مادة : نور ٦/٤٥٧٢ .

(٢) التفسير الكبير - الرازى ٧/٥١٣ .

(٣) لسان العرب ، مادة : ثوى ١/٥٢٤ .

وفيها وجه آخر قريب من ذلك هو المنزلة والمكانة كقوله تعالى :
« أَكْرِمِي مَثْوَاهُ » ( يوسف ٢١ ) ، يعنى أحسنى منزلته ، « إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ » ( يوسف ٢٣ ) أى أحسن منزلتى[١] .

وجملة « والنار مثوى لهم » فى محل نصب حال من ضمير الرفع فى « يأكلون » .

**كَأَيِّن** : مركبة من الكاف وأى ، وهى بمعنى كم الخبرية مبتدأ وما بعدها « مِنْ قَرْيَةٍ » تمييز لها ، أى وكم من قرية على تقدير المضاف أى أهل قرية ، والخبر بعد ذلك « أَهْلَكْنَاهُمْ » .

وفيها لغتان : كأين بالهمز والتشديد للياء ، وكائن على تقدير قائل وبائع ، وقد قرئ بهما وغيرهما فى القرآن الكريم[٢] ، والأكثر تخفيفها كما فى قول زهير :

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه فى التكلم[٣]

**قَرْيَةٍ** : القرية المصر الجامع ، وهى إما اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس من المساكن والأبنية والضياع ، وقد تطلق على المدينة ، وفى الحديث

---

(١) راجع : الأشباه والنظائر ص ٢٧٨ .
(٢) راجع : الجامع لأحكام القرآن - القرطبى ٤/٢٢٨ .
(٣) البيت لزهير من معلقته ، ونسبه الجاحظ فى البيان والتبيين للأعور الشنى وذكر بعده بيتا آخر وهو :
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
راجع : تأويل مشكل القرآن الكريم - ابن قتيبة ص ٥١٩ .

« أمرت بقرية تأكل القرى يقولون هي يثرب ، وهى المدينة ، تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد[1] » ، وإما اسم للناس جميعا ، وقد استعمل فى القرآن الكريم فى كل واحد منهما ، فمن الأول قوله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ » ( يوسف ١٠٩ ) ، وقوله تعالى : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا » ( النساء ٧٥ ) .

ومن الثانى ما معنا هنا وما جاء فى قوله تعالى : « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ » ( الطلاق ٨ ) ، وقوله تعالى : « وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا[2] » ( الكهف ٥٩ ) فإسناد أفعال العاقلين إليها من العتو والظلم ، وإرجاع الضمير إليها جمعا يؤكدان ذلك .

**أَهْلَكْنَاهُمْ** : من الإهلاك وهو والهلاك على وجوه عدة[3] ، أظهرها ما معنا هنا من الإبادة بأنواع العذاب لما كذبوا رسلهم ، ونظيره قوله تعالى :

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى باب فضل المدينة ، ومعنى أكلها القرى ما يفتح على أيدى أهلها من المدن ويصيبون من غنائمها ، راجع : فتح البارى ٨٧/٤ ، لسان العرب ، مادة : قرى ٣٦١٧/٥ .

(٢) المفردات ص ٦٠٧ .

(٣) فالهلاك الموت كقوله تعالى : « إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ » ( النساء ١٧٦ ) ، والهلاك فساد الشئ واستحالته كقوله تعالى : « وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ » ( البقرة ٢٠٥ ) ، والهلاك افتقاد الشئ عنك وهو موجود عند غيرك كقوله تعالى : « هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ » ( الحاقة ٢٩ ) ، والهلاك بطلان الشئ وعدمه وهو الفناء المشار إليه فى قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » ( القصص ٨٨ ) ، راجع : الأشباه والنظائر ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، المفردات ص ٧٩٣ .

« وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا » ( مريم ٩٨ ) .

**أَفَمَنْ ... كَمَنْ** : الهمزة للاستفهام الإنكارى أى إنكار التسوية بين مدلول من الأولى وهم المؤمنون عامة ، ومدلول من الثانية وهم أضدادهم من المشركين ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام كنظائره ، ومن الأولى مبتدأ خبرها من الثانية(١) .

**بَيِّنَةٍ** : حجة ظاهرة وبرهان واضح ، والمراد بها القرآن الكريم ، وسائر الحجج فى الآفاق وفى الأنفس(٢) .

**زُيِّنَ** : بالبناء لما لم يسم فاعله من الزين وهو الحسن ، أى حسن له كقوله تعالى : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا » ( فاطر ٨ ) ، والزين خلاف الشين ، ومنه قول بعضهم : وجهى زين ووجهك شين ، أراد أنه صبيح الوجه وأن الآخر قبيحه(٣) ، وزين الشئ أظهر حسنه إما بالفعل كالتزويق وإما بالقول كمدحه وذكر ما يرفع منه(٤) .

**أَهْوَاءَهُمْ** : جمع هوى بالقصر ، وهو ميل النفس إلى الشهوة ، سمى بذلك لأنه يهوى بصاحبه فى الدنيا ، ومنه « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » ( النازعات ٤ ) أى نهاها عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصى الله عز وجل

---

(١) انظر : فتح القدير ٣٤/٥ ، روح المعانى ٤٧/٢٦ .

(٢) المفردات ص ٨٩ ، روح المعانى ٤٧/٢٦ .

(٣) لسان العرب ، مادة : زين ١٩٠٢/٣ .

(٤) المفردات ص ٣٢٠ .

ومتى تكلم بالهوى مطلقا لم يكن إلا مذموماً حتى ينعت بما يخرج معناه عن الذم كقولهم : هوى حسن ، وهوى موافق للصواب[1] وإنما جاء به جمعا تنبيها على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر ، ثم هوى كل واحد لا يتناهى ، فذلك منهم نهاية الضلال والحيرة[2] .

وضمير الجمع المضاف إليه « هم » ، ومثله ضمير الرفع فى قوله : « اتبعوا » عائدان إلى معنى الجمع فى لفظ « من » فى قوله : « كمن زين له سوء عمله » ، بعد أن أعيد إلى معنى الإفراد فيه ضميرا الجر فى « له سوء عمله[3] » .

**مَثَلُ الْجَنَّةِ** : المثل الوصف العجيب ، وهو مبتدأ خبره محذوف تقديره ، فيما يتلى عليكم مثل الجنة ، وقيل : خبره مذكور هو فيها أنهار ، أو كمن هو خالد ، وقد قرئ أمثال الجنة أى صفاتها ، ومثالها أى نظيرها الذى تقابل به[4] .

**وُعِدَ** : الماضى المبنى لما لم يسم فاعله ، من الوعد والعدة وهو التزام وعهد للغير ، إما بتحقيق وتحصيل خير مأمول وإما بتحقيق شر مكروه ، وما معنا من الأول ، ومثله قوله تعالى : « **أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاَقِيهِ** » ( القصص ٦١ ) ، « **وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً** » ( الفتح ٢٠ ) .

---

(١) لسان العرب ، مادة هوى ٤٧٢٨/٦ ، الأشباه والنظائر ص ٣٢٦ .

(٢) المفردات ص ٧٩٧ .

(٣) روح المعانى - الألوسى ٤٧/٢٦ .

(٤) قرأ أمثال الجنة على وابن عباس وابن مسعود والسلمى ، كما قرأ مثال الجنة علىّ بن أبى طالب أيضا ، راجع : الجامع لأحكام القرآن ٢٣٦/١٦ ، فتح القديره ٣٤/٥ ، روح المعانى ٤٧/٢٦ .

ومن الثانى قوله تعالى : « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ » ( الحج ٤٧ ) ، « أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » ( الحج ٧٢ ) ، فإن أريد خصوص الشر كان وعيدا وإيعادا دون نص على الشر كقوله تعالى : « كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ » ( ق ١٤ ) ، وقوله تعالى : « لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ » ( ق ٢٨ ) ، فالفعل الثلاثى لكليهما مع التنصيص ، فإن أهمل التنصيص كان الوعد فى الخير والوعيد فى الشر[١] .

**الْمُتَّقُونَ** : اسم الفاعل من الوقاية ، وهى حفظ الشئ مما يؤذيه ويضره ، والمقصود صيانة النفس من العذاب بالعمل الصالح والمحاذرة من المعاصى والآثام الموجبة له ، ومنها التقوى وهى جعل النفس فى وقاية مما يخاف[٢] ، والمراد بالمتقين المؤمنون الذين وعدوا الجنة آنفا[٣] ، عبر عنهم بذلك إيذانا بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى الذى هو فعل الواجبات وترك السيئات[٤] .

---

(١) راجع : لسان العرب مادة : وعد ٤٨٧٢/٦ ، ويتضح ما بين هذين من قول ابن الطفيل :

وإنى إن أوعدته أو وعدته ... لأخلف إيعادى وأنجز موعدى

(٢) المفردات ص ٨٣٣ .

(٣) وعد هؤلاء مرتين من قبل فى السورة فى قوله : « وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ » ، وقوله : « إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » ( محمد ٦ ، ١٢ ) .

(٤) راجع : روح المعانى ٤٧/٢٦ .

**آسِنٍ** : الأسن من الماء كالآجن المتغير طعمه وريحه تغيرا منكرا لطول مكث ونحوه ، فلا يشربه أحد[1] ، وهو بالمد قراءة العامة وبالقصر قراءة حميد وابن كثير وأهل مكة ، وهما لغتان كحاذر وحذر[2] ، فالممدود للمتغير مستقبلا ، والمقصور للمتغير فى الحال .

**لَبَنٍ ... خَمْرٍ ... عَسَلٍ** : هذه كلها معروفة ، وهى على ما وصفت به تمثيل لما يجرى مجرى الأشربة فى الجنة بأنواع ما يستطاب منها أو يستلذ فى الدنيا بالتخلية عما ينقصها وينغصها ، والتحلية بما يوجب غزارتها ودوامها[3] .

**لَذَّةٍ** : لذيذة الطعم طيبة الشرب ، يقال : شراب لذ ولذيذ وفيه لذة بمعنى ، وهى بالجر قراءة الجمهور نعتا للخمر ، وقرئت بالرفع صفة لأنهار ، كما قرئت بالنصب على أنها مصدر أو مفعول لأجله[4] .

**مَغْفِرَةٌ** : من الغفر ، وهو فى الأصل إلباس الشئ ما يصونه من الدنس ، والمغفرة والغفران من الله للعبد أن يصونه ويستره من أن يمسه العذاب[5] ، وقد جاءت منكرة لإفادة التعظيم ، ومهملة المعمول لوضوحه ومعرفته وهو الذنوب .

---

(١) المفردات ص ٢٠ ، لسان العرب مادة : أسن ٨١/١ .

(٢) راجع : التبصرة ص ٥٠٨ ، روح المعانى ٤٨/٢٦ ، فتح القدير ٣٤/٥ .

(٣) راجع : روح المعانى ٤٨/٢٦ .

(٤) راجع : فتح القدير ٣٤/٥ ، روح المعانى ٤٨/٢٦ .

(٥) المفردات ص ٥٤٣ .

**حَمِيماً** : الحميم والحميمة من الماء الساخن الشديد الحرارة مثل ما في قوله تعالى : « **يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ** » (الحج ١٩) ، « **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ** » ( يونس ٤ ) ، وأصله من الحم أى الحرارة ، ومن حمة السنان وحدّته ، ومنه اشتق الحمام والمستحم والاستحمام والحمة وهى عين ماء جار تنبع من الأرض يستشفى بها الأعلاء والمرضى[١] ، والحمى لما فيها من الحرارة المفرطة وفى الحديث « الحمى من فيح جهنم[٢] » .

وفيه وجه آخر وهو القريب ذو الرحم ، أو الشديد القرابة المشفق الذى يحتد لحماية ذويه[٣] ، وحميمك قريبك الذى تهتم لأمره ، ومنه قوله تعالى : « **وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً** » ( المعارج ١٠ ) . « **فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ**[٤] » ( فصلت ٣٤ ) .

**أَمْعَاءَهُمْ** : الأمعاء جمع معى أو معى بكسر الميم وفتحها ، وهو المصير من أعفاج البطن ومصرانه وما فيه من الحوايا التى ينتقل إليها الطعام بعد المعدة[٥] ، وواحده مذكر كما جاء فى الحديث « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء[٦] » .

---

(١) لسان العرب ، مادة : حمم ١٠٠٨/٢ .

(٢) أخرجه البخارى عن عبد الله بن عباس فى كتاب بدء الخلق باب صفة النار ، راجع : فتح البارى ٣٣٠/٦ .

(٣) المفردات ص ١٨٦ .

(٤) الأشباه والنظائر ص ٣٢٠ .

(٥) لسان العرب ، مادتى مصر ومعى ٤٢١٦/٦ ، ٤٢٣٧ .

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمة عن ابن عمر – باب المؤمن يأكل فى معى واحد ، وهو مثل ضربه للمؤمن وزهده فى الدنيا وقناعته بالبلغة من العيش وما أوتى من الكفاية ، وللكافر واتساع رغبته فى الدنيا وحرصه على جمع حطامها ، راجع : فتح البارى ٥٣٦/٩ ، ٥٣٨ ، لسان العرب ٤٢٣٧/٦ .

## التفسير والبيان :

انتهى المقطع السابق بتسجيل واضح للسبب الذى بنيت عليه سنة الله الماضيـة فى خلقه من نصرته لعباده المؤمنين ، وإهلاكه وتدميره للكافرين ، وهو أن الله دائما مع المؤمنين به فهو الذى ينصرهم ويتولاهم مادامو قد وطنوا أنفسهم على نصرته ، أما غيرهم من الكافرين فقد عدموا هذه الولاية ؛ إذ كفروا بالله وهو وحده الولى الناصر ، كما لم تسعفهم آلهتهم الباطلة التى عبدوها من دون الله فليس لهم معها ولاية أو نصر .

وفى هذا المقطع بيـان وتطبيـق واضح لهـذه الولاية من الله تعـالى للمؤمنين وافتقادها لغيرهم ، وثمار ذلك لدى الفريقين فى صورة موازنة بينهما تعرض لها الآيات فى أكثر من جهة ، وأظهرها ما يناله كل منهم الذى تعرض له الآيات بالإجمال تارة والتفصيل تارة أخرى .

وإذ نال كل من هؤلاء نصيبه فيما اشتجر بينهم من قتال ونزال فى الدنيا فشتان بين جزائهم فى الآخرة ودار نزلهم فيها ، فأما الذين آمنوا بالله وحده وصدقوا رسله والتزموا شريعته وهديه المستقيم ، فعملوا صالح الأعمال وتجنبوا سيئها فيؤكد الله أنه يدخلهم جناته لينعموا فيها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وليتم الله عليهم سرورهم وبهجتهم بما يصوره لنا ويقربه لمداركنا من جرى الأنهار تحت قصورهم وجنانهم ، وانتشار الماء من حولهم المؤذن بانتشار الخضرة والأشجار واستتباع ذلك ما تنتجه من أنواع الفواكه وأطايب الثمار كرامة لهم على إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر .

وحيث ينال المؤمنون هذا الجزاء الكريم من ربهم الكريم نعيما مقيما فإن الكافرين الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسوله ﷺ ينتفعون فى هذه الدنيا بمنافعها الفانية ويتمتعون بأكلهم فيها الذى هو أكبر همهم وغاية أمانيهم ، والحال أنهم لا يدركون تفاهة هذا التمتع وفناءه ويغفلون عواقبهم ومنتهى أمورهم ، فلا يتفكرون فيما نصب لهم من دلائل الإيمان فى الآفاق وفى الأنفس الناطقة بتوحيد ربهم وصدق رسلهم ، بل شأنهم فى ذلك شأن البهم والدواب تأكل فى مسارحها ومعالفها لا همة لها غير ذلك ، وهى لاهية غافلة عما هى بصدده من الذبح والنحر ، وكذلك هؤلاء الكفار يأكلون ويتلذذون فى دنياهم وهم ساهون لاهون حتى إذا ما انتهت آجالهم لم يكن لهم فى الأخرة إلا النار مقاما خالدا ومستقرا دائما .

وفيما بين تنعم المؤمنين وتمتع الكافرين وتقرير نصيب كل منهما على هذا النحو المجمل ، وتفصيله فيما بعد وقفة قصيرة لتسلية رسول الله ﷺ بما ضربه الله مثلا له ولقومه الذين اعتزوا بقوتهم واغتروا بجبروتهم ، ولكن كم تبلغ قوة هؤلاء وجبروتهم إلى جانب قوة الأمم السابقة وجبروتها ؟ .

إن كثيرا من الأمم قد بلغت شأوا بعيدا فى العتو والجبروت ، وكانوا أشد بأساً وأكثر جمعا من أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله ﷺ ، ولكن لم يكن لبأسهم ولا لقوتهم أى اعتبار أمام قوة الله وجبروته حيث أهلكهم الله بصنوف العذاب ، ولم يكن لهم من ينقذهم من هذا الهلاك والعذاب .

وإن هذا المصير نفسه لمصير كل قرية ظالمة باغية تكذب رسول الله إليها وتؤذيه كما حدث من أهل مكة وكفارها الذين أخرجوا رسول الله ﷺ والمسلمين من مكة ، واضطروهم إلى الفرار بدينهم [1] ، فلينتظر هؤلاء هلاكهم ومصيرهم إن هم أصروا على ما هم عليه ، أو يعملوا على تدارك الأمر ومراجعة أحوالهم قبل أن ينزل بهم ما نزل بغيرهم من الهلاك وسوء المصير [2] .

ثم وقفة ثانية لتأصيل ما بين الفريقين من تفاوت وتباين يفسر لنا تفاوت جزائهم وتباينه وبيان لعلة ما لكل منهما فى الحال والمآل ، ولم كان الله وليا للمؤمنين يدخلهم جناته فى الآخرة حيث يستقرون فى أعلى عليين بعد نصرهم وإكرامهم فى الدنيا ؟ ولم كان الكافرون لا مولى لهم معرضين للهلاك فى الدنيا وللعذاب فى الآخرة حيث يستقرون فى أسفل سافلين ؟ .

فما بين هؤلاء وأولئك جد بعيد ، ومن غير الممكن استواء الفريقين أو تشابه جزائهما وبينهما من التناقض والتباعد ما يذهب بكل منهما فى واد غير وادى صاحبه .

فالذين آمنوا ثابتون على الحق وهم على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه ، وبرهان واضح من مالك أمرهم ومربيهم ، ومن ثم يستطيعون التمييز

(١) معلوم من واقع الدعوة وما انتهت إليه أحوال هؤلاء أن الله قد لطف بهم فهداهم إلى الإسلام بعد فتح مكة ، وأصبحوا بعد إسلامهم الدعاة إلى الإسلام والعاملين على رفع لوائه بعد وفاته ﷺ .

(٢) فى الآية حكاية وتذكير لما وقع من هؤلاء فيما وضحه حديث رسول الله ﷺ فيما رواه ابن عباس أن النبى ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : « أنت أحب بلاد الله تعالى إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلىّ ، ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت » ، وفى رواية عبد الله بن عدى فيما أخرجه الدارمىّ بهذا اللفظ « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » ، فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدخول ( ثارات ) أهل الجاهلية ، راجع : فتح القدير ٣٦/٥ ، روح المعانى ٤٧/٢٦ ، تفسير القرآن العظيم ١٧٥/٤ ، سنن الدارمى - كتاب السير ١٥٦/٢.

بين الحق والباطل ، والطيب والخبيث ، وقد ميزوا واختاروا ، وصار الذى اختاروه عقيدة لهم فعرفوا أن لهم ربا واحدا يجازيهم على طاعتهم إياه بالنعيم المقيم والجزاء الحسن فى جناته ، كما يجازى المشركين به والمسيئين إليه بالعذاب الدائم والجزاء الأليم فى ناره .

أما الكافرون فقد أسلموا قيادهم لهواهم ونزوات نفوسهم ، وافتقدوا النور والبرهان والدليل فرأوا القبيح من أعمالهم حسنا والسئ من تصرفاتهم سليما لا سوء فيه[1] ، فهم على عمل المعاصى والقبائح مقيمون ، وعلى درب الشياطين ونهجهم دائبون ، ثم هم فى غيهم وطغيانهم يخبون ويضعون .

فهل يمكن بعد ذلك أن يلتقى الفريقان عند حكم واحد ؟ ! اللهم كلا ، فلن يلتقيا ، ولن يتلاقيا ما دام الهوى يقود أحدهما والحق هو الذى يقود الآخر ، بل إنهما لمختلفان حالا ومنهجا واتجاها ، فكيف يتفقان بعد ذلك ميزانا وجزاء ومصيرا ؟! .

لقد بدأ فريق المؤمنين من البينة فاهتدى إلى الله فمصيره الجنة خالدا فيها ، وبدأ فريق الكافرين من الهوى والرضوخ له فجرفه تيار الكفر وانحدر إلى هاويته فمصيره إلى النار خالدا فيها .

نعم ، إن من كان على بينة من ربه لا يستوى أبدا مع من لم يكن على هذه البينة ، بل زين له سوء عمله فرآه حسنا ثم مضى على هواه ، لا يستويان ، تماما كما لا يستوى الذين يعلمون مع الذين لا يعلمون ، وحيث تباين هؤلاء وأولئك فهل ينتظر اتفاقهم جزاء ومصيرا ؟! فلننظر بعض ما أعد الله لهؤلاء وأولئك .

---

(١) من أبرز أعمالهم السيئة هنا المأخوذة من سياق الآيات شركهم واتباعهم الهوى واخراجهم النبى ﷺ من قريته من غير أن يكون لهم شبهة يركنون إليها .

لقد وعد الأولون جنات تجرى من تحتها الأنهار عرفها الله لهم وطيبها مع ما يستتبع ذلك من نمو النبات والثمار والأزهار والرياحين ، فهى إذن جنات زاخرة بكل ما تشتهيه الأنفس ويلذ للأعين ، لكن هذا الوصف الموجز لا يكفى فى بيان ما أعد للمؤمنين فى جنات الخلد من أبهج ألوان النعيم وفنونه ، فليطلعهم الله على صورة حسية من هذه الجنة التى تزخر بأنهار متنوعة(١) وهى صورة لا تخلو من تفصيل وإن كان مشعرا أنه لم يسق للوصف بقدر ما سيق للموازنة بين من وعدوا هذه الجنة ومن يستحقون النار ، وكأن الآية تقول : أمثل من وعدوا من المتقين جنة فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى - كمثل من هو خالد فى النار ، وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم(٢) ؟! .

وأول نوع من هذه الأنهار أنهار المياه الجارية المتجددة التى لا يتغير طعم الماء فيها ولا ريحه من طول مكث أو ركود ، بل هو عذب فرات حسن الطعم دائما صالح للشرب أبدا ، يجد فيه شاربه الرى الذى لا ظمأ بعده .

---

(١) يلاحظ هنا أن هذه الأنهار - فى ظاهر التعبير القرآنى - غير الأنهار التى تجرى من تحت الجنة وقصورها وبساتينها ، إنها أنهار أخرى فى داخل الجنة تمثل نعيما بعد نعيم وتكريما فوق تكريم .

(٢) ودلائل ذلك فى الآية أن جعلت الكلام عن مثل الجنة وشبهها هو الأصل ، وذكرت عرضا أنها هى التى وعدها المتقون ، ثم جاءت فى أسلوب خبرى دون استفهام ظاهر مع أن المعنى على الاستفهام الإنكارى لتقدم جديدا هو صورة الجنة الموعودة وصفتها وما فيها من أنواع النعيم ، أما الموازنة فمفهومة من شطر الآية الأخير وفيه صفة واحدة من صفات النار هى الماء الحميم يسقاه الكفار فيمزق أمعاءهم وأحشاءهم التى لا تستطيع احتماله ، انظر : عرض لتفسير سورة محمد - د/ مصطفى زيد - مخطوط بكلية دار العلوم ص ١٧ .

وثانى هذه الأنواع أنهار اللبن الطازج دائما الذى لم يتحول عن ذلك أو يتغير طعمه أو ريحه كتغير ألبان الدنيا بنحو حموضة أو تخثر ، ولم يصر فارصا أو حاذرا يحذى اللسان ويجد الطاعم له أو الشارب لذوعة وانقباضا شأن ما نعرف من ألبان الدنيا وما يجرى عليها ويعرض لها .

وثالث هذه الأنواع أنهار الخمر اللذيذة الشرب التى لا يتكرهها الشاربون ولا تسكرهم كخمر الدنيا ، أو يصدع الرأس لشربها ، بل تنعشهم وتنشيهم فى غير سكر أو خدر ؛ إذ ليس فيها كراهة طعم وريح ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا[1] .

ورابع هذه الأنواع أنهار العسل المصفى والخالى من جميع الشوائب والعلائق والقذى التى يمكن أن تختلط به كما فى عسل أهل الدنيا قبل تصفيته مما خالطه من الشمع وفضالات النحل وغيرها مما يعرض له ويحوم حوله[2] .

---

(١) ذكر اللذة مع شرب الخمر هنا بخاصة لأن خمر الدنيا لا تشرب لطعمها ولا لذة فى نفس شربها ، ففيها من مرارة الطعم وشدة اللذع ، بل فيها من المكاره والغوائل والمغارم ما يعرفه أصحابها ، قال تعالى عن خمر الجنة : « لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَهُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » ( الصافات ٤٧ ) ، راجع : التفسير الكبير ٥١٦/٧ .

(٢) جاء فى تفسير السابقين عن هذه الأربعة أن الماء غير الآسن هو ماء التسنيم الذى لاتمسه يد ، وإنما يجئ هكذا حتى يدخل الفم ، وأن لبن الأنهار لم يحلب وأنه لم يخرج من بين فرث ودم ، وأن خمرها لم تدسه الأرجل وأن عسلها لم يخرج من بطون النحل ، ومعلوم أن ما حكاه الله من عالم الغيب فى هذا وغيره إنما هو تقريب للمدارك والأفهام ، أما حقيقته فترتفع عما يعلم من أسمائه فى عالم الشهود . راجع : تفسير القرآن العظيم ١٧٦/٤ ، روح المعانى ٤٨/٢٦ .

هذا وقد جاء ترتيب هذه الأربعة فى الآية الكريمة حسب مقدار الحاجة إليها ، فقد بدئ بالماء لأنه فى الدنيا مما لا يستغنى عنه ، ثم ثنى باللبن إذ كان يجرى مجرى المطعم فى الكثير من الأوقات ، ثم الخمر لأنه إذا حصل الرى والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يلتذ به ، وأخيرا بالعسل لأن فيه الشفاء فى الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم .

على أن نعيم المتقين لا يقف عن حد المشروب من هذه الأنهار المنوعة أو المطعوم منها ، بل لهم فى الجنة ما يلذ لهم ويطعمونه من جميع الثمار وأنواع الفواكه وأصنافها مما يعرفونه فى بيئاتهم وما لا يعرفونه مما يخرج من بيئات أخرى ، بل لهم فيها ما يدعون وتشتهى نفوسهم مما لم تره عيونهم ولا سمعته آذانهم ولا خطر على قلوبهم ، ثم لهم فوق ذلك النعيم المادى نعيم آخر معنوى وهو رضا الله عنهم بما أسلفوا من عمل وتجاوزه عن ذنوبهم وهفواتهم التى اقترفوها فى دنياهم وتغطية هذه السيئات ومحوها والصفح عنها حتى لاتنغص عليهم نعيمهم المادى .

أما الكافرون الذين تمتعوا فى الدنيا تمتع البهائم والدواب فليس لهم فى الآخرة إلا الخلود فى النار وسكنى الدركات السفلى منها ، وأين هم من المتقين ساكنى الدرجات العليا من الجنة ؟ كما لا نصيب لهم فيها إلا ما يتجرعونه من الماء الحار غير المستساغ الذى يمزق أمعاءهم وحواشيهم لشدة حرارته حتى لتندلق من أدبارهم ، كما يحرق أجسادهم ويشوى وجوههم إذا دنوا منه ، فأين هذا من شراب أهل الجنة وابترادهم بماءها البارد والعذب الفرات ؟ ألا إنه العذاب الغليظ المناسب لغلظ طباعهم وتبلد مشاعرهم وأحاسيسهم وهم يتمتعون ويأكلون فى الدنيا كما تأكل الأنعام .

وعن تنعم المؤمنين وتمتع الكافرين والتقابل بينهما فى الآيات وقفات للتدبر والتأمل منها :

١ - أن قوله تعالى عن الكافرين « يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ » مقابلة واضحة لقوله عن المؤمنين « وعملوا الصالحات » ، وفى هذه المقابلة إيماء إلى أن المؤمنين عرفوا أن نعيم الدنيا خيال باطل وظل زائل فتركوا الشهوات وتفرغوا للصالحات ، وما حصلوا منها غير التزود والتبلغ ، فكان عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم ، وهؤلاء غفلوا عن ذلك فرتعوا فى دمنهم كالبهائم ، وغبوا منها وتمتعوا حتى ساقهم الخذلان إلى مقرهم من درك النيران[(١)] .

٢ - وفى كلام الآية الأولى احتباك بذكر الأعمال الصالحة ودخول الجنة أولا دليلا على حذف الأعمال الفاسدة ودخول النار ثانيا ، وذكر التمتع والمثوى ثانيا دليلا على حذف التقلل والمأوى أولا ، وأسند إدخال الجنة إلى الله تعالى ولم يسلك نحو هذا المسلك فى قوله تعالى « وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » ، وخولف بين الجملتين فعلية واسمية للإيذان بسبق الرحمة والإعلام بمصير المؤمنين والوعد بأن عاقبتهم أن الله سبحانه يدخلهم جنات ، وأن الكافرين مثواهم النار وهم لا يدرون وكالبهائم يأكلون[(٢)] .

---

١) ذكر ذلك العلامة الطيبى فى التقابل بين الفريقين ، راجع : روح المعانى ٢٦/٤٦ .

(٢) روح المعانى ٢٦/٤٦ .

٣ - إنما خص الذين كفروا بالتمتع والأكل مع أن المؤمنين أيضا لهم التمتع بالدنيا وطيباتها ؛ لأن الموازنة هنا بين نصيب المؤمنين الكلى الضخم فى الآخرة والنصيب الكلى للكافرين فى الدنيا الذى لا نصيب لهم سواه ، ومن يكون له ملك عظيم ويملك شيئا يسيرا لا يذكر إلا بالملك العظيم ، فلا يقال فى حق الملك العظيم ذى الجاه والرفعة والسلطان : إنه صاحب الضيعة الفلانية ، أما من لا يملك إلا شيئا يسيرا فلا يذكر إلا به ، والمؤمنون لهم ملك الجنة ، فمتاع الدنيا لا يلتفت إليه فى حقهم ، والكافرون ليس لهم إلا الدنيا فلا يذكر لهم غيرها[1] .

٤ - وفى تلقى المؤمنين وتناولهم لنصيبهم وهجوم الكافرين ونهمهم مقابلة وتصوير لمنهج الإنسان ومنهج الحيوان ، ففضلا عن نصيب المؤمنين فى الآخرة الذى يتلقونه من يد الله كريما علويا رفيعا متناسقا فى علوه ورفعته وكرامته مع الارتفاع المنطلق من إيمانهم وعملهم الصالح - فإن ما ينالونه من متاع الدنيا إن اتفق لهم يتناولونه « بحساسية الإنسان الذى يملك نفسه وإرادته ، والذى له قيم خاصة فى الحياة والتناول ، فهو يختار الطيب عند الله عن إرادة لا يخضعها ضعف الشهوة ، ولا يضعفها هتاف اللذة ، ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام وفرصة متاع بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح[2] » ، إنما يعرفون أن أكلهم وتمتعهم الحلال والمباح هو وسيلة للعيش الكريم وليس غاية فى

(١) التفسير الكبير ٥١٣/٧ .
(٢) فى ظلال القرآن ٣٢٩٠/٦ .

ذاته ، فهم يتبلغون به فحسب وحسبهم ما يقيم الأود والصلب ويمسك القوة للتقوى على الطاعة والعبادة ويتأسون فى ذلك آداب الإسلام ومكارم عاداته التى نبه عليها رسول الله ﷺ [1] ، ومنها قوله : « طعام الواحد يكفى الاثنين وطعام الاثنين يكفى الأربعة وطعام الأربعة يكفى الثمانية[2] » ، وقوله ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث طعام وثلث شراب وثلث لنفسه[3] » .

أما الكافرون فمنهجهم خلو من هذا كله فنصيبهم متاع وأكل كأكل الأنعام ، وهو تصوير زريّ يذهب بكل سمات الإنسان وخصائصه ويلقى ظلال الأكل الحيوانى الشره والمتاع البهيمى الغليظ بلا تذوق أو تعفف عن جميل أو قبيح ، إنه المتاع الذى لا ضابط له من إرادة أو اختيار.

---

(1) الآداب ومكارم العادات هنا كثيرة فقد كان ﷺ إذا قرب إليه طعام يقول : بسم الله وإذا فرغ من طعامه قال : اللهم أطعمت وأسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت فلك الحمد على ما أعطيت » رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن جبير ، وأخرج عن عائشة عن النبى ﷺ قال : إذا أكل أحدكم طعاما فليذكر اسم الله فإن نسى أن يذكر اسم الله فى أوله فليقل بسم الله أوله وآخره » وأخرج البخارى عن ربيب رسول الله ﷺ عمر بن أبى سلمة فى توجيهه له عند أكله قال : « سم الله وكل مما يليك » راجع : الفتح الربانى أبواب الأكل وآدابه ٩٢/١٧ - ٩٣ ، فتح البارى - كتاب الأطعمة ٥٢٣/٩ .

(2) أخرجه الإمام أحمد عن جابر ، وتفسير ذلك ما قاله عمر فى عام الرمادة : لقد هممت أن أنزل على أهل كل بيت مثل عددهم فإن الرجل لا يهلك على نصف بطنه ، راجع : الفتح الربانى - كتاب الأطعمة ١٧/ ٨٨ .

(3) أخرجه الإمام أحمد عن المقدام بن معد يكرب فى كتاب الأطعمة . راجع : الفتح الربانى ٨٨/١٧ .

ولا حارس عليه من تقوى ولا رادع عنه من ضمير ولا نهاية له من امتلاء أو اكتفاء ، وصدق رسول الله ﷺ فيهم « .. والكافر يأكل فى سبعة أمعاء[1] » .

إن الفارق الأساسى والرئيسى هنا بين الإنسان والحيوان أن للإنسان إرادة وهدفا وتصورا خاصا للحياة يقوم على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه وأهم المزايا التى من أجلها كرمه الله [2] .

٥ - فى تقرير الموازنة بين المؤمنين والكافرين وعدم تساويهما عامة لما أن الأولين على هدى من ربهم وبينة على حين أن الآخرين مخدوعين بعملهم السيئ واتباع أهوائهم - يجيئ تصوير هذا كله فى عبارة تبدأ بالاستفهام وما فيها من الاستفهام شيئ ، إنما هو نفى للمساواة بين الفريقين ، واستبعاد أن يكون أحدهما كالآخر مع اختلاف في المنشأ والاتجاه ، وفى النظر والفكرة ، وفى العقيدة والعمل ، وإنه لأقوى أسلوب للنفى فى مثل هذا الموضوع لا يدانيه فى قوته أسلوب التقرير والإخبار وبخاصة أن فى صدر الآية بعد أداة الاستفهام معطوفا عليه محذوفا يحسن تقديره بمثل قولنا : أتغفل الفروق الجوهرية بين الفريقين فمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟ أى أن هذا لا يجوز فلا يتصور أن يقع ، ومثل ذلك ما جاء فى قوله تعالى :

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

(١) انظر ص ١٩٥ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٠ .

أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب » ( الرعد ١٩ ) وقوله تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء » ( فاطر ٨ ) أي لا يستوى هؤلاء وأولئك .

٦ - ذكر العلماء أن اختيار الأنهار من هذه الأجناس الأربعة راجع إلى أن المشروب إما أن يشرب لطعمه أو لأمر غير عائد إلى الطعم ، فإن كان للطعم فالطعوم تسعة ألذها الحلو والدسم ، لكن أحلى الأشياء العسل فذكره ، وأما أدسم الأشياء فالدهن ، لكن الدسومة إذا تمخضت لا تطيب للأكل ولا للشرب ، وفي اللبن الدسم الكائن في غيره وهو طيب للأكل ، وبه التغذية الأولى فذكره الله تعالى ، وأما ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر ، فإن الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجله ، وهي كريهة الطعم باتفاق شاربيها وحصول التواتر به ، ثم عرى كل واحد من الأشياء الأربعة عن صفات النقص التي هي فيه ويتغير بها في الدنيا[١] .

٧ - ذكر الله نعيم المؤمنين وتمتع الكافرين في هذا المقطع في صورة الجزاء الحسي ، وهي صورة ترد في مواضع من القرآن الكريم ، وقد تجيء معها صور معنوية ، كما تجيء صور النعيم والعذاب المجرد عن الحسيات في مواضع أخرى ، والله الذي خلق البشر أعلم بمن خلق وأعرف بما يؤثر في قلوبهم وما يصلح لنعيمهم ولعذابهم ، والبشر صنوف والنفوس ألوان

(١) انظر : التفسير الكبير - الفخر الرازي ٥١٥/٧ .

والطبائع شتى ، ومن ثم فصّل الله ألوان النعيم والعذاب وصنوف المتاع والآلام وفق علمه المطلق بالعباد .

فهناك من الناس من لا يصلح لتربيتهم ودفعهم للعمل كما لا يصلح لجزائهم ويرضى نفوسهم إلا أن يكون لهم مثل هذه الأنهار وصنوف الثمرات مع المغفرة من ربهم التى تكفل لهم النجاة من النار والتمتع والتنعم بالجنات .

وهنالك ناس يعبدون الله لأنهم يشكرونه على نعمه التى لا يحصونها ، أو لأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب ، أو لأنهم يستحيون أن يراهم الله على حالة لا يحبها ، ولا ينظرون وراء ذلك إلى جنة أو إلى نار ، ولا إلى نعيم أو عذاب ، وهؤلاء يصلح لهم من الجزاء أن يقول الله لهم: « **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا** » (مريم ٩٦) ، أو أن يعلموا أنهم سيكونون « **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** » ( القمر ٥٥ ) .

لقد روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلى حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا »[1] ؟ .

---

(١) أخرجه البخارى عن عائشة فى كتاب التفسير ، راجع : فتح البارى ٨/٥٨٤ ، وتقول - فى مثل ذلك - رابعة العدوية : أو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ولم يخشه أحد ؟ ، وتجيب سفيان الثورى وقد سألها : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء ، عبدته شوقا إليه .

وبين هذا اللون وذلك ألوان من النفوس والمشاعر والطباع ، وكلها تجد فيما جعله الله من نعيم وعذاب ، ومن ألوان الجزاء ما يصلح للتربية فى الأرض وما يناسب للجزاء عند الله ، والملاحظ عموما أن صور النعيم والعذاب ترق وتشف كلما ترقى السامعون فى مراقى التربية والتهذيب على مدى نزول القرآن وحسب أنواع المخاطبين والحالات المتنوعة التى كانت تخاطب بالآيات وهى حالات ونماذج متكررة فى البشرية فى جميع الأعصار[1] .

٨ - وفى نعيم أهل الجنة المادى يروى أصحاب السنن عن النبى ﷺ قال : « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد[2] » ، وفى سؤال لقيط بن عامر فى وفده إلى رسول الله ﷺ قال : قلت يا رسول الله على ما نطلع من الجنة قال ﷺ : « على أنهار عسل مصفى وأنهار من خمر ما بها صداع ولا ندامة وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله وأزواج مطهرة » ، قلت يا رسول الله ، أو لنا فيها أزواج مصلحات ؟ ، قال : « الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم فى الدنيا ، ويلذونكم غير أن لا توالد[3] » .

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن ٦/٣٢٩٢ .

(٢) أخرجه الترمذى عن حكيم بن معاوية وقال : حسن صحيح ، راجع : سنن الترمذى - كتاب الجنة ٤/ ١٠٠ .

(٣) أخرجه الطبرانى ، وراجع : تفسير القرآن العظيم ٤/١٧٦ .

وفى الصحيح « إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن[1] » ، وعند ابن مردويه عن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : قال ﷺ : « هذه الأنهار تشخب من جنة عدن فى جوبة ثم تصدع بعد أنهارا » ، وعنده كذلك عن يزيد بن هارون مرفوعا « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة تجرى فى أخدود الأرض ، والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض حافاتها قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر[2] » .

وهكذا ينتهى هذا المقطع وتنتهى معه علاقة المؤمنين بالكافرين والموازنة بينهما من جهات عدة ونواح شتى لينتقل سياق الآيات بعدها إلى نوع آخر من علاقة المؤمنين بالمنافقين تلك العلاقة المركبة العجيبة التى شغلت حيزا كبيرا من سور القرآن الكريم وآياته والتى تعرض صورة منها الآيات التالية من سورة محمد ﷺ فى المقاطع الأربعة التالية .

---

(١) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب التوحيد . راجع : فتح البارى ٤٠٤/١٣ .

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم - ابن كثير ١٧٦/٤ .

## المقطـع الخـامس

### عبث المنافقين بتعاليم الدعوة وتلهيهم عنها

قال تعالى : « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ١٦ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ١٧ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ١٨ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ١٩ » .

**التحليل اللغوي والقراءات :**

**يَسْتَمِعُ** : من الاستـمـاع - ومثله التسـمع - وهو شدة الإصغـاء والإنصات بالأذن، افتعال من السمع الذى هو حس وقوة فى الأذن بها تدرك الأصوات ، والافتعال فى السمع لمعنى المبالغة فيه ، بدليل الاستعادة منهم للاستزادة ، كما يفعل المتعلم المجتهد الطالب للتفهم ، كأنه قال : يستمعون استماعا جيدا بالغا[1] .

وفاعل الاستماع ضمير عائد على لفظ « مَنْ » السابق فى قوله : « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » ، وهم نوع من الكفار السابق ذكرهم

---

(١) انظر : المفردات ص ٣٥٣ - ٣٥٤ ، التفسير الكبير ٥١٨/٧ .

الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وهم خالدون فى النار كأنه قال ومن هؤلاء الكفار الخالدين فى النار قوم يستمعون إليك والمقصود بهم المنافقون ، وهم من الكفار الذين تحدث الله عنهم على حقيقتهم[1] .

**لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ** : هم علماء الصحابة أمثال عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم رضوان الله عليهم ، قال ابن عباس : كنت ممن يسأل ، أى من الذين أوتوا العلم وسألهم هؤلاء[2] .

**مَاذَا** : ما اسم استفهام ، وذا بعدها اسم موصول ، وهى يسأل بها عن ذوات الأشياء وأجناسها وأنواعها فى الواحد والجمع والمؤنث على حد واحد ، وقد يسأل بها عن الأشخاص والأعيان فى غير الناطقين ، ويصح أن يعتبر فى عود الضمير إليها لفظها المفرد وأن يعتبر معناها الجمع[3] .

**آنِفاً** : على وزن اسم الفاعل على غير قياس ، أو بتجريد فعله من الزوائد ؛ إذ لم يسمع له فعل ثلاثى ، بل استأنف وائتنف الشئ إذا ابتدأه ، والمراد الزمن أو الساعة التى تقدمت عن الزمن الحالى ، وأصل الأنف الجارحة المعروفة ، واستعير للدلالة على طرف الشئ وأشرفه كقولهم : سار

---

(1) من هؤلاء عبد الله بن أبى ورفاعة بن التابوت وغيرهما كانوا يحضرون مواعظ رسول الله ﷺ وخطبه ، فإذا ذكر المنافقين فيها أعرضوا عنه - برغم إظهارهم الاهتمام بما يسمعون - وانصرفوا غير واعين ولا فاهمين لما قال .

(2) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٣٨/١٦ .

(3) المفردات ص ٧٢٧ .

فى أنف النهار أى مبكرا ، وخرج فى أنف الخيل أى فى مقدمتها ، قال الحطيئة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا[1]

وإعراب الكلمة النصب إما على معنى الظرفية فيها ، وإما على الحالية من ضمير الفاعل فى قال[2] .

**طَبَعَ اللَّهُ** : أصله من الطبع بسكون الباء وهو الخلق الذى جبل عليه الخلق ، ومنه ما فى الحديث « يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب[3] » وما معنا من الطبع بفتح الباء وهو الختم والتغطية على الشئ كالرين ، كما يرين الصدأ على السيف ويغطيه ، ومنه ما فى الحديث « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاونا بها طبع الله على قلبه[4] » ، أى ختم عليه وغشاه ومنعه ألطافه[5] ، وعلى ذلك فطبع الله على قلوب الكافرين تمكين الضلال منها كأنه قد عفى على الهدى وغطاه .

**قُلُوبِهِمْ** : جمع قلب ، وهو مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط ، سميت بذلك لكثرة تقلبها بما تعيه من العواطف والمشاعر والاعتقادات والأفكار ،

---

(١) هذا ويستخدم الأنف لمعان أخر كالحمية والغضب والعزة والذلة ، انظر : المفردات ص ٣٤ ، أساس البلاغة ص ١١ .

(٢) انظر : روح المعانى ٥٠/٢٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبى أمامة ، راجع : الفتح الربانى - كتاب آفات اللسان ٢٦٤/١٩ .

(٤) أخرجه الترمذى عن أبى الجعد الضمرى فى باب الجمعة ، راجع : سنن الترمذى ٦/٢ .

(٥) لسان العرب ، مادة : طبع ٢٦٣٥/٤ .

كما قال تعالى : « وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ » ( الأنعام ١١٠ ) ، وتقليب الله القلوب والبصائر صرفها من رأى إلى رأى .

وقد يعبر به عن العقل كما فى قولهم : ما قلبك معك ؟ أى ما عقلك ؟ ، وأين ذهب قلبك ؟ أى عقلك ؟ ، ومنه قوله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ » ( ق ٣٧ ) أى عقل وتدبر(١) .

**آتَاهُمْ** : للعلماء فى معنى الإيتاء أقوال عدة يسعها اللفظ ، وليس فى شئ منها ما يأباه مذهب أهل الحق ، فآتاهم تقواهم أعطاهم إياها ، أو بين لهم ما يتقون ، أو أعانهم على تقواهم ، أو أعطاهم جزاءها ، أو جعلهم متقين ، وغير ذلك(٢) .

**السَّاعَةُ** : الجزء من الوقت والزمان ، وهى فى الأصل تستخدم لأحد معنيين : أولهما الجزء القليل من الليل أو النهار ، يقال : جلست عندك ساعة من النهار ، أى وقتا قليلا منه ، وثانيهما الجزء من أربعة وعشرين جزءاً هى مجموع اليوم والليلة ، ثم استعير فى القرآن الكريم لاسم يوم القيامة ، والوقت الذى يقوم فيه الناس لرب العالمين ، ويوم صعقهم وموتهم من قبل ، سمى بذلك لأنه يفجأ الناس فى ساعة(٣) .

---

(١) كما يعبر بالقلب عن العقل يعبر به عن المعانى التى تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغيرها ، راجع : المفردات ص ٦٢٠ ، لسان العرب ، مادة : قلب ٥/٣٧١٤ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٥١٩/٧ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٣٩/١٦ ، روح المعانى ٥١/٢٦ .

(٣) لسان العرب ، مادة : سوع ٢١٥٠/٣ .

وكما استخدم لفظ الساعة فى يوم صعق الناس وموتهم ، ويوم قيامهم وبعثهم فيما يعرف بالقيامة أو الساعة الكبرى التى أشير إليها فى قوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها[١] » - تطلق على الساعة الوسطى وهى موت أهل القرن الواحد ، كما روى أنه ﷺ عندما سئل عن الساعة قال - مشيرا إلى أحد الغلمان - : « إن يعش هذا الغلام فعسى أن لا يدركه الهرم حتى تقوم الساعة[٢] » ، فكان آخر من مات من الصحابة ، وتطلق على الساعة الصغرى وهى موت الإنسان ، فساعة كل إنسان موته ، وهى المشار إليها بقوله تعالى : « قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا » ( الأنعام ٣١ )[٣] .

**بَغْتَةً** : البغتة الفجأة ، وهى أن يفجأك الشئ من حيث لا تحتسب ولا تنتظر ، ومثله المباغتة أى المفاجأة ، وقد بغته بغتا فجأه ، وباغته مباغتة فاجأه ، وانتصابها على الحالية كما جاءت فى قول الشاعر : -

ولكنهم ماتوا - ولم أدر - بغتة وأفظع شئ حين يفجؤك البغت[٤]

(١) أخرجه الإمام أحمد راجع : الفتح الربانى - علامات الساعة ٤٣/٢٤ .

(٢) أخرجه مسلم عن أنس فى كتاب الفتن ، راجع : صحيح مسلم ٤/ ٢٢٧٠ .

(٣) المفردات ص ٣٦٢ .

(٤) لسان العرب ، مادة : بغت ٣١٧/١ ، المفردات ص ٧١ . وانظر : روح المعانى ٥٢/٢٦ .

**أَشْرَاطُهَا** : جمع شرط بفتح الراء معناه العلامة والأمارة[1] وأول الشئ ، تقول : أشرط إبله وغنمه إذا عزلها وجعل فيها شرطا إعلاما لبيعها ، ومن ذلك الشرطى منسوب إلى الشرطة ، سموا بذلك لأنهم أعلموا أنفسهم بعلامات ، وأشراط الساعة علاماتها وأوائلها ومقدماتها التى كانت واقعة إذ ذاك وأخبروا أنها علامات لها[2] .

**فَأَنَّى** : اسم استفهام يسأل به عن الحال والمكان ، ولذلك قيل إنه بمعنى كيف نحو قوله تعالى : « **أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** » ( البقرة ٢٥٩ ) ، أى كيف يحييها ؟ ، وبمعنى أين كقوله تعالى : « **أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ** » ( الأنعام ١٠١ ) ؟ ، أى من أين يكون له ولد ؟ وما معنا من الأول ، أى كيف لهم ذكراهم ؟ تعجب من نفع الذكرى لهم عند مجئ الساعة .

وهو خبر مقدم والذكرى مبتدأ مؤخر ، وقد يكون خبرا لمبتدأ محذوف ، أى فأنى لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكرى[3] .

---

(١) أما شرْط بسكون الراء ومثله شريطة فمعناه الإلزام بشئ والالتزام به وجمعه شروط وشرائط ، اللسان ٢٢٣٥/٤ .

(٢) من ذلك ما ذكره العلماء كانشقاق القمر والدخان الذى وقع لأهل مكة ، وكبعثة النبى ﷺ ، فهى من أشراطها كما قال : « بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى » أخرجه البخارى عن أنس وغيره ، راجع : فتح البارى كتاب الرقاق ٣٤٧/١١ ، وانظر : روح المعانى ٥٢/٢٦ .

(٣) راجع : تأويل مشكل القرآن ص ٥٢٥ ، المفردات ص ٣٥ ، روح المعانى ٥٢/٢٦ .

**ذِكْرَاهُمْ** : الذكرى من الذكر والتذكر نقيض النسيان ، وهى أبلغ من الذكر ، والمعنى لا تنفعهم الذكرى آنذاك ، والتصديق بما أنكروه وكذبوه من قبل ؛ إذ لا تقبل منهم توبة ولا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

**لِذَنْبِكَ** : الذنب كل فعل تستوخم عقباه كالجرم والإثم والمعصية ، قال تعالى : « **وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ** » ( الشعراء ١٤ ) ، أراد به قتل الرجل الذى وكزه موسى عليه السلام فقضى عليه ، وإضافته إلى ضمير المخاطب المأمور بالاستغفار منه وهو رسول الله ﷺ يخرجه عن هذا المعنى الواقع من العباد ؛ إذ هو معصوم من ذلك ﷺ إلى معنى آخر يليق به ﷺ كطلبه العصمة من الذنب فلا يقع فيه ، أو طلبه الغفران لما صدر منه من ترك الأولى[١] ، أو لتستن به أمته وتقتدى به فى الاستغفار فإذا كان - وهو المعصوم - مأمورا بالاستغفار فكيف بنا نحن[٢] ؟ .

وإنما سمى ذنبا لأن اليسير منه ﷺ كالكبير من غيره ، ورب شئ حسنة من شخص يكون سيئة من آخر كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

---

(١) راجع : فتح القدير ٣٦/٥ ، التفسير الكبير ٥٢١/٧ .

(٢) كما قد يكون استغفاره ﷺ لما كان ينشغل عن الحق تبارك وتعالى لاشتغاله بأحوال المسلمين فيستغفر لذلك ، أو يكون استغفاره شكرا لا عن ذنب كما قال : « أفلا أكون عبدا شكورا » ؟ أخرجه البخارى عن عائشة وأخرج مسلم عن الأغر المزنى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه ليغان على قلبى -أى يستر ويغطى عليه - وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » راجع : فتح البارى كتاب التفسير ٥٨٤/٨ ، صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء ٢٠٧٥/٤ .

**مُتَقَلَّبَكُمْ** : المتقلب التحول والتصرف من حال إلى حال ، وهو مقابل للمثوى المفيد للثبات والقرار الدائم بغير تحول وتغير ، وقد أدى إهمال معموليهما فى الكلام إلى معان متعددة يتعلق أولهما بالدنيا وثانيهما بالآخرة[1] والعموم يأتى عليها كلها ، فلا يخفى عليه سبحانه شئ من حركات بنى آدم وسكناتهم ، وكذا جميع خلقه من قبل كونه ، جملة وتفصيلا أولى وأخرى ، وهو اختيار أبى حيان ، وفى اللفظ قراءة لابن عباس « منقلبكم » بالنون[2] .

**التفسير والبيان :**

يشرع سياق الآيات فى هذا المقطع وما يليه فى التعرض لطائفة من طوائف الكافرين ذات طبيعة خاصة هى طائفة المنافقين التى لبست الأمر على المسلمين وعاشت بينهم فى ثنائية عجيبة استبطنت فيها الكفر ولم تتعالن به للمسلمين ، بل أظهرت لهم الإيمان والتحفت به نفاقا وخداعا ، ومن ثم يكشف الله هنا عن هذه الطبيعة النكدة فيهم ، ويبرز لنا صورة من عبثهم بتعاليم الدعوة وتلهيهم عنها ، ولا يغفل مع ذلك موازنتهم بالمؤمنين الصادقين كيما يزيد فى كشفهم وفضيحتهم والزراية بهم .

لقد كان هؤلاء المنافقون يجلسون إلى رسول الله ﷺ ويلقون إليه سمعهم وبالهم ، مظهرين بذلك الإقبال كل الإقبال على كلامه والاهتمام

---

(١) راجع فى هذه المعانى الكثيرة : الجامع لأحكام القرآن ٢٤٢/١٦ ، فتح القدير ٣٦/٥ ، روح المعانى ٦٦/٢٦ .

(٢) راجع : روح المعانى ٦٦/٢٦ .

باستماعه جيدا وتفهم معانيه ومراميه على أحسن ما يكون التلقى والتعلم ، فيحسبهم غيرهم على شئ ، والحال أن قلوبهم لاهية غافلة وعقولهم ذاهلة شاردة ، فلا هم فهموا شيئا مما قال ولا وعوا منه ما أراد ، وكيف لهم أن يفهموا ويعوا وقد كان شغلهم الشاغل ، وهمهم الأول هذا التظاهر بالحرص والإقبال فحسب ؟ .

ولهذا التظاهر بالحرص فما أن خرجوا من عند رسول الله ﷺ وغادروا مجلسه حتى انكشف خبيئهم وفضحوا أنفسهم بتوجههم بالسؤال لذوى العلم من الصحابة الذين وطأوا أكنافهم وتطامنوا لرسول الله يتعلمون ويفهمون ، أما هؤلاء فقد انتهى بهم تشاغلهم وتظاهرهم الكاذب بالاستماع والإقبال إلى هذا السؤال الفاضح : ما الذى قاله محمد فى مجلسه ذاك قبل افتراقنا عنه وخروجنا من عنده ؟ فنحن لم نسمع منه شيئا ؟.

وهذا السؤال وراءه ما وراءه مما انكشفت به طبيعتهم الغريبة التى يقررها الله بقوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » فكيف لهؤلاء أن يفهموا ويتقبلوا ولا استعداد لهم لهذا أو لذاك بعد أن عدموا التوجه إلى الخير وتمكن الضلال من قلوبهم فانحرفوا عن الحق ، ومالوا إلى الباطل والأهواء التى استبدت بهم وخضعوا لها فتركت على عقولهم وقلوبهم ظلمات من آثار استبدادها ، وطبعت عليها وحجبتها عن أن ترى النور وتتبين الهدى ، فإذا استمعوا تشاغلوا ولم ينتفعوا ، وإذا استعادوا هزئوا وسخروا ولم يستفيدوا .

وهذا شأن المائل عن الحق أبدا المؤثر عليه هواه ، فهو يقوده دائما إلى كل مالا خير فيه .

وإذ كان هذا شأن من طَبع الله على قلبه واتبع هواه من هذا الصنف من البشر ، فشأن المتبعين للحق من المؤمنين شئ آخر وشتان شتان بينهما ، إنهم - وقد بادروا بالاهتداء ، وأقبلوا على الإيمان فى إخلاص - يستمعون فيفهمون ويعون ، ويعلمون فيعملون ويستجيبون ، ومن ثم يزيدهم الله هدى وإخلاصا فى إيمانهم بما يسمعونه من رسول الله ﷺ ، إذ إن ما يقوله لهم هو غذاء قلوبهم وشفاء نفوسهم ونور عقولهم ، يقوى به إيمانهم ويزيد به إقبالهم على طاعة الله وعمل الصالحات ، بل إنهم يرقون بذلك من درجة المهتدين فى أنفسهم إلى درجة الهادين لغيرهم .

وفوق ذلك يكافئ الله المهتدين بما يؤتيهم من تقواه حق تقاته واستقامتهم على ميزان الحق والعدل أبدا ، لما كانوا معه على خطر الإخلاص التام والخشية الدائمة كما قال تعالى فى وصفهم : « **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ** » ( الأحزاب ٣٩ ) .

أما أولئك المنافقون الغافلون الذين يخشون الناس من دون الله ويرضونهم ويسخطون الله ، فهم ليسوا غافلين عما يسمعونه من العلم والهدى فحسب ، بل هم غافلون عما ينتظرهم من الحساب والجزاء على ذلك فى عاقبة أمرهم ، فلا يتأملون ، أو يتدبرون فى نهايتهم ، ومن ثم يظلون سادرين فى غيهم ولهوهم ، معرضين عن دلائل الإيمان فى نفوسهم ومن حولهم ، فماذا ينتظرون للانخراط فى صفوف المؤمنين بعد أن اتضحت الأمور وصحت البراهين ؟ ، بل ماذا ينتظرون للعظة والاعتبار وقد استنفدت الأعمار والسنون ؟ .

إن كانوا ينتظرون الساعة فهى توشك أن تفجأهم وتبغتهم وهم لم يؤمنوا ، وها هى ذى علاماتها قد ظهرت ، ومقدماتها قد بدأت[1] . ولم يأبهوا بها ولا فكروا فيها ؟ ، أم تراهم قد أرجأوا الإيمان لحين وقوعها ومجيئها ، فأساءوا التقدير وأخطأوا الحساب ؛ إذ ظنوا أن إيمانهم نافعهم حينئذ وأن تذكرهم وقتها يرفع عنهم إثم هذا التأخير والتسويف ، وهيهات أن ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى » ( الفجر ٢٣ ) ، ومن أين لهم أن يؤمنوا أو يتذكروا عند مجئ الساعة ؟ ، وكيف يتمكنون من ذلك وهى تفجأهم على غير ترقب أو توقع ؟ ، فلا يستطيعون أن يتداركوا ما فرط منهم ، ولا أن يؤدوا ما فاتهم من واجبات طوال عمرهم ؟ .

إن العمل حينذاك لا سبيل إليه وقد تأهبوا لدار الجزاء ، كما لا مجال هناك لتوبة معاند أو إيمان يائس ، فسيذهبون إذن بكفرهم وذنوبهم إلى دار الشقاء .

---

(١) من أكبر علامات الساعة بعثة النبى ﷺ على ما نص عليه فى الحديث ، فهى إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب ، وإذا كان الزمن يلوح ممتدا منذ هذه الرسالة الأخيرة التى مضى عليها الآن أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، فإن أيام الله غير أيامنا ، وماذا تعد هذه القرون بالنسبة للزمن الإلهى السرمدى أو زمن العروج أو الزمن المرتبط بحركة المجرات الكبرى وغيرها مما يقربه الله للأذهان فى آياته الكريمة « وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » ( الحج ٤ ) ، « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » ( المعارج ٤ ) ، ولكنها فى حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى لها ، وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحوا ولا ذكرا . انظر : فى ظلال القرآن ٦/ ٣٢٩٥ .

هذا سبيل المنافقين الغافلين واللاهين العابثين بتعاليم الدين وتوجيهاته ، وذاك مصيرهم المنتظر لهم ولأمثالهم من الساخرين الهازئين ، أما رسول الله ﷺ ومن معه من المهتدين المتقين فتتجه إليهم الآية الأخيرة في هذا المقطع وتلتفت إليهم لتوجههم إلى طريق آخر ، طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله ، وليعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون متقلبون بين الخوف والرجاء ، فهم « يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » (المؤمنون ٦٠) .

وأساس هذا كله عند المؤمنين توحيدهم لله الذي يقوم عليه بناء الإيمان وتتأسس عليه الطاعات والعبادات ومن ثم كان الأمر للرسول ﷺ ومن ورائه أمته أولا بالاستمساك بهذه الحقيقة التي هي مناط سعادتهم وسر تميزهم عن غيرهم ، وذكرها واستحضارها أبدا في ضميرهم وواقع أحوالهم [1] .

ثم أمره ﷺ ثانيا باستكمال حظوظه باستغفاره لنفسه - وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر - لاستشعاره - من جهة - أن الاستغفار في حد ذاته ذكر وشكر على الغفران ، ولأن هذا من جهة أخرى واجب العبد المؤمن المترقب الوجل الذي يشعر أبدا بتقصيره مهما جد واجتهد ، ثم هو من جهة أخيرة تلقين لهذه الأمة - وهم يعرفون منزلته عند ربه -

(١) هذا أنسب ما يمكن أن نستخلصه من تفسيرات العلماء لأمر الله رسوله بالعلم أنه لا إله إلا الله مع تحصيله للعلم بذلك ضرورة قبل الأمر به ، راجع في كثرة الأقوال هنا : الجامع لأحكام القرآن ٢٤١/١٦ ، التفسير الكبير ٥٢١/٧ ، روح المعاني ٥٥/٢٦ .

ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه[1] .

وأخيرا أمره بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات من أمته - وهو المستجاب الدعوة عند ربه - ليشعر المؤمنون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم وبفضل الله عليهم وهو يوجهه لأن يستغفر لهم ليغفر الله لهم[2] .

وتختم هذه التوجيهات بتلك الحقيقة التى تحرس منهج المؤمنين الصادقين وتحمى طريقهم من غوائل الشيطان والهوى التى تنحرف بهم كما انحرفت بالمنافقين العابثين واللاهين ، فما من خلجة أو حركة أو تصرف أو تقلب يكون عليها المسلم - أو غيره - إلا وهى فى محيط علم الله الشامل ، وما من سكون أو قرار أو مقام أو استكنان بخارج عن علم الله ومعرفته التامة « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » ( الملك ١٤ ) .

وهكذا يرغب الله فى امتثال المسلمين ما أمرهم به ، ويرهبهم مما نهاهم عنه ليظل المسلم دائما فى دائرة الرجاء والخوف جميعا ، الرجاء وهو فى رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى ، والخوف من هذا الموقف الذى يحيط به علم الله ويتعقبه فى كل حالاته ويطلع على سره ونجواه[3] .

(١) جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئ وعمدى وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شئ قدير » أخرجه البخارى عن أبى موسى الأشعرى فى كتاب الدعوات ، راجع : فتح البارى ١٩٦/١١ .

(٢) فى ظلال القرآن ٣٢٩٥/٦ .

(٣) السابق ٣٢٩٦/٦ .

وفيما بين لهو اللاهين من المنافقين واستقامة المتقين من المؤمنين وقفات وعظات نسجل منها هنا ما يأتى :

١ - أول ما ظهر النفاق فى المجتمع بعد الدعوة الإسلامية كان بالمدينة إذ لم يكن له وجود طوال تاريخها بمكة فلم يكن هناك ما يدعو إليه ، والمسلمون ضعفاء مضطهدون لا يحتاج أحد أن ينافقهم ، فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج فى المدينة وانتشر فى سائر بيوتهم وعشائرهم - وقد كانوا يتأهبون لتتويج أحدهم ملكا عليهم - اضطر ناس ممن كرهوا لمحمد ﷺ وللإسلام أن يعلو ويعز ، ولم يملكوا فى الوقت ذاته أن يجهروا بعداوتهم له - اضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره منهم ، وهم يضمرون الحقد والبغضاء ، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول ، وهو رأس النفاق المعروف .

وكان وجود اليهود فى المدينة وتمتعهم بقوة عسكرية فى أول العهد المدنى ، وكراهيتهم كذلك لظهور محمد ﷺ مشجعا للمنافقين ، فاجتمعوا على الحقد والبغضاء ، وشرعوا فى حبك المؤامرات والدسائس على نحو ما نجد صورة منه فى المقاطع التالية ، فإن كان المسلمون فى شدة ظهروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ، وإذا كان المسلمون فى رخاء ظلت الدسائس سرية والمكايد فى الظلام ، وقد تواتر ذكر هؤلاء وأولئك والتنديد بمؤامراتهم ودسائسهم فى السور المدنية[١] .

---

(١) فى ظلال القرآن ٣٢٩٣/٦ .

٢ - يعكس سؤال المنافقين عن قول الرسول ﷺ بعد إظهارهم الاهتمام الكامل بالاستماع إليه والإصغاء لقوله صورة من طبيعتهم الغريبة ، فهم يتظاهرون بإلقاء سمعهم وبالهم على حين أن قلوبهم لاهية غافلة أو مطموسة مغلقة ، كما يدل من جانب آخر على غمزهم الخفي اللئيم ، كأنهم يقصدون إلى أن ما يقوله محمد لا يفهم ، أو لا يعني شيئا يفهم ، فهم لا يجدون له فحوى ، ولا يمسكون فيه بشئ ، كما قد يعنون بسؤالهم السخرية من أصحاب رسول الله ﷺ واحتفالهم بقول النبي ﷺ وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه ، فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية ، وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين[١] .

٣ - لما كانت آيات هذه السورة في الغالب قائمة على التقابل كما لاحظه العلماء وقرروه[٢] ، فلم نعدم كثيرا من ذلك في هذا المقطع الكاشف عن خبث المنافقين وفساد طبعهم، ومن ذلك مقابلة قوله تعالى : « طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » بقوله تعالى : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » ؛ لأن الطبع يحصل من تزايد الرين وترادف ما يزيد في الكفر ، ولذا كان الأولى في تقدير فاعل الزيادة للهدى هو فاعل الطبع على

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٢٩٣ .
(٢) انظر : روح المعاني ٢٦/٥١ .

القلوب وهو الله تعالى[1] ، فكما طبع على قلوب هؤلاء فزادهم عمى زاد هؤلاء هدى على اهتدائهم[2] .

ومن ذلك مقابلة قوله تعالى : « وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ » بقوله تعالى : « وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » ، واختلاف الإسناد فيهما بجعل اتباع الهوى إليهم وإيتاء التقوى إلى الله إيماء إلى معنى التأدب مع الله كما فى قوله تعالى : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » ( الشعراء ٨٠ ) ، وفيه تلويح إلى أن متابعة الهوى مرض روحانى ، وملازمة التقوى دواء إلهى[3] .

٤ - كشفت المقابلة فى هذا المقطع عن جوانب كثيرة فى طباع كل من المنافقين والمؤمنين وسلوكهم ، وصورت - فى جانب - خداع المنافقين فيما أبدوه من اهتمام بما يقوله ﷺ ، ولؤمهم وخبثهم فيما تساءلوا عن قوله بعد استماعهم إليه ، وبينت طمس الله على قلوبهم ، فلم تعد تقبل نورا ينفذ إليها ، وفقدت التمييز بين الحق والباطل ، كما بينت -

---

(١) إضافة إلى هذا الأولى قدر العلماء احتمال أن يكون الفاعل لزيادة الهدى هو المسموع من النبى ﷺ من كلام الله وكلام الرسول ﷺ ، يدل عليه قوله تعالى : « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » فإنه يدل على مسموع والمقصود بيان التباين بين الفريقين ، فكأنه قال : هم لم يفهموه وهؤلاء فهموه . انظر : التفسير الكبير ٥١٩/٧ ، روح المعانى ٥١/٢٦ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٥١٩/٧ .

(٣) انظر : روح المعانى ٥١/٢٦ ، وفيه تفصيل أكثر لهذه المقابلة بين الآيتين .

فى جانب آخر - إخلاص المؤمنين فى إيمانهم بالله ظاهرا وباطنا ، واستماعهم لرسول الله ﷺ وفهمهم عنه طلبا للهداية والعمل ، وإمداد الله لهم وتزويدهم بهداية فوق هدايتهم وتوفيقهم للعمل الصالح وإعانتهم عليه ، وأخيرا إيتاءهم تقواهم التى تجعلهم دائما واجفين من هيبة الله خائفين من غضبه مستشعرين رقابته متطلعين إلى رضاه ومتحرجين أن يراهم حيث نهاهم أو يفتقدهم حيث أمرهم ، وهى مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده المهتدين الذين يرغبون فى رضى الله .

فأين هدى هؤلاء وتقواهم ويقظتهم من نفاق أولئك وانطماسهم وغفلتهم ؟ .

٥ - وحيث كوفئ المؤمنون بهذا الذى ذكر ، فلم تكتف الآيات بشجب مسلك المنافقين والاعتراض عليهم حتى يحملوا وزر نفاقهم ، بل ولم تهملهم بالكلية لينتهوا إلى مصيرهم المنتظر ، وإنما أعذرتهم - فى جانب - بما أنذرتهم وحذرتهم من مجئ الساعة بأسلوب الاستفهام التقريرى ، ولتبكتهم - فى جانب آخر - على اتباعهم هواهم وإضاعتهم حياتهم فى الكفر والضلال .

وحين تبغت الساعة هؤلاء المنافقين - مع بدو علاماتها وتحققها واحدة بعد أخرى[1] - يندمون على ما ضيعوا فى حياتهم وفوتوا من أعمارهم ،

---

(١) تواترت الأخبار التاريخية والوقائع وأحوال الناس والأمم على تحقق خبر الله من مجئ علامات الساعة باختلاف أنواعها مادية ومعنوية وغيرها ، وفى مقدمتها بعثة الرسول ﷺ نفسه كما ذكرنا من قبل ، ولهذا يسمى النبى ﷺ نبى التوبة ، والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه والعاقب الذى ليس بعده نبى ، مع ملاحظة النسبية والاعتبارية فى الزمن التى أشرنا إليها قبلا ، وإلا فما مضي من عمر البشرية فى ظل الرسالة الأخيرة لا يتناسب أبدا مع عظمة الرسالة الأخيرة وما نيط بها من الهداية للبشرية بعد نضجها فى مقابل ما مضى من عمرها قبل هذا النضج .

ولات ساعة مندم ، فلا مجال للتوبة ولا للعمل الصالح ولا للتذكر ، فالوقت حينذاك للمجازاة لا للعمل ولا لتدارك ما ضاع بتوبة أو ندم .

٦ - ذكر العلماء فى آية التوحيد والاستغفار لطائف منها أن النبى ﷺ له أحوال ثلاث : حال مع الله تعالى ، وحال مع نفسه ، وحال مع غيره ، فهو مع الله مطالب أن يوحده ، ومع نفسه مطالب بالاستغفار لذنبه وطلب العصمة من الله أن يقع فى ذنب، وأما مع المؤمنين فبطلب الغفران لهم وللمؤمنات ، وفى تقديم الأمر بالتوحيد على غيره هنا إيذان بمزيد شرف التوحيد فإنه أساس الطاعات ونبراس العبادات[١] .

ومنها أن أمره ﷺ بالاستغفار كناية عما يلزمه من التواضع وهضم النفس والاعتراف بالتقصير ، لأنه ﷺ معصوم أو مغفور له لا مصر ولا ذاهل عن الاستغفار ، وعلى ذلك فما يستغفر منه ﷺ هو ما يتركه من الأولى والأليق بمنصبه الجليل ، وليس ذنبا فيما نفهمه نحن وإن سماه الله ذنبا ، فإن لله أن يسمى الأشياء بما يشاء وقد ذكروا أن لنبينا ﷺ فى كل لحظة عروجا إلى مقام أعلى مما كان فيه ، فيكون ما عرج منه فى نظره الشريف ذنبا بالنسبة إلى ما عرج إليه فيستغفر منه .

٧ - فى تقرير الله لعلمه بالمتقلب والمثوى ذهب عامة المفسرين والعلماء إلى تخصيص المتقلب بالدنيا والمثوى بالآخرة[٢] ، قالوا لأن كل أحد

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٥٢١/٧ ، روح المعانى ٥٥/٢٦ .

(٢) راجع : التفسير الكبير ٥٢١/٧ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٦ ، روح المعانى ٦٦/٢٦ .

متحرك فى الدنيا دائما نحو معاده غير قار ، وفى الآخرة مقيم لا حركة له نحو دار وراءها ، والقول بعمومها فى كل متقلب وفى كل إقامة هو اختيار أبى حيان ، ونحوه ما قيل : المراد يعلم جميع أحوالكم فلا يخفى عليه سبحانه شئ منها ، وغاية ذلك تحذيرهم من جزائه وعقابه ، أو الترغيب فى امتثال ما يأمرهم به جل شأنه والترهيب عما ينهاهم عنه عز وجل[1] .

(١) انظر : روح المعانى ٦٦/٢٦ .

## المقطع السادس

### جبن المنافقين وفرارهم من تكاليف الإيمان

قال تعالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ٢١ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ٢٤ » .

**التحليل اللغوى والقراءات :**

**لَوْلَا** : هى كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، وتسمى لولا التحضيضية التى بمعنى هلاً ، أى هلاً نزلت سورة ، وتكون بهذا المعنى فى بعض أحوالها ، وتعرف فى الكلام إذا لم يكن لها جواب فيه كقوله تعالى : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ » ( التوبة ١٢٢ ) ، وقوله تعالى : « فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » ( يونس ٩٨ ) ، ومثلها « لوما » كما فى قوله تعالى : « لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » ( الحجر ٧ ) ، أى هلا تأتينا .

فإذا رأيت للولا جوابا فى الكلام كانت بمعنى امتناع أمر لوجود غيره كما فى قوله تعالى : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ » ( الصافات ١٤٣ - ١٤٤ )[١] ، وروى عن ابن مالك فيها أن « لا » زائدة ، والتقدير لو أنزلت سورة ، وليس بشئ[٢] .

**سُورَةٌ** : السورة جملة من آى القرآن الكريم مستقلة ذات بداية ونهاية معلومتين شرعا وتوقيفا[٣] ، وأصل هذه التسمية فى اللغة إما من السورة وهى عرق واضح فى حائط السور يحدد ويحيط ما بينه وما يليه ، كأن السورة القرآنية تحيط بآياتها المشتملة عليها وتحددها ، بحيث لا تسمح بزيادة عليها أو نقص منها ، وإما من السورة بمعنى المنزلة والمرتبة كقولهم : له سورة فى المجد ، أى رفعة ، وله سورة عليك ، أى فضل ومنزلة ، فتسمية القطعة من القرآن سورة لأنها رفعة ودرجة إلى غيرها ، كأن كل سورة من سور القرآن الكريم من وعاها وفهمها فقد وصل إلى منزلة من العلم ومرتبة من الثقافة والمعرفة توجب الحرص عليها والسرور بها ، ومن هذا فى اللغة ما أنشدوه للنابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ⠀⠀⠀ ترى كل ملك دونها يتذبذب ؟

---

(١) راجع : تأويل مشكل القرآن ص ٥٤٠ - ٥٤١ .

(٢) انظر : روح المعانى ٢٦/٦٦ .

(٣) راجع : البرهان فى علوم القرآن ١/٢٦٤ .

أى أعطاك رفعة وشرفا ومنزلة[1] .

**فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ** : الإنزال والتنزيل ، وأصلهما من النزول والفرق بينهما تقدم فى تفسير الآية الثانية فى المقطع الأول ، وهذا الجزء من الآية بضبطه وبناء الفعلين للمفعول هو ما عليه الجمهور فى القراءة ، وهى قراءة حفص عن عاصم .

وقرأ بعضهم « نَزَلَتْ » بالبناء للفاعل من نزل الثلاثى المجرد ورفع « سُورَةٌ » على الفاعل ، كما قرأ زيد بن على « نَزَلَتْ » كذلك ، غير أنه نصب « سُورَةً مُحْكَمَةً » ، وخرج ذلك على كون الفاعل ضمير السورة ، و « سُورَةً مُحْكَمَة » نصب على الحال ، وقرأ هو وابن عمير « وَذَكَرَ » مبنيا للفاعل وهو ضميره تعالى ، و « القتالَ » بالنصب على أنه مفعول به[2] .

**مُّحْكَمَةٌ** : المحكم من آيات الله فى كتابه مالا يعرض له شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى[3] فهو محكم مبين لا احتمال فيه لوجه آخر غير حقيقته وما يظهر منه[4] ، وروى عن عبد الله بن مسعود قراءة

(١) البرهان فى علوم القرآن ٢٦٤/١ ، أساس البلاغة ص ٢٢٤ ، لسان العرب ، مادة : سوز ٢١٤٧/٣ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٦ ، فتح القدير ٣٧/٥ ، روح المعانى ٦٦/٢٦ .

(٣) راجع : المفردات ص ١٨٢ .

(٤) يدخل فى معنى الإحكام العام كون السورة محكمة بالحلال والحرام لا يراد بأى منهما غير ذلك ، وكونها غير منسوخة الأحكام ، بل كل ما فيها من حكم معمول به أبدا كما أشرنا من قبل روى عن قتادة من مفسرى التابعيين قوله : كل سورة فيها القتال فهى محكمة ، وهو أشد القرآن على المنافقين ، وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن لا بخصوصية هذه الآية ، والمتحقق أن آيات القتال غير منسوخة وحكمها باق إلى يوم القيامة ، انظر : التفسير الكبير ٥٢٢/٧ ، روح المعانى ٦٦/٢٦ .

الكلمة « محدثة » أى محدثة النزول بعد ما نزل قبلها[1] .

**ذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ** : القتال معروف وهو مصدر قاتل بمعنى المقاتلة والمحاربة ، مفاعلة بين طرفين ، والمراد به جهاد العدو فى الحرب ، وذكره فى السورة فرضه وإيجابه على المؤمنين الذين تشوفوا إلى نزول سورة يؤمرون فيها بالجهاد بعد أن منعوا منه طويلا حال ضعفهم[2] .

**فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ** : المراد بهؤلاء المنافقون ، ومرض قلوبهم هو الشك والنفاق والخداع سماه الله مرضا ، لأن النفاق فتور فى الإيمان والقلب ، كما أن مرض الجسد ضعفه وفتوره .

وقد شاع فى القرآن الكريم التعبير عنهم بذلك كما هنا وكما فى قوله بعد : « **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ** » ( محمد ٢٩ ) ، فإذا أراد به غيرهم ممن يضاهونهم من ضعاف الإيمان أو الذين يعبدون الله على حرف وغيرهم - ذكر المنافقين بصفة النفاق لا غير ، قال تعالى عنهم : « **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا** » ( البقرة ١٠ ) ، وقال : « **وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٦ ، فتح القدير ٣٧/٥ .

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٤٣/١٦ ، روح المعانى ٦٦/٢٦ .

مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ »
( التوبة ١٢٤ - ١٢٥ )[1].

**المُغْشِيّ** : اسم المفعول من غشى اللازم ، وأصل معناه التغطية ، وغشى عليه غشية وغشيا وغشيانا ، أغمى ، فهو مغمى عليه ، أى مغطى على عقله وفهمه[2] بما نابه وأصابه ، والمراد به هنا المحتضر الذى شخص بصره فلا يطرف ، شبه به المنافقون فيما نابهم من الهلع والفزع عند هول المفاجأة بتكليفهم[3] بالقتال - لدخولهم فيه مع المؤمنين بحسب ظاهر حالهم وتوطنهم على الكفر فى حقيقة أمرهم - وهو مما لا يتفق مع لؤمهم وجبنهم .

---

(١) قارن ذلك بما جاء فى قوله تعالى : « إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ » ( الأنفال ٤٩ ) وقوله تعالى : « وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا » ، « لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا » ( الأحزاب ١٢ ، ٦٠ ) .

(٢) انظر : المفردات ص ٥٤١ ، لسان العرب ، مادة : غشى ٥ / ٣٢٦١ .

(٣) للمفسرين فى سبب شخوص أبصار المنافقين أقوال عدة غير ذلك منها : - أن تحديق نظرهم وتحديده - وهم مغموصون مغتاظون - لشدة عداوتهم له ﷺ ، ومنها أن ذلك من خشية فضيحتهم ، فإنهم إن تخلفوا عن القتال افتضحوا وبان نفاقهم ، ولا يبقى لنفاقهم فائدة ؛ إذ كانوا قبل القتال يترددون إلى الفريقين ، وعند الأمر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك . انظر : روح المعانى ٢٦ / ٦٧ ، التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ .

**فأولى لهم** : فى تصريف أولى واشتقاقها ومعناها وإعرابها أقوال كثيرة نقلها المفسرون نذكر طرفا منها ، فأولى تهديد ووعيد ، أو دعاء بالهلاك ، واشتقاقه من الولى وهو القرب ، وقد غلب استعماله فى قرب الهلاك كما قال الأصمعى ، أى قارب هلاكهم وعطبهم ، وأولى أفعل من الويل وهو الهلاك على القلب المكانى ، وأصله أويل ، ومن معانى « أولى » الأحق والأجدر تقول : فلان أولى بهذا الأمر أى أحق به وأجدر ، ومنه قوله تعالى : « **النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** » ( الأحزاب ٦ [١] ) .

والتركيب مبتدأ وخبر ، والأحسن أن يكون أولى خبرا لمبتدأ محذوف يقدر فى كل مقام بما يليق به ، وهو هنا إما العقاب أولى لهم [٢] أو الموت أولى لهم ، كأن الله تعالى لما حكى عنهم نظرهم نظر المغشىّ عليه من الموت قال : إن الموت أولى لهم ؛ لأن الحياة التى لا فى طاعة الله ورسوله الموت خير منها [٣] .

وعلى جميع هذه الأقوال تم الكلام والوقف عليه [٤] ، وما بعده مستقل عنه ، وقد يكون « أولى » مبتدأ و « طاعةٌ » بعده خبر ، أو العكس . كأنه قيل : فأولى بهم من النظر إليك طاعة وقول معروف ، فلا يكون الكلام

---

(١) انظر لسان العرب . مادة : ولى ٦ / ٤٩٢١ ، المفردات ص ٨٣٩ .
(٢) راجع فى هذا : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٤ ، فتح القدير ٥ / ٣٨ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٧ .
(٣) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ .
(٤) انظر : المكتفى ص ٥٢٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٤ .

السابق مستقلا ، ولا يوقف على « لَهُمْ » [1] .

**طَاعَةٌ ... مَعْرُوفٌ** : الطاعة ومثلها الطوع - الانقياد ضد الكره اسم من أطاعه يطيعه طاعة ، وأكثر ما تقال فى الائتمار لما أمر ، وفى الحديث « لا طاعة فى معصية الله [2] » يريد طاعة ولاة الأمر إذا أمروا بما فيه معصية [3] .

والمعروف ضد المنكر ، وهو اسم لكل فعل أو قول يعرف بالشرع أو العقل الصحيح حسنه وخيريته ، وتطمئن إليه النفس السوية ، أو عكس ذلك ، فمن الأول قوله تعالى : « **إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ** » ( النساء ١١٤ ) ، وقوله : « **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** » ( البقرة ٢٦٣ ) ، ومن الثانى ما معنا هنا ، وما جاء فى قوله تعالى عن المنافقين : « **قُل لاَّ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ** » ( النور ٥٣ ) .

ومثل المعروف العرف وإن كان فى الإحسان خاصة كقوله تعالى :

« **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** » ( الأعراف ١٩٩ [4] ) .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٤ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٨ .

(٢) هذا جزء من حديث لعلى بن أبى طالب أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة - باب وجوب طاعة الأمراء فى طاعة الله . الصحيح ٣ / ١٤٦٩ .

(٣) انظر : المفردات ص ٤٦١ ، لسان العرب مادة : طوع ٤ / ٢٧٢٠ .

(٤) انظر : لسان العرب ، مادة : عرف ٤ / ٢٨٩٩ ، المفردات ص ٤٩٦ .

وجمهور العلماء على أنه كلام مستأنف إما مبتدأ لخبر محذوف أى طاعة مخلصة وقول معروف خير لهم ، أى أحسن وأمثل ، وإما خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : الأمر المرضىّ لله طاعة وقول معروف ، أو أمرهم طاعة معروفة وقول معلوم حاله أنه خديعة [1] .

ومثل خداعهم بإعلان الطاعة ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » ، « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » ( النور ٤٧ ، ٥٣ ) ، « وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ » ( النساء ٨١ ) .

**إِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ** : أى جد ، والعزم هنا القوة والجد [2] وعقد القلب على الفعل وإمضاء الأمر ، وعزم الأمر أى عزم عليه ، فهو فاعل معناه المفعول كقولهم : هلك الرجل فإنه لا يَهلك ، بل يُهلك ، والأمر هنا أريد به القتال ، أى إذا جد الأمر ولزم فرض القتال ، وقد يكون هذا مجازا أسند فيه العزم إلى الأمر وهو لأربابه ، كما فى قوله تعالى : « إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » ( لقمان ١٧ ) .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٨ .

(٢) للعزم معان أخرى منها الصبر والتوكيد على الأمر والحزم فى الشئ وغيرها ، انظر : لسان العرب ٤ / ٢٩٣٢ .

وجواب الشرط إما محذوف للعلم به فيكون تقديره إما كرهوا هذا الفرض والتكليف ، وإما ناقضوا وتعاصوا ، كأنهم فى أول الأمر قالوا خداعا سمعا وطاعة وعند آخر الأمر خالفوا وأخلفوا ما وعدوه [١] ، وإما أن يكون جواب الشرط هو الجملة الشرطية بعد « فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ » .

**فَلَوْ صَدَقُوا** : لو حرف امتناع ، أى امتناع تحقق جوابها بسبب امتناع تحقق شرطها ، وقد امتنع هنا تحقق الخيرية لهؤلاء لامتناع صدقهم مع الله ، والصدق - وضده الكذب - أصله فى القول ماضيا أو مستقبلا ، وعدا أو غيره ، وهو مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا [٢] .

والمراد بما كان يلزمهم الصدق فيه مع الله إما ما زعموه من الحرص على الجهاد وطلبهم نزول سورة أو فى إيمانهم واتباعهم للرسول ﷺ وإخلاصهم فى الاستماع إليه ، أو صدقهم فيما قالوا من سمعهم وطاعتهم [٣] .

**خَيْرًا لَهُمْ** : أصل الخير - عكس الشر والضر - ما يرغب فيه الكل ، كالعدل والفضل والحق والشئ النافع ، وهو والشر يقالان على وجهين أن يكونا اسمين متقابلين ، كقوله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ » ( آل عمران ١٠٤ ) ، أو يكونا وصفين تقديرهما تقدير

(١) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٨ .

(٢) قال الراغب هنا : متى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا تاما ، بل إنه لا يوصف بالصدق ، أو يوصف تارة بالصدق وتارة بالكذب على نظرين مختلفين كقول الكافر - إذا قال من غير اعتقاد - : محمد رسول الله ، فإن هذا يصح أن يقال صدق ؛ لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح أن يقال كذب لمخالفة قوله ضميره ، وبالوجه الثانى إكذاب الله تعالى المنافقين حيث قالوا : « نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » ( المنافقون ١ ) راجع : المفردات ص ٤٠٩ .

(٣) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٨ .

أفعل نحو هذا خير من هذا وأفضل ، وكقوله تعالى : « وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ [1] » ( البقرة ١٨٤ ) ، وما معنا هنا من الثانى على اعتبار ظنهم فى خيرية ما هم عليه ، ويمكن أن يكون من الأول على الحقيقة لإثبات الخيرية فحسب فى صدقهم مع الله لو صدقوه دون إثبات لها فيما هم عليه ؛ إذ لا خيرية بالمرة فى مخالفتهم ومعصيتهم [2] ، ويكون ذلك مثل قوله تعالى : « قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » ، « .... حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا » ( مريم ٧٣ ، ٧٥ ) .

فَهَلْ عَسَيْتُمْ : عسى من الأفعال الجامدة على المضى ، وإن استعملت فى معنى الحال أو الاستقبال ، ومعناه هو ولعل الرجاء والتوقع وترقب حصول ما بعدها [3] ، والقراء متفقون على فتح السين فيه إلا ما جاء

(١) راجع : المفردات ص ٢٣١ .

(٢) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٦٨ .

(٣) استشكل كثير من المفسرين تفسير لعل وعسى فى القرآن الكريم من الله باللازم ، وقالوا : إن الرجاء والطمع والترقب للشئ وتوقع حدوثه لا يصح من الله تعالى العالم بكل شئ ما كان وما هو كائن وما سيكون . وقد أجاب الفخر الرازى على ذلك بما حاصله أنهما من الله لتحقق المتوقع لأمر خارجى هو علمه تعالى ، ولا يخرجها ذلك عن معناها الحقيقى ، أما الراغب فأجاب بأن الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجيا لا لأن يكون هو تعالى الذى يرجو ويتوقع . انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ ، المفردات ص ٥٠١ .

عن نافع أنه كان يقرأ « فَهَلْ عَسِيتُمْ » بكسر السين [١] ، وإسناد الفعل إلى ضمير المخاطبين وهم أولئك الذين فى قلوبهم مرض على سبيل الالتفات لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع لهم ، والاستفهام قبله للتقرير المؤكد الذى لا يسع المسؤول معه أن يماحك أو يجادل فى إجابته ، أو يجيب بغير الإيجاب أو النفى : نعم أو لا [٢] .

**إِنْ تَوَلَّيْتُمْ** : التولى هنا إما أن يكون من الولاية والاتباع والإقبال ، ومفعوله محذوف ، أى توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم ، وذلك إذا كان الفعل متعديا بنفسه [٣] ، ومثله قوله تعالى : « **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** » ( المائدة ٥١ ) يعنى يتبعهم وينصرهم ، وقوله تعالى : « **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** » ( المائدة ٥٦ ) والمعنى على ذلك إن أخذتم الولاية وسار الناس بأمركم أفسدتم وقطعتم الأرحام .

وقد يكون التولى بمعنى الإعراض والإدبار والانصراف ، وذلك إذا عدى بحرف الجر لفظا أو تقديرا [٤] ، ومثله قوله تعالى : « **فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** » ( آل عمران ٨٢ ) ، وقوله تعالى : « **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** » ( محمد ٣٨ ) ، أى إن تعرضوا عن الإسلام ، والمعنى على

---

(١) التبصرة - لمكى ص ٢٧٢ ، لسان العرب ، مادة : عسى ٤ / ٢٩٥٠ .
(٢) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٢ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٨ .
(٣) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٣ ، وراجع أقوال المفسرين الكثيرة التى لا تخرج عن هذا المعنى فى الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٥ ، فتح القدير ٥ / ٣٨ .
(٤) راجع : المفردات ص ٨٣٨ ، لسان العرب ، مادة : ولى ٦ / ٤٩٢٥ .

ذلك إن أعرضتم عن القتال وقلتم فيه فساد وقطع لأرحام أقاربنا - فلا يقع منكم إلا ذلك حيث تتقاتلون على أدنى شئ كما كان الحال عند العرب قديما [1] .

والتولى بهذا المعنى قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار كما قال الله تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ » ( الأنفال ٢٠ ) ، أى لا تفعلوا ما فعل الموصوفون بقوله : « وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا » ( نوح ٧ ) ، ولا ترتسموا قول من ذكر عنهم « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ [2] » ( فصلت ٢٦ ) .

وفى اللفظ قراءات مرشحة للمعنى الأول للتولى كقراءة من قرأ « وُلِّيتُمْ » بالبناء للمفعول ، وكما روى عن علىّ بن أبى طالب وغيره « تُوُلِّيتُمْ » بالبناء للمفعول ، أى إن تولاكم ولاة ظلمة جفاة غشمة وسرتم تحت لوائهم وأفسدتم ، أو تولاكم الناس واجتمعوا على موالاتكم وكنتم فيهم حكاما ، هذا وجملة الشرط - إن توليتم - معترضة بين عسى وخبرها وهو جملة « أن تفسدوا [3] » .

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٣ .

(٢) المفردات ص ٨٣٨ .

(٣) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٣ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٩ .

**وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** : القطع والتقطيع فصل الشئ المتصل حسا أو عقلا [(١)] ، وقطع الرحم هجرانها وعدم وصلها وبرها ، وفي الحديث « قالت الرحم : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال الله تعالى : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ ، قالت : بلى يارب ، قال : فهو لك ، قال ﷺ : فاقرأوا إن شئتم « **فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ** » [(٢)] .

وأصل الرحم اسم لمحل الجنين من المرأة ووعائه في بطنها ، واستعير للقرابة لكون الأقرباء خارجين من رحم واحدة ، ومنه ما في الأثر « من ملك ذا رحم محرم فهو حر [(٣)] » فذوو الرحم والأرحام كل من يجمع بينك وبينه نسب ، ويطلق في الفرائض على من ليس بذى سهم فيها أو عاصب .

وفي اللفظ قراءات منها « وتقطعوا » بفتح التاء وتخفيف القاف من القطع اعتبارا بقوله تعالى : « **وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ** » ( البقرة ٢٧ ) ، ومنها « وتقطعوا » مفتوحة الحروف مشددة الطاء ، وأصله « تتقطعوا » بتاءين ، حذفت إحداهما اعتبارا بقوله تعالى : « **وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ** » ( الأنبياء ٩٣ [(٤)] ) .

---

(١) فمن الأول قوله تعالى : « فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ » ( يوسف ٣١ ) ، « لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ » ( الشعراء ٤٩ ) ، ومن الثاني « وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » ( البقرة ١٦٦ ) أي انقطعت أسبابهم ووصلهم ، « وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ » ( البقرة ٢٧ ) ، انظر : المفردات ص ٦١٥ ، لسان العرب مادة : قطع ٥ / ٣٦٧٤ .

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الأدب ، باب من وصل وصله الله ، راجع : فتح الباري ١٠ / ٤١٧ .

(٣) أخرجه أبو داود موقوفا على عمر بن الخطاب من طريق سعيد عن قتادة ، كما أخرجه مرفوعا عن سمرة بن جندب من طريق حماد عن قتادة عن الحسن ، قال أبو داود : سعيد أحفظ من حماد ، راجع : سنن أبي داود ، كتاب العتق ٤ / ٢٧ .

(٤) راجع في هذه القراءات : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٦ ، فتح القدير ٥ / ٣٨ ، روح المعاني ٢٦ / ٦٩ ، الغاية ص ٢٦٢.

**لَعَنَهُمُ** : اللعن الطرد والإبعاد على سبيل السخط ، وذلك إن كان من الإنسان فهو دعاء على غيره ، وإن كان من الله فيكون فى الآخرة عقوبة وعذاب ، وفى الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه (١) .

**فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى** : الأول من الصمم وهو فى الأصل فقدان حاسة السمع فى الأذن وذهابه ، والثانى من العمى وهو فى الأصل ذهاب البصر كله ، ويقال فى افتقاد البصيرة ، وبهما يوصف من لا يصغى إلى الحق ولا يبصره وإن كان سميعا بصيرا ، قال تعالى : « **وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا** » ( المائدة ٧١ ) ، وعلى هذا أصمهم الله وأعمى أبصارهم أصابهم بالصمم والعمى ، وفى إيقاع الصمم على ذواتهم لا آذانهم ، وإيقاع العمى على أبصارهم لاذواتهم حكمة لطيفة تأتى فى التفسير والبيان .

فإن قال قائل كيف جعل الله الكافرين فى قوله تعالى : « **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** » ( البقرة ١٧١ ) صما وهم يسمعون وعميا وهم يبصرون ؟ ، والجواب فى ذلك أن سمعهم لما لم ينفعهم لأنهم لم يعوا به ما سمعوا ، وبصرهم لما لم يجد عليهم لأنهم لم يعتبروا بما عاينوه من قدرة الله وخلقه كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر (٢) .

---

(١) المفردات ص ٦٨١ .

(٢) المفردات ص ٤٢٢ ، ٥٢٠ ، لسان العرب ، مادتى : صمم وعمى ٤ / ٢٥٠١ ، ٣١١٥ .

**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ** : هو من التدبر ، وتدبر الأمر التفكر فيه والنظر فيما تؤول إليه عاقبته ، مأخوذ من دبر الشئ وآخره الذى يقابل صدره وأوله ، ومنه قول العربى لبنيه : يا بنى لا تتدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها [١] ، والمراد أنهم لا يتفكرون فى القرآن الكريم فيفهمونه ويعملون بما فيه من الدلائل والمواعظ حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر وعمل المعصيات ، فهمزة الاستفهام إذن لإنكار ما هم عليه من عدم التدبر [٢] .

**أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** : قد تكون أم هى المتصلة بمعنى أو ، ويكون الكلام تمثيلا لعدم وصول الذكر إليهم وانكشاف أمرهم ، كأنه قيل : أفلا يتدبرون القرآن ، إذ وصل إلى قلوبهم أو لم يصل إليها ؟ ونظيرها هنا قوله تعالى : « **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا** [٣] » ( الملك ١٦ - ١٧ ) ، وقد تكون هى المنقطعة التى بمعنى بل المفيدة للإضراب ، ويكون فى الكلام انتقال من التوبيخ بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر ، وحينئذ تكون همزة الاستفهام السابقة للتقرير لا للإنكار .

وتنكير القلوب هنا للتنبيه على قساوتها وجهالتها ، فإن النكرة بالوصف أولى من المعرفة ، وحتى يدخل فيها قلوبهم وقلوب غيرهم ممن

---

(١) المفردات ص ٢٣٨ ، لسان العرب ، مادة : دبر ٢ / ١٣٢١ .

(٢) انظر : فتح القدير / ٣٨ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٤ .

(٣) انظر : تأويل مشكل القرآن ص ٥٤٦ .

كانوا ويكونون بصفتهم ، وقد يكون التنكير للتنبيه على الإنكار الذى فيها ، لأن القلب - وقد خلق للمعرفة - إذا عدمها كان منكرا لا يعرف [١] .

والأقفال جمع قُفْل وهو ما يغلق به الباب فلا يدخل فيه شئ ولا يخرج عنه ، وأصله ما ييبس وصلب [٢] واستعير هنا لانغلاق القلب عن معرفة الحق وارتتاجه وخلوه عن الإيمان فلا يدخل فيه ، ولا يخرج الكفر منه ، وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب [٣] وأنها أقفال مخصوصة بها مناسبة لها غير مجانسة لسائر الأقفال المعهودة ، وقد قرئ اللفظ بكسر الهمزة « إقفالها » مصدرا من الإفعال كالإقبال ، كما قرئ « أقفلها » بالجمع على أَفْعُل [٤] .

**التفسير والبيان :**

يعرض لنا هذا المقطع صورة أخرى للمنافقين يتضح فيها ازدواجهم ويفتضح بها عوارهم ، عندما ظهر مستورهم وانكشف خبيؤهم حين ووجهوا عمليا بمقتضى الإيمان الذى زعموه وانخرطوا به فى صفوف المؤمنين .

ويأبى الله إلا أن يكون ذلك على رؤوس الأشهاد حتى لا يمكنهم الإفلات هذه المرة من دمغهم بالكفر ، ولا يعودون إلى المزايدة على المؤمنين

(١) يوضح الفخر هذا بقوله عن الإنسان المؤذى : إنه ليس بإنسان وقلبه ليس بقلب ، هذا حجر ، انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٤ .

(٢) لسان العرب ، مادة : قفل ٥ / ٣٧٠٧ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٧ ، فتح القدير ٥ / ٣٨ .

(٤) انظر : فتح القدير ٥ / ٣٨ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٤ .

بعد سقوطهم عند أول اختبار يواجهونه وبعد أن عرف الناس عنهم الجبن والخور الذى تنخلع له القلوب ، والذعر والهلع الذى تشخص معه الأبصار .

كما كشف لهم هذا المقطع ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق وأصروا على مخالطتهم المسلمين بموقف زائف وإيمان مزعوم .

هذا ولا تفتأ الآيات تقرر ذلك فى إطار من الموازنة بين موقفهم وموقف المؤمنين من هذه التكليفات الشرعية والآيات العملية ، فقد كان المؤمنون المخلصون - ومعهم هؤلاء المنافقون الكاذبون فى ظاهر حالهم (١) - يتطلعون إلى نزول سورة جديدة من القرآن الكريم الذى يؤمنون بكل كلمة فيه ويجدون فى تلاوته والعكوف عليه وتدبر آياته سعادتهم كاملة ، فهم دائما يتشوفون إلى المزيد من وحيه تعالى وبخاصة عندما يشغل بالهم أمر من الأمور أو قضية من القضايا يحتاجون إلى الحكم الفاصل واستبانة وجه الحق فيها (٢) .

وقد كانت قضية الجهاد ومدافعة الكفار فى ذلك الوقت قضية القضايا ، وأهم ما يشغل بال المسلمين آنذاك بعد أن منعوا كثيرا منه ، فيقولون - متمنين - هلا نزلت عليهم سورة تأمرهم بقتال الكفار أمرا صريحا وتؤسس لهم شرعيته لاسترداد حقوقهم ورد ظلمهم ، ودرء المخاطر

(١) لم يطلب المنافقون نزول سورة مثل المؤمنين ، ولكن علم ذلك من ذكر حالهم بعد نزول السورة على سبيل الاحتباك .

(٢) لا يتعارض ذلك مع ما روى عن ابن جريج - من مفسرى التابعين - من أن المطلوب فى قوله تعالى : « لَوْلاَ نُزِّلَتْ سُورَةٌ » إنزال سورة مطلقا ، حيث كانوا يستأنسون بالوحى ويستوحشون إذا أبطأ . انظر : روح المعانى ٢٦ / ٦٧ .

عنهم فى الدنيا ، مع ما ينالونه من الثواب العظيم والنعيم المقيم الذى أعده الله للمجاهدين فى الآخرة .

فإذا ما استجاب الله للهفة المؤمنين وشوقهم وأنزل سورة من القرآن الكريم فاصلة فى هذا الأمر وأمرت بالقتال أمرا لا يحتمل تأويلا أو تسويفا ، وبينت حكم المتخلفين عنه ، أو أوضحت شأنا من شؤونه أو أثنت على المجاهدين المبادرين لحمل رايته - فرح بها المؤمنون واغتبطوا لحرصهم على التضحية والإسهام فى إعلاء كلمة الله وبذلهم النفس والنفيس فى سبيله (١) .

أما المنافقون مرضى القلوب وفاسدو الأفئدة والضمائر الذين تظاهروا بالإيمان وقلوبهم منطوية على الكفر - فلم يفرحوا أو يغتبطوا ، بل كاعوا (٢) وشق عليهم التكليف بالقتال ففقدوا تماسكهم ، واختل اتزانهم وسقط فى أيديهم ، وانكشف جزعهم وضعف نفوسهم ، وسقط عنهم ستار الرياء الذى استتروا به ، وبدوا فى حالة تزرى بالرجال يعبر عنها القرآن الكريم بما لا يمكن محاكاته ولا ترجمته إلى عبارة أخرى ولا يتأتى تصوره وإدراكه إلا لمن رأوا محتضرا يغالب الموت ويكابد انتزاع الروح من جسده ، وهو كاره لمفارقة الدنيا ولما هو منكشف له من آثار ومقدمات عمله السئ فيها حيث يشخص ببصره فى خوف وذهول وشدة تحديد وتحديق وهو مغمى عليه يتردد بين الحياة والموت .

---

(١) لم يذكر الله حال المؤمنين وأثر نزول السورة التى طلبوها عليهم ، ولكن علم ذلك من ذكر طلبهم نزولها على سبيل الاحتباك .

(٢) كاع عن الشئ إذا هابه وجبن عنه ، انظر : لسان العرب ٥ / ٣٩٥٦ ، الكشاف عن حقائق التنزيل ٣ / ٥٣٥ .

وهذه صورة مركبة تعكس جبن المنافقين وهلعهم وخشية افتضاحهم فى جهة ، وغيظهم وحنقهم من رسول الله ﷺ وعداوتهم له فى جهة أخرى ؛ إذ أنهم ما أخذوا الأمر مأخذ الجد ، ولا كانوا صادقين فى تظاهرهم بالإيمان والانخراط فى صفوف المؤمنين حتى وجدوا أنفسهم فى هذا الموقف المهين الذى لا علاج له إلا بإهلاكهم واستئصالهم من هذه الحياة .

ومن ثم تسجل الآيات عليهم استحقاقهم هذا الهلاك والاستئصال والدعاء عليهم به ، وقد كان أولى بهم وأحسن [1] لهم بدلا من هذا كله أن يصدقوا فى زعمهم الطاعة ويستسلموا لأمر الله عن يقين ، وأن يتخلوا عن منهجهم المفضوح فى إعلانهم الصاخب الكاذب التزام السمع والطاعة وهم فى الحقيقة يبيتون غير الذى يقولون ، وألا يتفوهوا بغير الصدق والمعروف والطيب من القول الذى هو عنوان القلب المؤمن وبرهان الضمير الحى .

ومن الطاعة هنا إذا عزم الأمر وجد الجد ودعا داعى الجهاد أن لا يتخلفوا خوفا وفرقا ، أو جبنا وخورا ، بل تصدق عزائمهم وتستجيب مشاعرهم ويخوضوا المعارك فى استبسال من لا يهاب الموت ، ولا يتشبس بالحياة حتى يربط الله على قلوبهم ويثبت أقدامهم ، وييسر مشاق الجهاد عليهم ، فلا يكون من وراء ذلك كله إلا الخير إما النصر والنجاة وإما الاستشهاد والجنة ، ولكن أنى لهم أن يصدقوا الله ولم يصدقوا أنفسهم ؟ ! .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٧٨ ، روح المعانى ٢٦ / ٦٨ فى ظلال القرآن ٦ / ٣٢٩٦ .

لقد كانوا يعللون تخلفهم ويسترون جبنهم وتركهم القتال وإعراضهم عنه بقولهم : إن القتل والقتال فيهما إفساد وفساد ، والعرب الذين نقاتلهم من ذوى أرحامنا وقبائلنا ، فكيف نقوم بقطع أرحامنا بقتالهم وقتلهم ؟ .

ولم يكن بد أمام مغالطتهم هذه ومماحكتهم المكشوفة إلا أن يلتفت السياق إليهم محذرا ومنذرا ، ويجبههم مقرعا وموبخا ، وهو يقررهم بواقع حالهم الذى لا يستطيعون نكرانه أبدا فى هذا الاستفهام المخزى الذى لا يملكون معه إلا الإجابة بما يفضحهم ، ألستم إن أعرضتم عن القتال ورفضتم الاستجابة لداعى الجهاد وقعدتم عن نصرة الحق والإيمان يقع منكم الفساد والإفساد وتقوم الحروب بينكم لأوهى الأسباب ؟ ماذا تقولون فى ذلك ؟ إصلاح فى الأرض هذا ووصل لأرحامكم ؟ .

وماذا تقولون فى قتلكم البنات ووأدهن بمنطق جاهليتكم ؟ أإصلاح فى الأرض هذا كذلك ووصل لأرحامكم ؟ أم ماذا يكون هذا وذاك ؟ .

وإذن فليس رفضكم القتال فى صفوف المسلمين من أجل الإبقاء على القبائل الأخرى ، ولا بسبب صلة الرحم التى تربطكم بهم ، ولا بقصد نشر ألوية السلام فى ربوع الجزيرة ، إنما هو كفركم المستور وجبنكم المفضوح مادمتم مصرين على ضلالكم وعلى ما ألفتموه من إفساد فى الأرض وانغماس فى الشهوات ، فأى فرق بينكم الآن وما كنتم عليه فى الجاهلية قبل الإسلام تفسدون فى الأرض وتقطعون أرحامكم ؟ .

ويبدو من واقع أحوال هؤلاء وظاهرهم أنهم لم يستجيبوا لتحذير الله إياهم ، وقادهم مرض قلوبهم ونفاقهم إلى التولى والإعراض عن واجبات

الإيمان الحق ، بل إلى الخروج عن هذا الأمر الذى دخلوا فيه بظاهرهم ولم يستيقنوه بقلوبهم فاستحقوا إبعادهم عن رحمة الله وطردهم وحجبهم عن هدايته وخيره ، ومن ثم يقرر السياق ذلك عنهم ويؤكد هذا لهم بما أخبر من أن الله أفقدهم الانتفاع بما يسمعون والاعتبار بما يبصرون ، وكيف يتسنى الانتفاع بمسموع أو الاعتبار بمرئى لمن أصمه الله وأعمى بصره ؟ ! وماذا يفيد الاستماع لمن تصام عن الحق وآياته ؟ وماذا تجدى الرؤية لمن تعامى عن الآيات والدلائل ولا يرى طريق الحق والنور ؟ .

إن أمثال هؤلاء من الصم والعمى يتقلبون بين حالين مستنكرين فإما أنهم لا يتدبرون القرآن ولا يتصفحونه ليفيدوا بما فيه من الهداية ويقفوا على مواعظه وزواجره فلا يقعوا فى الموبقات والمهالك ، ولو فعلوا ذلك وتفكروا فى القرآن وتدبروه لزالت غشاوات عيونهم فرأوا وانسكب النور فى قلوبهم فاهتدوا ، وتخلصت ضمائرهم من ظلمات الضلال ، وإما أنهم يتدبرون القرآن فلا يفهمونه ولا تدخل معانيه فى قلوبهم لاستغلاقها - استغلاق الأقفال على أبوابها - فهى تحول بينها وبين هدايته [(١)] .

هذا ومن لطائف التفسير فى هذا المقطع ما يذكره المفسرون .

١ - فى أسلوب الآية الأولى أسند فيها طلب نزول السورة إلى المؤمنين ، فحين استجيب لقولهم كان جواب الاستجابة وأثرها مسندا إلى

---

(١) هذا حاصل المعنى باعتبار أم على حقيقتها الاستفهامية المتصلة ، وعلى انقطاعها بمعنى بل تكون للانتقال من توبيخ المنافقين بترك التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التفكر والتدبر . انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٤ .

المنافقين على ما علمناه فى التفسير والبيان ، وقد قال المفسرون عن هذا اللون من التعبير إنه ضرب من بديع الكلام يسمى بالاحتباك ، فحيث أثبت القول وتمنى نزول السورة للذين آمنوا أغفله بالنسبة للمنافقين - وقد كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم - وقد علم ذلك من أثر نزول السورة الذى أثبت لهم بعد نزولها .

وكما أسند القول والتمنى لجانب واحد وهم المؤمنون اكتفى بأثر نزول السورة وإسناده إلى جانب واحد وهم المنافقون ، وقد علم من مفهومه أثر ذلك من الغبطة والفرحة على الجانب الآخر وهم المؤمنون .

ونظير ذلك فى القرآن كثير حيث يؤتى فى الكلام بمتقابلين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثانى والعكس ، أو كما عبر عنه صاحب البرهان أن يجتمع فى الكلام متقابلان فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه كقوله تعالى : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً » ( التوبة ١٠٢ ) أى عملا صالحا بآخر سئ ، وآخر سيئا بصالح ، وقوله تعالى : « قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ » ( آل عمران ١٣ ) ، فقد أفاد بقوله : « كافرة » أن الفئة الأولى مؤمنة ، وبقوله : « تقاتل فى سبيل الله » أن الأخرى تقاتل فى سبيل الطاغوت[1] .

---

(١) انظر : التحبير فى علم التفسير - السيوطى ص ٢٨٢ .

٢ - يجئ تصوير الله سبحانه وتعالى لجبن المنافقين وفرارهم من تكاليف الإيمان بما لا يمكن محاكاته أو التعبير عنه بغير عبارة القرآن الكريم « يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » ، فهو يرسم الخوف إلى حد الهلع والضعف إلى حد الرعشة ، والتخاذل إلى حد الغشية ويبقى بعد ذلك تعبير القرآن الكريم متفردا حافلا بالظلال والحركة التى تشغف الخيال ، وهى صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان صادق ولا بفطرة صافية ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر ، وهى هى طبيعة المرض والنفاق [١] .

٣ - نقل القرطبى فى تفسيره تعميم الخطاب لكل من تولى عن الإيمان وتكاليفه وبات على شعبة من نفاق ، إنه مقبل لا محالة على الإفساد فى الأرض بسفك الدماء وتقطيع الأرحام ، قال قتادة : كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ؟ ! ألم يسفكوا الدماء الحرام ويقطعوا الأرحام وعصوا الرحمن » ؟ ، فالرحم على هذا رحم دين الإسلام والإيمان التى قد سماها الله أخوة بقوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » ( الحجرات ١٠ ) ، وبالجملة فالرحم على وجهين : عامة وخاصة ، فالعامة رحم الدين ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم ، وترك مضارتهم والعدل بينهم والنصفة فى معاملتهم والقيام بحقوقهم ، وأما الرحم الخاصة وهى رحم القرابة من طرفى الرجل أبيه وأمه ، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة [٢] .

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن ٦ / ٣٢٩٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٧ .

٤ - لما بين الله حال المنافقين الكافرين فى المقطع السابق من عبثهم بتعاليم الدعوة وتلهيهم عنها عند استماعهم للآيات العلمية من التوحيد والبعث والحشر وغيرها ، وحال المهتدين المؤمنين الذى زادهم الله بهذه الآيات هدى على اهتدائهم - بين فى هذا المقطع حال هؤلاء وأولئك فى الآيات العملية التكليفية « فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها ، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول : هلا أمرت بشئ من العبادة خوفا من أن لا يؤهل لها ، والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية وفيها تكليف شق عليه ، وليعلم - بذلك - تباين الفريقين فى العلم والعمل ، حيث لا يفهم المنافق العلم ولا يريد العمل والمؤمن يعلم ويحب العمل (١) » .

٥ - وحين أخبر الله عن المنافقين الملعونين لتوليهم عن الإيمان الحق وفرارهم من تكاليفه وما يترتب على ذلك من إفسادهم فى الأرض وتقطيع أرحامهم - بأنه أصمهم فلا يسمعون الكلام المستبين وأعمى أبصارهم فلا يتبعون الصراط المستقيم ، حين أخبر عن ذلك كان فيه من الترتيب الحسن ما فيه ، حيث إنهم استمعوا الكلام العلمى ولم يفهموه ، فهم بالنسبة إليه صم أصمهم الله ، وعند أمرهم بالعمل تركوه وعللوا بكونه إفسادا وقطعا للرحم ، وهم كانوا يتعاطونه عند النهى عنه ، فلم يروا حالهم وما هم عليه ، وتركوا اتباع النبى ﷺ الذى يأمرهم بالإصلاح وصلة الأرحام ، ولو دعاهم من يأمر بالإفساد وقطيعة الرحم لا تبعوه فهم عمى أعماهم الله (٢) .

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٥٢١ .

(٢) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٣ .

٦ - ومن اللطائف هنا إيقاع الله الصمم على ذوات المنافقين لا على آذانهم فقال : « أَصَمَّهُمْ » وإيقاع العمى على أبصارهم دون ذواتهم فقال : « وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ » وقد قال الفخر الرازى فى ذلك إن العين آلة الرؤية ولو أصابها آفة لا يحصل الإبصار ، والأذن لو أصابها آفة من قطع أو قلع يسمع الكلام ؛ لأن الأذن خلقت وخلق فيها تعاريج ليكثر فيها الهواء المتموج ولا يقرع الصماخ بعنف فيؤذى كما يؤذى الصوت القوى ، فقال أصمهم من غير ذكر الأذن إذلا مدخل لها فى الإصمام وقال أعمى أبصارهم لأن البصر ههنا بمعنى العين والعين لها مدخل فى الرؤية [1] .

---

(٢) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٤ .

## المقطـع السـابـع

### تآمر المنافقين مع اليهود وتوليهم الشيطان

قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ٢٥ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ٢٦ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ٢٧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ٢٨ » .

**التحليل اللغوى والقراءات :**

**ارْتَدُّوا** : من الارتداد وهو - والردة - الرجوع فى الطريق الذى يجاء منه ، لكن الردة تختص بالرجوع إلى الكفر ، والارتداد يستعمل فيه وفى غيره ، ومن استعماله فى معنى الردة والرجوع إلى الكفر بعد الإسلام قوله تعالى : « وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ » ( البقرة ٢١٧ ) ، ومن الثانى قوله تعالى : « فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً » ( الكهف ٦٤ ) ، وقوله : « وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ » ( المائدة ٢١ ) أى إذا تحققتم أمرا وعرفتم خبرا فلا ترجعوا عنه .

وما معنا هنا على هذا الأخير إذا نظرنا حقيقة المرتدين على أدبارهم من المنافقين ، ويرشح له قوله تعالى بعد : « مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى » وهو من الأول إذا نظرنا ظاهر حالهم وما ادعوه وتظاهروا به فى الناس من الإيمان[1] .

---

(١) انظر : المفردات ص ٢٨١ .

**أَدْبَارِهِمْ** : جمع دبر ، ودبر كل شئ عقبه ومؤخره وهو خلاف القبل ، والمراد بهما في لغة القرآن الكريم الوراء والأمام ، والخلف وقدام ، وقبل وبعد ، قال تعالى : « **إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** » ( يوسف ٢٦ - ٢٧ ) ، والمراد هنا بأدبارهم ما كانوا عليه قبل تبينهم الهدى وخلفوه وراء ظهورهم ثم رجعوا إليه .

**الشَّيْطَانُ** : فيعال من الشطن وهو البعد عن الخير عند من جعل النون فيه أصلية ، ودليله وجودها في الجمع ، قال تعالى : « **وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ** » (الشعراء ٢١) ، ومن جعلها زائدة كان من شاط يشيط إذا هلك ، أو من استشاط غضبا حتى احترق ، والشيطان اسم لكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب قال تعالى : « **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ** » ( الأنعام ١١٢[١] ) ، وفي الحديث « إن الهوام من الجن فمن رأى في بيته شيئا فليحرج عليه ثلاث مرات فإن عاد فليقتله فإنه شيطان[٢] » .

**سَوَّلَ** : من السول والسؤل الأمنية والحاجة التي تحرص النفس عليها ، قال تعالى : « **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** » ( طه ٣٦ ) ، والتسويل منه تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة

(١) انظر : المفردات ص ٣٨٣ ، لسان العرب ، مادة شطن ٤ / ٢٢٦٥ .

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي سعيد الخدري في كتاب الأدب ، راجع : سنن أبي داود ٤ / ٣٦٥ .

الحسن ، وفى التنزيل « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » ( يوسف ١٨ ) ، أى زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون .

والمراد من تسويل الشيطان إغراؤه لهم وإغواؤه بتسهيله لهم ارتكاب العظائم وحملهم على ما يشتهونه ويتمنونه [١] ، وفى اللفظ قراءة لزيد بن علىّ على البناء للمفعول « سُوِّلَ [٢] » .

**أَمْلَى** : هو من الإملاء أى الإمداد والإمهال والإبقاء والإفساح فى الأمل ، ومنه قيل للمدة الطويلة ملاوة من الدهر ، قال تعالى : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » ( القلم ٤٥ ) أى أمهلهم ، « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً » ( آل عمران ١٧٨ ) ، أى نمهلهم ونبقيهم ، وفى الحديث « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته [٣] » ويتحدد معنى اللفظ بتحدد ما يسند إليه إما الشيطان أو ضمير الجلالة على قراءة اللفظ بالبناء للفاعل أو المفعول ، وعلى اعتبار كون الفعل ماضيا أو مضارعا [٤] .

---

(١) المفردات ص ٣٦٣ ، لسان العرب مادة : سول ٣ / ٢١٥٧ .

(٢) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٤ .

(٣) أخرجه البخارى عن أبى موسى فى كتاب التفسير باب « وكذلك أخذ ربك .... » راجع : فتح البارى ٨ / ٣٥٤ .

(٤) قراءة حفص عن عاصم والعامة « وَأَمْلَى لَهُمْ » مد لهم الشيطان فى الأمل ووعدهم طول العمر ، أو مد الله فى آجالهم وأمهلهم فى عذابهم ، وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر وغيرهما « وَأُمْلِيَ لَهُمْ » بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء على ما لم يسم فاعله ، كما قرأ مجاهد ويعقوب وغيرهما « وَأُمْلِي لَهُمْ » كسابقه إلا أنهم سكنوا الياء مضارعا على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل بهم واختاره أبو حاتم ، انظر : التبصرة ص ٥٠٨ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٩ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٥ .

**قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا** : فى تحـديد القـائلين وتحـديد المقـول لهم الكارهين لما نزل الله خـلاف بين العلمـاء يجـمعـه كل من صح صـدور هذا القول منهم من مرضى القلوب والحانقين على الإسلام المضارين من ظهوره ، ومن تحققت فيهم الصلة ووقع منهم النفور والكراهية لما أنزل الله من تعاليم دينه الذين يجمع الله ثلاثتهم [(١)] قائلين ومقول لهم فى جهنم جميعا ، قال تعالى عنهم : « **إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً** » ( النساء ١٤٠ ) .

**إِسْرَارَهُمْ** : الإسرار خلاف الإعلان والجهر ، قال تعالى : « **وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** » ( النـحـل ١٩ ) ، « **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ** » ( الملك ١٣ ) ، والإسرار بالحديث إلى الغير إفضـاء إليـه فى خفيـة ، وهو يقتضى الإظهار من وجه لمن أفضى إليه والإخفـاء عن غيـره من وجه آخر ، وأسـر الشئ كتمه وأظهره ، فهو من الأضداد ، والوجهان يفسران قوله تعالى : « **وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ** [(٢)] » ( يونس ٥٤ ) ، قال تعالى : « **تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ** » ( الممتحنة ١ ) أى تطلعونهم على ما تسرون من مودتهم .

والكلمة على المصدرية قراءة حفص عن عاصم والكوفيين وغيرهم كما فى قوله تعالى : « **وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً** » ( نوح ٩ ) ، والمراد إخفاء المنافقين ما قالوه لليهود وكادوا به معهم للمسلمين ، أو كل قبيح منهم ويدخل فيه هذا دخولا أوليا ، وقرأ الجمهور والعامة « أَسْرَارَهُمْ » بفتح

---

(١) أعنى المنافقين واليهود والمشركين فكلهم فى ملة الكفر سواء .

(٢) انظر : لسان العرب ، مادة : سر ٣ / ١٩٨٩ .

الهمزة جمع سر ، وهو اختيار أبى عبيدة وأبى حاتم ، أى الأشياء التى يسرونها (١) .

**توفتهم** : أصل التوفية بذل الشئ أو تناوله وافيا تاما ، كما جاء فى قوله تعالى : « **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** » ( النجم ٣٧ ) ، وتوفية إبراهيم بذله المجهود فيما طولب به من إنفاق المال فى طاعة الله وبذل ولده الذى هو أعز من نفسه وغير ذلك ، وقد عبر عن الموت بالتوفى مجازا لاستيفاء الأنفس حظوظها عنده ، قال تعالى : « **وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ** » ( آل عمران ٢٥ ) ، « **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** (٢) » ( الزمر ٤٢ ) أى يستوفى مدد آجالها فى الدنيا ، وتوفتهم الملائكة قبضت أرواحهم بعد استيفائهم عمرهم فى الدنيا .

وفى اللفظ قراءة أخرى للأعمش « توفاهم » بالألف بدل التاء ، فاحتمل أن يكون ماضيا وأن يكون مضارعا حذف منه أحد تائيه والأصل تتوفاهم .

**الملائكة** : هم عباد الله المكرمون المجبولون على طاعته أبدا ، والمراد بهم ملك الموت وأعوانه ، ووقت التوفى هو وقت الموت ، وقيل إن وقت التوفى هو وقت سوقهم فى القيامة إلى النار ، والملائكة ملائكة العذاب ، وقيل وقت القتال والملائكة ملائكة النصر (٣) .

---

(١) ومنها قولهم هذا الذى أظهره الله لفضحهم أو ما فى قلوبهم من العلم بصدق رسوله ﷺ ، راجع : المفردات ص ٣٣٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٠ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٥ ، التبصرة ص ٥٠٩ .

(٢) انظر : المفردات ص ٩٢٩ .

(٣) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٦ .

**يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ** : الوجوه والأدبار معروفة ويضربونها أى ضاربين لها والجملة حالية إما من الملائكة أو من الضمير فى « توفتهم » ، وهو تصوير لتوفيهم على أهول الوجوه وأفظعها وإبراز لما يخافون منه ويجبنون عن القتال لأجله ، فإن ضرب الوجوه والأدبار فى القتال والجهاد مما يتقى .

**أسْخَطَ** : من السخط وهو الغضب الشديد المقتضى للعقوبة والكراهية للشئ وعدم الرضا به [1] ، ومنه الحديث « إن الله يسخط لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال [2] » أى يكرهه لكم ويمنعكم منه ، ويعاقبكم عليه ، وفيما يسخط الله ويغضبه أقوال للعلماء ، مقابلة بما يحبه ويرضاه .

**رِضْوَانَهُ** : الرضوان الرضا الكثير والعظيم ، ولما لم يكن ذاك إلا لله خص لفظ الرضوان فى القرآن الكريم بما كان من الله تعالى ، كما قال : « **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ** » ( التوبة ٢١ ) ، « **يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً** » ( الحشر ٨ [3] ) .

---

(١) المفردات ص ٣٣٣ ، لسان العرب ، مادة : سخط ٣ / ١٩٦٤ .

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة فى كتاب الأقضية باب النهى عن كثرة المسائل ، راجع : صحيح مسلم ٣ / ١٣٤٠ .

(٣) المفردات ص ٢٨٧ .

**التفسير والبيان :**

وتمضى آيات السورة فى هذا المقطع لتكشف لنا حقيقة ولاء المنافقين وتسلكهم فى عداد الكافرين المرتدين الذين رضوا لأنفسهم واختاروا بقاءهم على الكفر وإعراضهم عن الإيمان – وقد أوشكوا على الدخول فى حظيرته – بعد وقوفهم على دلائله الظاهرة وبراهينه الواضحة ، وسياق الآيات فى السورة ، وعموم معنى الارتداد ، وواقع الحال هنا من طاعة المرتدين على أدبارهم لليهود الكارهين ما نزل الله – كلها مرشحة لصرف الصلة إلى هؤلاء المنافقين [1] الذين وصفوا فيما سلف بمرضى القلوب وغيره من قبائح الأحوال على ما حكاه بعضهم [2] .

---

(١) كان مجتمع يثرب قبل مقدمه ﷺ يتكون من خمس قبائل الأوس والخزرج من العرب وبنو قريظة وبنو النضير وبنو قينقاع من اليهود ، وقد كان لهذه الثلاثة الأخيرة نوع من السيطرة على الأوس والخزرج لكونهم أهل كتاب ، ولما كانوا يتوعدونهم من قرب ظهور نبى يتبعونه ويقتلونهم قتل عاد وإرم ، فلما ظهر النبى ﷺ من غير يهود ، وسبقهم إليه الأوس والخزرج وبدأت قوته ومن تبعه من المسلمين تنافس قوة اليهود – كرهوا ذلك ، وبدأوا فى المكيدة والتآمر ، وأطاعهم على ذلك بعض الأوس والخزرج ممن أضيروا بظهور الإسلام وتمكن المرض من قلوبهم ، وكان لهم مع المسلمين تاريخ أى تاريخ « يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » (التوبة ٣٢) .

(٢) راجع : إرشاد العقل السليم – أبو السعود العمادى ٧ / ٧٣٢ بهامش التفسير الكبير .

نعم ، إن هؤلاء لم يسبق لهم الإيمان الحق حتى تقع منهم الردة [1] ، إلا أن إصرارهم على الكفر بعد تبينهم للهدى وعرفانهم للحق بمثابة الردة عن الإيمان ، ولذا قال الطبرى فى تفسير الآية : إنهم الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارا بالله من بعد ما تبين لهم الحق وقصد السبيل فعرفوا واضح الحجة ، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله تعالى [2] .

ومع أن هذا هو المختار لقوة ما يرشح له فإن عموم الموصول وصلته لا يمنع من دخول غيرهم ، كما روى عن قتادة أنهم أعداء الله تعالى أهل الكتاب عامة يعرفون بعث النبى ﷺ ويجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، ثم يكفرون به ﷺ ، وكما روى عن ابن جريج أنهم اليهود ارتدوا عن الهدى بعد أن عرفوا أن محمدا نبى [3] ، أو أن ذلك إشارة إلى كل من ظهرت له الدلائل وسمعها ولم يؤمن ممن يمنعهم حب الرياسة ومكانتهم بين الناس عن اتباع محمد ﷺ .

وعلى هذا المختار فى المراد بالمرتدين على أدبارهم الذى يرجع بهم إلى المنافقين الذين ما زال سياق الكلام فيهم وعن أحوالهم يكشف الله تعالى

---

(١) روى عن ابن عباس وغيره أنها نزلت فى منافقين كانوا قد أسلموا ثم نافقت قلوبهم وقعدوا عن القتال بعد ما علموه فى القرآن انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٩ .

(٢) جامع البيان فى تأويل أى القرآن ٢٦ / ٣٧ .

(٣) روح المعانى ٢٦ / ٧٤ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٤٩ ، التفسير الكبير ٧ / ٢٢٥ .

لنا عما وراء نكصانهم على أعقابهم وارتدادهم على أدبارهم من استيلاء الشيطان عليهم وتمكنه من قلوبهم وتوجيهه لإراداتهم ، إذ وسوس لهم فزين لهم ما هم فيه من قبيح العمل وسيئه وسهل لهم مشتهياتهم وأمنياتهم بما وعدهم ومناهم من طول العمر وبقاء الأمل ولسان حاله يقول لهم : فى آجالكم فسحة فتمتعوا برياستكم فى الدنيا وعيشوا حياتكم طولا وعرضا ، ثم فى آخر الأمر تؤمنون [1] ، حتى أودى بهم وأوردهم الردى والهلاك ، فإذا ظاهر ارتدادهم وباطنه مكشوفان مفهومان وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون .

كما يكشف لنا سبب ارتدادهم على أدبارهم وما مكن للشيطان منهم بعد معرفتهم للهدى وتبينهم للحق وهو تآمرهم مع الكارهين للهدى والحق الذى نزله الله لإقامة البشرية - وبناء سعادتها - على صراط مستقيم ، وهؤلاء هم اليهود فى المدينة لا غيرهم ، قال لهم إخوانهم من المنافقين : سنطيعكم فى بعض أموركم وأحوالكم [2] ، من مخالفتهم لمحمد ﷺ والتظاهر على عداوته والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره ، والدس والكيد

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٢٢٥ .

(٢) يطيعونهم فى بعض الأمور لا كلها ، فهم يبقون على بعضها الآخر مما يملكون به الرجعة والاعتذار والاحتفاظ بقليل من ماء الوجه عند المؤمنين ، وهوديدنهم الذى حكاه الله عنهم فى قوله : « الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » ( النساء ١٤١ ) ، « مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ » ( النساء ١٤٣ ) .

والتآمر على الإسلام ورسوله ﷺ مثل ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » ( الحشر ١١ [1] ) .

وقد قال هؤلاء قولهم لمن قالوه لهم سرا ، ولكن الله يكتب ما يبيتون فأفشاه الله وأظهره لنبيه ﷺ لما أنه لا يعلم إسرارهم وإخفاءهم لما يكيدون به مع يهود فحسب - بل يعلم كذلك جميع ما يسرونه ويضمرونه من ميلهم إلى المسلمين إذا انتصروا وغلبوا ، وميلهم عنهم إذا انهزموا وغلبوا ، كما يعلم ما يسره اليهود ويكتمونه فى قلوبهم من العلم بصدق رسوله ﷺ ومكابرتهم وعنادهم فى ذلك إذ كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » ( البقرة ٨٩ ) ، ومن هنا كان فى تعقيب الله على أفعالهم من التهديد والوعيد أكثر مما فيه من الإخبار بعلمه بأسرارهم ، فأين يذهب تآمر هؤلاء وإسرارهم ؟ وماذا يؤثر وهو مكشوف كله لعلم الله معرض كله لقوة الله ؟ .

---

( ١ ) من خالف من المفسرين فى القائلين والمقول لهم حدد الأمور المطاع فيها على نحو آخر :

أ ) قال اليهود المرتدون للمشركين والمنافقين : نوافقكم على أن محمدا ليس بمرسل وإنما هو كاذب ، ولكن لا نوافقكم فى إنكار الرسالة والحشر والإشراك بالله مع الأصنام .

ب ) قال المشركون لليهود نوافقكم فى إخراج محمد وقتله وقتل أصحابه .

جـ ) قال اليهود للمنافقين - بعد أن وجدوا نعت الرسول ﷺ فى كتبهم - : نعدكم النصر إذا أعلنتم العداوة لرسول الله ﷺ ، التفسير الكبير ٧ / ٥٢٥ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٥ .

وإذ كان واقع الحال يشهد أن كثيرا من هؤلاء - مع تهديد الله لهم بكشفهم وفضح أسرارهم - ما كان يعلم نفاقهم إلا بعد موتهم وامتناعه ﷺ من الصلاة عليهم بما يفهم معه فوتهم من الفضيحة والعذاب فى الدنيا - فإن تهديد الله لهم بعذاب أكبر قائم منتظر فى نهاية أعمارهم يقوم به جند الله وملائكته فى وقت لا حول لهم فيه من خديعة ومكر أو تآمر وارتداد حيث تضربهم الملائكة على وجوههم وأدبارهم ، وهم فى نهاية أعمارهم وحياتهم فى الأرض وفى مستهل حياتهم الأخرى ، فلا يحس بالضرب أحد من حولهم ولا يدرى به (1) .

وياله من مشهد مفزع مهين وهم يحتضرون - أحوج ما يكونون إلى السكينة والأمان والتوقير والتكريم - يستقبلون حياتهم هذه بضرب الوجوه والأدبار ، تلك الوجوه الكالحة التى شخصت أبصارها فى غيظ وحنق ، وتلك الأدبار التى ارتدوا عليها ونكصوا عن الوفاء بالقتال والإيمان من بعد أن تبينوا الهدى .

ويالها من مأساة أن يواجهوا هذا كله فى لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والمخافة ، فكيف يحترزون من هذا الأذى ويبتعدون من العذاب فى يوم الوفاة ولا نصرة لهم ولا مفر ؟ وقد استطاعوا الهرب منه وتجنبه حال قوتهم فى الدنيا وفى حياتهم ؟ .

---

(1) يشبه هذا سؤال الملكين وسائر أحوال البرزخ ويشهد له ما روى عن ابن عباس قال : لا يتوفى أحد على المعصية إلا تضرب الملائكة فى وجهه ودبره ، انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٠ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٦ .

ولهول هذا الجزاء وصورته المهينة فى نهاية حياة أصحابه يؤكد السياق فى نهاية المقطع صراحة على سببه ، إنه اختيار أصحابه وإرادتهم لما يؤدى إليه من إيثارهم عصيان الله والكفر به ، وتعمدهم ما يغضب الله ويسخطه عليهم من نفاقهم وتآمرهم مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله واتباع كل ما لا يرضاه الله ولا يحبه ، أما ما يرضاه الله ويحبه من الإيمان الصادق ، والإخلاص لله فى السر والعلن ، وإسلامهم الأمر كله لله - فقد حرصوا على كراهيته والابتعاد عنه .

فهل ينتظر لهؤلاء - وهم يقبلون هكذا على ما يغضب الله ويعرضون ويدبرون عن رضوانه - قيمة لأعمالهم أو ثوابا لها مهما بدا من صلاحها وخيرها ؟ أو عجبوا بها وتعاجبوا بين الناس ؟ كلا : إنها لا قيمة لها عند الله ، فلقد أبطلها الله إذ ما كانت فى حقيقتها إلا رياء وخداعاً تحدث من الضجيج والشهرة والانتفاخ ما هو أكبر من حقيقتها ، حتى إذا ما انتهت إلى غايتها انفجرت على نفسها كأنها ما كانت ولا حدثت .

إن اتباعهم لما أغضب الله وكراهيتهم لما فيه رضوانه ، بل كراهيتهم لرضوان الله ذاته كانا هما السبب فى ذلك ، ولهذا كان فشلهم الذريع فى كل مؤامرة حاكوها لرسول الله ﷺ أو مكيدة دبروها له ، فما نجحوا فى مؤامرة قط وبطل كل ما دبروه من كيد للإسلام والمسلمين ، ومن دس دنئ أرادوا به النيل من محمد ﷺ والإساءة إلى دعوته ، « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » ( ابراهيم ٤٦ ) .

هذا ومن اللطائف فى هذا المقطع ما وقف أمامه المفسرون من مثل : -

١ - أن أعداء الله وأشدهم كراهية لما نزل الله اليهود - يهود المدينة - فهم أول من كرهوا ما نزل الله ؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، وأن يكون خاتم الرسل منهم ، وكانوا يستفتحون على الذين كفروا - إذ كانوا هم أهل كتاب - ويوعدونهم ظهور هذا النبى الذى يقودهم ويمكن لهم فى الأرض ويسترجع ملكهم وسلطانهم ، فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم من غير يهود كرهوا رسالته ، حتى إذا هاجر إلى المدينة كرهوا هجرته ومقدمه إليها التى هددت ما بقى لهم من مركز فيها .

ومن ثم كان يهود المدينة إلبا على رسول الله ﷺ منذ أول يوم له فيها ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة ومنازلتهم المسلمين فى ميادين القتال ، وانضم إليهم كل حانق ومنافق كهؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، وقالوا لهم : سنطيعكم فيما أنتم بصدده من الكيد لمحمد والمسلمين [١] .

٢ - فى تصوير الله لتوفى المنافقين على أهول الوجوه وأفظعها من ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم إبراز لوقوعهم فيما خافوا القتال لأجله فى الدنيا وجبنوا عنه ، فإن ضرب الوجوه والأدبار فى القتال والجهاد مما يتقى منه ويحذر ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الله تعالى ذكره ذكر فى سبب استيفائهم وتوفيهم على هذه الصورة أنهم اتبعوا ما

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن ٦ / ٣٢٩٨ .

أسخط الله وكرهوا رضوانه ، فكأنه تعالى قابل الضرب على الوجوه والأدبار بهذين ، فقال يضربون وجوههم حيث أقبلوا على سخط الله ، فإن المتبع للشئ متوجه إليه بوجهه ، ويضربون أدبارهم لأنهم تولوا عما فيه رضا الله ، فإن الكاره للشئ يتولى عنه ويعرض مخلفا له وراء دبره ، ففي الكلام على ذلك مقابلة بما يشبه اللف والنشر[1] .

٣ - وفي تصوير الله - كذلك - لتوفي هؤلاء وقبض أرواحهم - يطلعنا الله على صور أخرى لهذا الموقف العصيب أكثر هولا وفظاعة من ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، حيث تتعاصى الأرواح عن الخروج من أجسادهم ، وتستخرجها الملائكة قهرا بالعنف والضرب إن لم يبادروا هم بإخراجها بأنفسهم وتسليمها لملائكة الموت ، كما قال سبحانه وتعالى :

« وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ » ( الأنعام ٩٣ ) ، « وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » ( الأنفال ٥٠ - ٥١ ) ، ولهذا قال ههنا :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ[2] » .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٦ ، روح المعاني ٢٦ / ٧٦.

(٢) انظر : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٠ .

٤ - فى ذكر سبب عقاب هؤلاء قال تعالى إنهم : « اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ » بالفعل فى الأول والاسم فى الثانى ، فلم يقل فى الثانى ما أرضى الله - كما قال فى الأول ما أسخط - لأن رحمة الله سابقة ، فله رحمة ثابتة وهى منشأ الرضوان ، وغضب الله متأخر [1] ، فهو يكون على ذنب ، فقال : رضوانه لأنه وصف سابق ثابت لله ، ولم يقل سخط الله فى الأول - كما قال رضوان الله فى الثانى - بل قال : ما أسخط الله إشارة إلى أن السخط ليس ثبوته كثبوت الرضوان [2] .

---

(١) وذلك كما روى فى الحديث القدسى « إن رحمتى سبقت غضبى » أخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة فى باب رحمة الله سبقت غضبه ، راجع : الفتح الربانى ١٩ / ٢٤٤ .

(٢) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٦ .

## المقطع الثامن

### تهديد الله للمنافقين بفضيحتهم والكشف عنهم

قال تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ٢٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ٣٠ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ٣١ .

**التحليل اللغوى والقراءات :**

**أَمْ حَسِبَ** : أم هذه صالحة للاستفهام والاتصال على تقدير استفهام سابق ، وصالحة للإضراب والانقطاع بمعنى بل ، على نحو ما مر من قبل فى قوله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » ، والمفسرون على أنها منقطعة ، والأولى أن تكون استفهامية إنكارية ، والاستفهام السابق مفهوم من قوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ » ، فكأنه تعالى قال : أحسب هؤلاء أن لن يعلم الله إسرارهم أم حسبوا أن لن يظهرها ويخرجها ؟ ، والكل قاصر ، وإنما يعلمها ويظهرها ، ويؤيد هذا أن المنقطعة لاتكاد تقع فى صدر الكلام [(١)] .

وحسب من الحسبان وهو الظن ، يقال : حسب الشئ كائنا يحسبه بكسر السين فى المضارع وفتحها ، أى ظنه ، ومثل الأول قوله تعالى :

(١) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٧ .

« أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا » (الكهف ٩) ، ومثل الثانى قوله تعالى : « وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » ( النمل ٨٨ [١] ) .

**أَضْغَانَهُمْ** : الأضغان واحده الضغن بفتح الضاد وكسرها الحقد الشديد ، والعداوة والبغضاء ، ومثلها الضغائن والضغينة ، وأصل الكلمة من الضغن وهو الالتواء والاعوجاج فى قوائم الدابة وكل شئ ، وشبه به الحقد والعداوة فى القلب [٢] .

**لأَرَيْنَاكَهُمْ** : من الإراءة وهى مصدر بمعنى التعريف على أن الرؤية علمية ، أى لعرفناكهم ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ » ( النساء ١٠٥ ) ، وعلى ذلك يكون ما بعده من قوله : « فَلَعَرَفْتَهُمْ ...... » تفريع لمعرفته ﷺ على تعريف الله عز وجل ، ويجوز أن تكون الإراءة بصرية على أن المعنى أنه ﷺ يعرفهم معرفة متفرعة على إراءته إياهم [٣] .

وإسناد الإراءة إلى نون العظمة للإيماء إلى العناية بالإراءة شأن الأفعال العظيمة المختصة بجلالته مثل قوله تعالى : « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ

---

(١) انظر : لسان العرب مادة : حسب ٢ / ٨٦٦ .

(٢) انظر : المفردات ص ٤٤٠ ، لسان العرب ، مادة : ضغن ٤ / ٢٥٩٢ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٦ .

(٣) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٧ .

فَتْحاً مُبِيناً » ( الفتح ١ ) ، وقوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » ( يس ١٢ ) ، واللام الداخلة على فعل الإراءة - كاللام الداخلة على فعل المعرفة « فَلَعَرَفْتَهُمْ » - هي الواقعة في جواب الشرط « لَوْ نَشَاءُ » كلاهما سواء ؛ لأن المعطوف على الجواب جواب مثله .

بِسِيمَاهُمْ : السيماء العلامة ، وهي من السوم من قولهم : سوم الفرس أي جعل عليها السيماء ، ومنه قول الله تعالى : « لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ » ( الذاريات ٣٣ - ٣٤ ) أي معلمة بعلامة يعرف بها أنها ليست من حجارة الدنيا وأنها مما عذب الله بها [١] .

ومعنى السيماء هنا على الجمع لعمومها بالإضافة ، وقد أفردت للإشارة إلى أن علاماتهم متحدة الجنس فكأنها شئ واحد ، أي لعرفتهم بعلامات نسمهم بها [٢] .

لَحْنِ الْقَوْلِ : اللحن عامة صرف الكلام عن سننه الجاري عليه إما بإزالة الإعراب أو التصحيف ونحوهما ، وهو اللحن المذموم - وذلك أكثر استعمالا [٣] ، وإما بإزالته عن التصريح وصرفه بمعناه إلى تعريض

(١) لسان العرب مادة : سوم ٣ / ٢١٥٨ - ٢١٥٩ .

(٢) انظر : روح المعاني ٢٦ / ٧٧ .

(٣) وقد اشتهر ذلك في تسمية الخطأ في الإعراب للعدول به عن الصواب في الكلام . انظر : روح المعاني ٢٦ / ٧٧ .

وفحوى [1] ، وهو محمود عند أكثر الأدباء من حيث البلاغة ، ومنه قيل للفطن بما يقتضى فحوى الكلام ، لحن ، وفى الحديث «لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض [2]» ، أى ألسن وأفصح وأبين كلاما وأقدر على الحجة [3] .

ويتمحض اللحن هنا للمدح إذا أريد بالقول قول الله تعالى [4] ، ويدخله الذم من حيث الغرض إذا أريد به قول المنافقين إذ كانوا يتكلمون بكلام ذى دسائس ، وكان ﷺ يعرفهم بذلك الوجه الخفى من كلامهم ويفهمه ولا يفهمه غيره [5] ، لما أقسم الله على ذلك وأكده بقوله : « وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ » .

---

(1) قال فى البحر : لحنت له بفتح الحاء ألحن لحنا ، قلت له قولا يفهمه عنك ويخفى على غيره ، ولحنه هو بالكسر فهمه ، ولاحنت الناس فاطنتهم ، وعن الزمخشرى : « وعرفت ذلك فى لحن كلامه أى فى فحواه وفيما صرف إليه من غير إفصاح به » انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٧ ، أساس البلاغة ص ٤٠٦ .

(2) أخرجه البخارى عن أم سلمة فى كتاب الشهادات - باب من أقام البينة بعد اليمين ، راجع : فتح البارى ٥ / ٢٨٨ .

(3) المفردات ص ٦٧٧ - ٦٧٨ .

(4) أى لتعرفنهم فى معنى وفحوى قول الله تعالى حيث قال ما تعلم منه حال المنافقين كقوله تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ » ( النور ٦٢ ) ، « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » ( الأنفال ٢ ) .

(5) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٨ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٧ .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ : المراد بالابتلاء هنا التكليف وتعبد الناس بالشرائع المحتمل وقوعها منهم وعدم وقوعها ، كما يقع من المختبر والمبتلى ، وذلك كالأمر بالجهاد ومدافعة الظلم والعدوان ، وما فيهما من مشقة وجهد .

وفى الفعل هنا والفعلين بعده المسندة إلى نون العظمة « حَتَّى نَعْلَمَ ... وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ » قراءات فقد قرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيها « وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى يَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَيَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » ، وعن يعقوب « وَنَبْلُو » بسكون الواو ، وكذا عن الأعمش ، وبالياء « وَيَبْلُو »[1] .

والمراد من فعل العلم الواقع غاية للابتلاء العلم فى الواقع وعالم الشهود الذى يقع به الجزاء على العمل ، فإن الله قد سبق علمه لذلك غيبا ، ولكنه لا يؤاخذ العباد إلا بظهور علمه وانكشافه على أيديهم ، وقد يكون العلم هنا هو الرؤية ، والشئ لا يرى حتى يقع ويتميز عن غيره على المشهور[2] .

الْمُجَاهِدِينَ : من الجهد بفتح الجيم المشقة وبضمها الطاقة ، يقال : جهدت رأيى وأجهدته ، إذا أتعبته بالفكر[3] ، وجاهد العدو جهادا ومجاهدة قاتله فى سبيل الله ، وفى الحديث « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية[4] » والجهاد والمجاهدة المبالغة واستفراغ ما فى الوسع فى محاربة العدو ومدافعته فعلا وقولا وما يطاق من شئ[5] .

---

(١) انظر : التبصرة ص ٥٠٩ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٤ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٨ .
(٢) كما روى ذلك عن ابن عباس وعلى بن أبى طالب ( ض ) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٨ .
(٣) المفردات ص ١٤٢ .
(٤) أخرجه البخارى عن ابن عباس فى كتاب الجهاد - باب فضل الجهاد ، فتح البارى ٦ /٣ .
(٥) لسان العرب ، مادة : جهد ١ / ٧١٠ .

والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها فى قوله تعالى : « وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ[1] » ( الحج ٧٨ ) ، والمراد بالمجاهدين هنا المقدمين على مجاهدة عدوهم الظاهر الصادقين فى تحمل مشاقه وتبعاته .

**الصَّابِرِينَ** : من الصبر وهو حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عما يقتضيان حبسها عنه ، وهو لفظ عام ، وأظهر ما يكون فى حبس النفس على المصيبة ، فهذا هو الصبر لا غير الذى يضاده الجزع ، وقد يعبر به عن الانتظار كما فى قوله تعالى : « فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ » ( الإنسان ٢٤ ) أى انتظر حكمه لك على الكافرين [٢] ، وقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا » ( آل عمران ٢٠٠ ) ، أى اثبتوا على دينكم وصابروا أعداءكم فى الجهاد [٣] ، والمراد بالصابرين هنا الثابتون الذين لا يولون الأدبار ولا يجبنون عن مواجهة أعدائهم .

**أَخْبَارَكُمْ** : جمع خبر بفتح الخاء والباء ، وهو المعرفة بالشئ وأحواله وبواطنه على جهة النقل ، تقول : خبرت الأمر إذا علمته وعرفته على حقيقته ، ومنه الاستخبار والتخبر [٤] ، كما جاء فى حديث الحديبية أنه ﷺ بعث عينا من خزاعة يتخبر له خبر قريش أى يتعرفها [٥] .

(١) المفردات ص ١٤٢ .

(٢) المفردات ص ٤٠٤ .

(٣) لسان العرب مادة : صبر ٤ / ٢٣٩٢ .

(٤) لسان العرب مادة : خبر ٢ / ١٠٩٠ ، المفردات ص ٢٠٣ .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٣ / ٣٦٣ .

والمراد هنا أحوال المبتلين المخبر عنها على سبيل الكناية فإن حسن الخبر وقبحه على حسب المخبر عنه وقبحه ، وقد يكون المراد نفس إخبارهم عن إيمانهم وموالاتهم للمؤمنين ، وابتلاؤها لإظهار صدقها أو كذبها [1] .

**التفسير والبيان :**

يستكمل السياق فى هذا المقطع موقف المنافقين من الإيمان والمؤمنين ويتهددهم بكشف أمرهم وفضيحتهم أمام من زيفوا عليهم الأمور وكادوا لهم مع اليهود وهم يعيشون بينهم متخفين ومتظاهرين بالإسلام والاستسلام لمتطلباته وتكاليفه .

وإذ كان هؤلاء قد أجادوا فن النفاق والخداع بما لم يسبقوا إليه ، وحاكوا المؤامرت الرخيصة ، وأسهموا كثيرا فى إعنات المسلمين وإحراجهم اعتمادا على نفاقهم وخفاء أمرهم غالبا على المسلمين ظنا منهم أن الله لا يعلم أسرارهم وخفاياهم – فإن الآيات هنا تسفه ظنونهم فى بقاء أمرهم خافيا على المسلمين ، بل إنها تهددهم بكشف ما هو أخفى من ذلك عندهم من انطواء قلوبهم على الأحقاد والضغائن ، وتوطن نفوسهم على الضعات والسخائم تلك التى ما كانوا يظنون أبدا انكشافها لأحد .

ولقد حسبوا ذلك وظنوه ، ولكن الله من وراء حسبانهم وظنهم يبرز أحقادهم وعداواتهم للمسلمين ويظهرها لرسوله ﷺ ، فلا تبقى مستورة أبدا ؛ لأنه يعلم حقيقة ما يضمرون وبواعث ما يعملون .

---

(١) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٨ .

ولما كان مفهوم قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » أن الله يظهر ضمائرهم ويبرز أسرارهم وسرائرهم . كأن قائلا قال : فلم لم يظهر ذلك ؟ فقال : أخرناه لمحض المشيئة ، لا لخوف منهم ، كما لا تفشى أسرار الأكابر خوفا منهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلا مانع لنا من إراءتك إياهم[1] .

وإذ لم يكن قد حان أوان ذلك عند نزول هذه السورة ، ولم يشأ الله فضحهم وكشفهم آنذاك - فإنه لم يدع رسوله ﷺ دون تعريفه بهم وإن لم يكن ذلك بتحديد ذواتهم وأسمائهم[2] .

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٧ .

(٢) بل كان تعريفه بهم - لو حدث - بتحديد أوصافهم وعلاماتهم الغالبة عليهم والتى يتميزون بها عن غيرهم ، ولكن الله لم يفعل ذلك للستر على خلقه وردا للسرائر إلى عالمها وحرصا على عدم إيذاء ذوى قرباهم من المخلصين ، ولقد تحققت مشيئة الله بعد وأنزل فى فضائحهم وما أبطنوا من الأحقاد والأعمال فى آخر عصر النبى ﷺ سورة براءة الفاضحة التى هتكت أستارهم وأخرجت ضغائنهم ، وقد شغل الكلام على المنافقين وفضحهم فى هذه السورة ثمان وثمانين آية من قوله تعالى : « لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ » ( التوبة ٤٢ ) حتى آخر السورة ، وقد جاء فى هذه الآيات قوله تعالى : « يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ » ( التوبة ٦٤ ) ، « وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ( التوبة ٨٤ ) « يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ » ( التوبة ٩٤ ) ، أخرج الإمام أحمد عن عقبة بن عمرو قال : « خطبنا رسول الله ﷺ فقال : إن منكم منافقين فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان - حتى سمى ستة وثلاثين رجلا ، ثم قال : إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله » انظر : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٠ .

وياللعجب حين تكون وسيلة تعريفه بهم هم أنفسهم من لهجاتهم ونبرات أصواتهم وفلتات ألسنتهم وما تجرى به من كلام لم يقصدوا إليه بل ربما من نفس ما قصدوا إليه من التمويه والمداورة فى الكلام وانحراف منطقهم فى الخطاب مما رويت عنه صور كثيرة تكشف عن التوائهم ومرض قلوبهم ، وكما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : « ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه » ، وفى بعض الآثار « ... إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيرا فخير وإن شرا فشر [1] » .

ثم يعرج السياق عن الكلام على هؤلاء فى التفاتة بالخطاب إلى المؤمنين يعدهم فيها سبحانه وتعالى ويبشرهم ، ويوعد المنافقين وينذرهم حين يقرر علمه الشامل بالأعمال وبواعثها ، ويوازن فى إيجاز بين هؤلاء وأولئك حيث يقول بعد وصفه للمنافقين : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » فيجازيكم عليها بحسب مقصدكم ، وفى ذلك من الوعد للمؤمنين والإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين بقدر ما فيه من الوعيد للمنافقين والإيذان بأن ما يجزون عليه من أعمالهم هو ما يقصدونه وليس ما يعرضون به أو يورون ، فقد كان هؤلاء يقولون ولايعملون ، وقد كان المؤمنون يعملون ولا يقولون إلا أن يكون قولهم استغفارا وذكرا وتسبيحا ، كان المؤمنون يعملون الصالحات ولا يتكلمون فى السيئات إلا مشفقين مستغفرين [2] ، أما

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٠ .

(٢) وذلك مثل قولهم : « رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا » (البقرة ٢٨٦) ، « رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ » ( آل عمران ١٩٣ ) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٨ .

المنافقون فهم يتكلمون فى الصالحات كقول الواحد منهم : أنا معكم ومنكم ثم لا يعملون بعد ذلك إلا السيئات [1] .

وهكذا حين قرر الله علمه بأعمال المؤمنين فلن يضيع جزاءهم عليها ، ترك لنا أن نستنتج - مما وصف به المنافقين ، ومن اختلاف حالهم عن حال المؤمنين - ما يعلمه عنهم وهو أقوالهم الفارغة التى لحنوا بها وموهوا بها على المسلمين ، فلا يدع بعد ذلك عقابهم عليها . .

ثم يزيد الله فى كشف هؤلاء وفضيحتهم بما يمد به المؤمنين من المنهج العملى الواقعى الذى يتميز به المؤمن من غيره ، إنه الابتلاء والاختبار لكل من ينتسب إلى المسلمين ويدعى الإسلام ويظهره ، ومواجهته بسائر التكليفات الشرعية التى تتطلب الجهد والمشقة ومغالبة الأعداء ومدافعتهم

---

(١) وهذا شأن المنافقين أبدا وديدنهم فى كل عصر ، حين يلوح فى الأفق خير ومغنم تجدهم فى مقدمة الصفوف يزاحمون المؤمنين العاملين ، فإذا كان هناك تكليف ومغرم كانوا فى مؤخرة الصفوف ينتحلون الأعذار ويبررون نكوصهم وتخلفهم ، وإعراضهم عن مشاركة المؤمنين وتحمل تبعاتهم ومغارمهم ، قال الله تعالى عنهم : « الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ » ( النساء ١٤١ ) ، « سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ » ( الفتح ١٥ ) ، « سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا » ( الفتح ١١ ) ، « يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » ( الأحزاب ١٣ ) ، « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ » ( البقرة ١٤ ) .

والارتفاع فوق أهواء النفوس وشهواتها فى كل مواقع الحياة وأحوالها وتقلباتها من سراء ونعماء إلى ضراء ، وبأساء ، ومن فرج وسعة إلى كرب وضيق ، وبكل ما تنفعل به النفوس فتكشف ما يدور فى داخلها ، وحينئذ يتميز المجاهدون الصابرون من غيرهم ، ويعرف ذو البصيرة فى دينه من ذى الشك والحيرة فيه ، ويتبين المؤمن من المنافق فلا يقع الالتباس فى الصفوف ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين .

إن شأن المؤمنين أنهم مجاهدون فى سبيل نصر دينهم ونشره ، تسبق دائما أفعالهم أقوالهم ، وغاية أملهم أن يستشهدوا وهم يدافعون عن دينهم ويقاتلون تحت لوائه ، وهم يصبرون على كل ما يقع بهم فى حياتهم مما يجزع الآخرون إذا ألم بهم ؛ لأنهم على يقين من أن كل ذلك قد سبق به علم الله وقدره ، وأن الصبر عليه يرفع درجتهم عند الله فيجزل ثوابهم عليه ، وهم كذلك يشكرون لله نعمه جميعا ويزدادون بشكرها قربا من الله عز وجل واستحقاقا لمثوبته .

وبهذه المواجهة العملية والمنهج الواقعى ينكشف كذلك للناس علم الله القديم عنهم ليجازى كلا منهم على ما قدم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، كما ينكشف صدق ما يخبرون به عن أنفسهم من كذبه ، فصدق المؤمنين عن إخبارهم بإيمانهم يظهر فى إقدامهم على التكاليف فى المنشط والمكره ، وإقدامهم على افتداء إيمانهم ودينهم غير وجلين ولا هيابين ، وكذب المنافقين عن إخبارهم بإيمانهم يظهر فى جبنهم وخوفهم وتوليهم وإعراضهم عن تكاليف الإيمان التى سبقت إليها أقوالهم ثم كذبتها بعد ذلك تصرفاتهم وأعمالهم .

ورؤية الناس لأعمالهم ومواقفهم فى صورتها التى أدركتها مداركهم هى التى تؤثر فيهم وتكيف مشاعرهم وتوجه حياتهم بوسائلهم الداخلة فى طوقهم ، وهكذا تتم حكمة الله فى الابتلاء ، ومع حكمة الله فى هذا الابتلاء العام فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله وامتحانه ويتطلع دائما إلى عافيته ورحمته ، فإذا أصابه بعد ذلك بلاء الله صبر له وهو مدرك لما وراءه من حكمة واستسلم لمشيئة الله واثقا من حكمته ، متطلعا إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء ، وقد صح فى الحديث « لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف [(١)] » وقد روى عن الفضيل بن عياض العابد الصوفى أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبلنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا [(٢)] .

**هذا ومن لطائف هذا المقطع ووقفات المفسرين معه :**

١ - ذكر المفسرون هنا كثيرا من أمثلة ووقائع ما لحن به المنافقون فى قولهم وعرفهم به رسول الله ﷺ كقول بعضهم : « إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ » ( الأحزاب ١٣ ) ، واعتذار بعضهم بعد ذلك بقولهم : « شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا » ( الفتح ١١ ) وقولهم عند مجئ النصر « أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ » ( النساء ١٤١ ) ، وقولهم : « لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى

---

(١) أخرجه البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى فى كتاب الجهاد - باب لا تمنوا لقاء العدو ، فتح البارى ٦ / ١٥٦ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٤ .

الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » ( المنافقون ٨ ) ، أو فى إمالة قولهم عن الصواب حيث كانوا يقولون مالا يعتقدون من مثل قولهم : « نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ » ، وإذ كانوا فى شهادتهم غير صادقين قرر الله صدق قولهم وكذب شهادتهم بقوله : « وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ » ( المنافقون ١ ) ، ومثل عهدهم ووعدهم الذى حكاه الله فى قوله : «وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ[١] » ( الأحزاب ١٥ ) .

ولقد كانوا يصطلحون فيما بينهم على ألفاظ يخاطبون بها الرسول ﷺ مما ظاهره حسن ويعنون به القبيح ، وكانوا يتكلمون بما يشعر بالاتباع وهم بخلاف ذلك [٢] ، أو كما روى عن ابن عباس أنهم كانوا يقولون : مالنا من الثواب إن أطعنا ؟ ولا يقولون ماذا علينا من العقاب إن عصينا ؟ .

٢ - فى تعريف الله لرسوله ﷺ هؤلاء المنافقين بسيماهم من قبل تعريفه إياهم بذواتهم وأشخاصهم - يروى عن أنس ( ض ) قوله : ما خفى بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ شئ من المنافقين ، وكان ﷺ يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنا فى بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب هذا منافق .

(١) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٨ .

(٢) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٧ .

وفى هذه الدعوى من معرفته ﷺ لهم بسيماهم إشكال ، فإن « لو » ظاهرها عدم الوقوع بل المناسب معرفتهم من لحن القول إذ هو الخبر المؤكد عن الله .

هذا ولا تنحصر السيماء بالكتابة بل تكون بغيرها مما يعرفهم به النبى ﷺ كما يعرف القائف حال الشخص بعلامات تدل عليه ، وكثيرا ما يعرف الإنسان محبه ومبغضه من النظر ، ويكاد النظر ينطق بما فى القلب ، وإن صح أن بعض الأولياء كان يعرف البر والفاجر والمؤمن والكافر ويظهر الأمر حسبما أشار - فرسول الله ﷺ بتلك المعرفة أولى وأولى ، ولعلها بعلامات وراء طور عقولنا ، والنور المذكور فى الخبر « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى[1] » متفاوت الظهور بحسب القابليات ، وللنبى ﷺ من ذلك أتمه وأكمله [2] .

٣ - لقد غيّا الله تعالى ابتلاءه للمخاطبين فى قوله : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ » بعلمه لهؤلاء . فكيف يكون هذا وهو يعلم حقائق النفوس ومعادنها سلفا ، ويطلع على خفاياها وخباياها بدءا ، ويعلم ما يكون من أمرها مستقبلا علمه بما هو كائن منها فعلا ؟ .

---

(١) أخرجه البخارى فى تاريخه عن أبى سعيد ، والطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة وغيرهما ، انظر : الجامع الصغير ١ / ٩ .

(٢) روح المعانى ٢٦ / ٧٨ .

إن الله - جلت حكمته - يأخذ البشر بما هو فى طوقهم ووسعهم وما هو من طبيعتهم واستعدادهم ، وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه هو ، فلا بد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ثم ينتفعوا بها ، فالغاية من ابتلائهم انكشاف معلوم الله لهم فى عالم الشهادة والواقع ليرتب على هذا المعلوم الواقع ثوابهم وعقابهم ؛ لأنه إنما يجازيهم بأعمالهم هذه لا بعلمه القديم عنهم [(١)] ، والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعماء والبأساء وبالسعة والضيق وبالفرج والكرب كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها [(٢)] .

---

(١) انظر : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٤ .

(٢) فى ظلال القرآن ٦ / ٣٢٩٩ .

## المقطع التاسع

### مشاقة الكفار للرسول ﷺ
### وتحذير المسلمين من مثلها

قال تعالى : : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ٣٢ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ٣٣ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ٣٤ .

**التحليل اللغوى والقراءات :**

**الَّذِينَ كَفَرُوا** : فى المراد بهؤلاء الذين كفروا خلاف بين العلماء كخلافهم فى المراد بهم فى الآية الأولى من السورة ، ولكل قول هنا وجه ودليل [(١)] والأولى فى ذلك حمل الموصول على كل من تحققت فيهم الصلة مثل من انطبقت عليهم عصر النزول من اليهود أو المشركين .

(١) من قال إن هؤلاء بنو قريظة وبنو النضير من يهود استدل بقوله تعالى : « مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى » أى شاهدوا من نعته ﷺ فى التوراة وتبينوا صدقه فيما قال ، ومن قال إنهم قريش والمطعمون ببدر استدل بما ظهر على يديه من المعجزات ونزل عليه من الآيات ، وتبجحهم السافر بالصد عن سبيل الله ومشاقة رسوله ﷺ . انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٩ ، التفسير الكبير ٧ / ٥٢٩ .

**شَاقُّوا** : من الشقاق والمشاقة ، وهى العداوة بين فريقين والخلاف بين اثنين ، سمى ذلك شقاقا لأن كلا منهما قصد شقا أى ناحية غير شق صاحبه ، وشاقه مشاقة وشقاقا خالفه ، ومنه قوله تعالى : « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ » ( الحج ٥٣ ) ، وأصله من الشق بكسر الشين وهو نصف الشئ إذا شق ، وشاقوا الرسول عادوه وخالفوا عن طريقه ووقفوا فى غير صفه (١) .

**لَن يَضُرُّوا اللَّهَ** : الفعل من الضرر بفتح الضاد ضد النفع وهو الذى يقع من طرف إلى آخر ، يقال : ضره ضرا إذا جلب إليه ضررا كما فى قوله تعالى : « وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ » ( البقرة ١٠٢ ) ، وكما فى قوله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار (٢) » .

ولأن الله لا يضره شئ فلا يحتاج إلى نفى قيل إن الكلام على تقدير مضاف ، أى لن يضروا رسول الله ﷺ بمشاقته شيئا ، وقد حذف المضاف لتعظيمه ﷺ بجعل مضرته وما يلحقه كالمنسوب إلى الله تعالى كما فيه تفظيع مشاقته ﷺ (٣) .

**سَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ** : الإخبار بإحباط العمل هنا فى صيغة الاستقبال بعد الإخبار به فى صيغة المضىّ فى صدر السورة - هل يفهم منه

---

(١) لسان العرب ، مادة : شق ٤ / ٢٣٠١ .

(٢) لسان العرب ، مادة : ضرر ٤ / ٢٥٧٣ ، المفردات ص ٤٣٥ . والحديث أخرجه الإمام مالك عن يحيى المازنى - الموطأ ، كتاب الأقضية ص ٤٦٤ .

(٣) انظر : روح المعانى ٢٦ / ٧٩ .

اختلاف الكفار المخبر عنهم أولا عن الكفار هنا ، أم أن المخبرين عن الكفار عامة واختلافهما بالاستقبال والمضى لمعنى آخر هو انقطاع الرجاء والأمل فى أى عمل قد عملوه فى الماضى أو سيعملونه فى المستقبل (١) .

**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** : فعل الأمر من الطاعة بمعنى الانقياد - وهو معروف - كما مر ، وفى عطف الأمر بطاعة الرسول ﷺ على الأمر بطاعة الله وهى منها كلام للمفسرين يأتى بعد (٢) .

**لاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ** : هو من الإبطال ، وهو إفساد الشئ وإزالته ، حقا كان ذلك الشئ أو باطلا كقول الله تعالى : « **لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ** » ( الأنفال ٨ ) ، وأبطلت الشئ جعلته باطلا ، والمراد هنا الأول لما أن المنهى عن إبطاله من الحق والأعمال الصالحة كقوله تعالى : « **وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ** » ( غافر ٧٨ (٣) ) ، وما يكون به إبطال العمل كثير يرشد إليه السياق وأسباب النزول وما علم من الدين بالضرورة وغيرها .

---

(١) قال الرازى : إن الكفار فى صدر السورة هم المشركون أحبط الله أعمالهم وأضلها حيث لم يكونوا على شرع أصلا ، ولا كانوا معترفين بالحشر ، أما الكفار هنا فهم أهل الكتاب سيحبط الله أعمالهم بسبب تكذيبهم الرسول ﷺ ولا ينفعهم إيمانهم بالحشر والرسل ، التفسير الكبير ٧ / ٥٢٩ .

(٢) من مثل ما قاله الفخر الرازى : إن ذلك من عطف المسبب على السبب كما يقال : اجلس واسترح ، وقم وامش ؛ لأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ومسببة عنها ، انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٢٩ .

(٣) المفردات ص ٦٧ .

**التفسير والبيان :**

انتهت المقاطع السابقة وقد عرضت لصورة واضحة لجانب من علاقة المؤمنين بكل من الكافرين والمنافقين ، وموقف هذين الفريقين من الإيمان والمؤمنين ، ثم تأتى خاتمة السورة بمقطعيها الأخيرين كنتيجة مرتبة على ما سبقها ، وفيها من الإخبار عن نهاية هؤلاء وعاقبتهم إن لم يتداركوا أمورهم بتوبة صادقة قبل موتهم ، ويتخلوا عن مشاقتهم ومعارضتهم لرسول الله ﷺ وما جاء به من هداية للبشرية ، وفيها من تحذير المسلمين أن يسلكوا مسالك هؤلاء أو أن ينحرفوا عن سنة نبيهم فيقعون فى مثل عاقبتهم .

كما فيها من واجبات المسلمين نحو دينهم وتكاليف شريعتهم وافتداء هذا الدين بكل غال وعزيز ، والارتفاع به عن كل ما دونه ، ثم تهديد للمؤمنين إما أن يكونوا عندما يريده الله لهم من الرفعة والعزة التى لا تهن ولا تعجز ولا يعطوا دنية فى دينهم أو يكون لله معهم شأن آخر .

وتجئ آيات هذا المقطع فى شكل تقارير إخبارية جازمة وأوامر إلزامية قاطعة ، وكما تقرر الآيات وتآمر فهى تنذر وتحذر فلا نقاش فى الأمر أو ممانعة ولا جدال فيه أو مراجعة .

إن هؤلاء الكافرين هم الذين طال حديث السورة عنهم سواء بذواتهم أو بصفاتهم ، أو ممن كانوا على شاكلتهم ممن وقفوا فى وجه الحق أن يبلغ للناس وصدوهم عنه بالقوة والمال أو الحيل والخداع وصرفوهم عن قبول رسالة محمد ﷺ أو الإيمان بأن القرآن كلام الله ، بل بذلوا كل ما استطاعوا من جهد للحيلولة بين الناس وهذا الدين الذى صدوا أنفسهم عنه من قبل وحرموا أنفسهم هديه وبشارته .

وهؤلاء هم الذين ناصبوا الرسول ﷺ العداء وشاقوه فى حياته بإعلان الحرب عليه والمخالفة عن طريقه ، وراحوا يكيدون له ويتآمرون به ويؤلبون الناس عليه ويتعاونون معهم على حربه .

وهم هم الذين خالفوه وعادوا هديه وسنته بعد وفاته بمحاربتهم لدينه وشريعته وإعناتهم وملاحقتهم للمتبعين سنته أو القائمين على دعوته ، مع يقين هؤلاء وهؤلاء أن ما عادوه وخالفوه هو الحق ولا حق غيره ، وقد تبين ذلك لهم مما عرف عنه فى الكتب السابقة ، وما جاء هو به من الحجج الساطعة ، والآيات والبراهين الواضحة ، ثم المعجزات الخارقة ، ولكن هذا كله لم يكن مجديا مع إصرارهم على اتباع أهوائهم وإيثارهم ما هم عليه من الضلال وعنادهم الذى عصف بهم وأهلكهم .

إن هؤلاء جميعا قد حكم الله عليهم بأمرين ، وحكم الله عليهم قرار مؤكد ووعد من الله واقع لا محالة .

فأما الأمر الأول فهو أنهم بموقفهم هذا الذى عرفناه لن يضروا الله بشئ من ذلك ، بل يضرون أنفسهم بالأحرى وهم لا يشعرون وإنهم لأتفه وأضأل من أن ينفى عنهم الإضرار بالله ذاته أو يذكروا فى هذا المجال ، وإنما المنفى عنهم هو الإضرار بشريعة الله ودينه ؛ لأنهم من الضعف والهوان على الله بحيث لا يملكون أن يصدوا الناس عن سبيله أو يحولوا بينهم وبين دينه فإن الله بالغ أمره وناصر رسوله ﷺ ومظهره على من عاداه وخالفه .

وأما الأمر الثانى فهو ما أوجزه الله فى قوله : « وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ » ، نعم ، أعمالهم تلك التى يحمدونها ويرضونها ، أو يعجبون

ويتعاجبون بها وهم يتآمرون ويكيدون ، ثم يعاندون ويخالفون ويحسبون ذلك كله مهارة وبراعة توصلهم إلى ما يبغون من الغايات والمقاصد ، ولكنها ما أوصلتهم إلا إلى الهلاك والضياع لما أبطلها الله وأهلكها بعد طول تطاول وتعاجب ، وتعاظم وانتفاخ ، كما تهلك المواشى بعد امتلائها واكتنازها من مراع سامة فاسدة ، وياله من مصير مخيف ونهاية مفزعة تنتظر هؤلاء المخالفين عن أمر الله المشاقين لرسوله ﷺ .

هذا ولما كان شأن المؤمنين الصادقين غير ذلك فقد التفت السياق عن هؤلاء المخالفين وأعرض عنهم ليتوجه بحديثه إلى المؤمنين يحذرهم مثل هذا الطريق ، ويوجههم إلى المداومة على طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ وتجنب ما يفسدون به أعمالهم حتى لا يكونوا مثل هؤلاء ويلقون مثل مصيرهم .

إنه يأمرهم بطاعة الله لأن طاعته هى الهدف الأسمى لهذه الحياة وهى المقصد الأول لخلق الناس [(١)] وإرسال الرسل وإنزال الكتب ، ثم يأمرهم بطاعة الرسول ﷺ لأنه المبلغ عن الله والداعى إلى توحيده وعبادته فطاعته طاعة لله [(٢)] ، إذ لا يأمر إلا بما يتلقى عن الله ، ثم هو ينهاهم أخيرا أن يحدث منهم ما يبطل أعمالهم ويفسدها ، وهو توجيه يحفظ على المسلمين سلامة منهجهم ، ويحمى صراطهم من الالتواء والانحراف عن هدى الله وهدى رسوله ﷺ أو التعرض لإفساد أعمالهم وتضييعها فيأتون عند الجزاء وهم صفر الأيدى لا عمل لهم يثابون به .

---

(١) قال تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ » ( الذاريات ٥٦ ) .

(٢) هذا صريح وواضح فيما قاله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ( الحشر ٧ ) .

« ويوحى هذا التوجيه بأنه كان فى المسلمين آنذاك من لا يتحرى الطاعة الكاملة ، أو من تشقل عليه بعض التكاليف وتشق عليه بعض التضحيات التى يقتضيها جهاد الطوائف الأخرى القوية التى تقف فى وجه الإسلام وتناوشه من كل جانب والتى تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قربى يصعب عليهم فصمها والتخلى عنها نهائيا كما تقضى بذلك عقيدة الإسلام [(١)] » .

ولا يلبث السياق - فى ختام هذا المقطع - أن يعود بالحديث عن هؤلاء الكفار الصادين عن سبيل الله والمشاقين لرسوله ﷺ وهى عودة لتأكيد ما قرره الله عنهم صدر هذا المقطع وإنذارهم للمرة الأخيرة من جهة ، ولإفساح فرجة من الأمل لهؤلاء ، وإعادة الاعتبار لهم ولأعمالهم إن تخلوا عما هم فيه وتداركوا أمرهم ، وبادروا - قبل موتهم - إلى التوبة والدخول فى الإسلام من جهة أخرى [(٢)] ، إذ ما تزال الفرصة أمامهم فى هذه الدنيا ، وباب التوبة مفتوحا حتى غرغرة الموت ، فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة ، وقد ذهبت الفرصة الأخيرة التى لن تعود .

(١) قال تعالى فى تقرير إخلاص العقيدة لله وتخليصها من هذه العلائق والوشائج :
« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » ( التوبة ٢٣ - ٢٤ ) .

(٢) أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن العاص قوله ﷺ : « يا عمرو بايع فإن الإسلام يجب ما قبله » الفتح الربانى ٢٢ / ٣٣٩ .

ثم هى عودة كذلك فيها من التحذير للمؤمنين وتنبيههم لاتقاء كافة الأسباب التى تقربهم من طريق هؤلاء المشاقين ، وهو طريق خطر مشؤوم ، فهو إذ يتحدث عن الكافرين لينذرهم صراحة لا يغفل المؤمنين وتحذيرهم ضمنا على طريقة القرآن الكريم التى تفهم من قوله تعالى : « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ » ( الأنفال ٥٧ ) .

فإن ركب هؤلاء المخالفون المشاقون رؤوسهم بعد هذا الإنذار ، وأصروا على جحدهم توحيد الله وصدهم من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، وحالوا بين هؤلاء وما أرادوا ، ثم ظلوا على ذلك حتى داهمهم الموت فلن يعفو الله سبحانه عنهم ، ولن يغفر لهم صنيعهم ، بل يعاقبهم ويفضحهم على رؤوس الأشهاد ، والآية صريحة هنا فى أن الله عز وجل لا يغفر الكفر به أبدا ويغفر ما دونه من معاص وآثام كما نص عليه كذلك فى قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ » ( النساء ٤٨ ) .

هذا ومن لطائف التفسير ووقفات المفسرين فى هذا المقطع .

١ - فى تقرير الله ووعده القاطع أن الكافرين الصادين عن سبيله والمشاقين لرسوله ﷺ لن يضروا الله شيئا - معنى آخر لعله المقصود الأول قبل هذا الظاهر من التقرير - مادام هؤلاء فى حقيقة أمرهم أضأل وأضعف من أن يذكروا فى هذا المجال إذ لا يضر الله شئ - وإنما المقصود أنهم لن يضروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته ، ولن يحدثوا حدثا فى نواميسه وسننه مهما بلغوا من قوتهم ، ومهما قدروا على

إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت ، فإن هذا بلاء وقتى يقع بإذن الله لحكمة يريدها وليس ضررا حقيقيا لناموس الله وسننه ونظامه ونهجه وعباده القائمين عليها ، بل ربما أحدث هذا البلاء فى صفوف المسلمين ما يحفزهم إلى النهوض برسالتهم ، ويبصرهم بمواطن الضعف فى بنيانهم ويعرفهم بكل من أوليائهم وأعدائهم [1] .

٢ - ذكر الله فى صفات الكافرين مشاقتهم لرسول الله ﷺ ، ثم قال فى الخبر عنهم إنهم لن يضروا الله شيئا ، فعلم من ذلك أن مشاقتهم إنما هى لله ، دل على ذلك نفى الضر عن الله فى الثانى ، كما علم من ذلك أن نفى الضر عن الله هو نفى للضر عن رسوله ، وقد علم ذلك من مشاقتهم لرسوله ﷺ فى الأول ، وذلك على سبيل الاحتباك كما مر نظير له من قبل .

وفى ذلك تهديد لهم معناه : أنهم يظنون أن ذلك الشقاق مع الرسول ﷺ ، وهم به يشاقونه وليس كذلك ، بل الشقاق مع الله فإن محمدا رسول الله ما عليه إلا البلاغ ، فإن ضروا فإنما يضروا المرسل ، لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر أو فسق فاسق [2] .

٣ - ذكر العلماء فى إفراد الله بالأمر بالطاعة وإعادته مع الرسول ﷺ - ومعلوم أن طاعته من طاعة الله [3] - أن ذلك تعليم من الله سبحانه

---

(١) انظر : فى ظلال القرآن ٦ / ٣٣٠٠ .

(٢) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٩ .

(٣) على نحو ما قال الله تعالى : « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » ( آل عمران ٣٢ ) .

لأدب الحديث عن الله ورسوله ﷺ ، وهو أن لا يجمعوا فى الذكر بين اسمه سبحانه واسم غيره ، وأما إذا آل الأمر إلى المخلوقين فيجوز ذلك بدليل أنه قال فى آية سورة النساء : « **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** » ( النساء ٥٩ ) ، وهذا على نحو ما روى من أن واحدا ذكر عند الرسول ﷺ وقال : من أطاع الله والرسول فقد رشد ، ومن عصاهما فقد غوى ، فقال رسول الله ﷺ : « بئس الخطيب أنت ، قل : « ومن يعص الله ورسوله [(١)] » ، وذلك حتى لا يوهم الجمع نوع مناسبة ومجانسة ، وهو سبحانه متعال عن ذلك [(٢)] ، وقد تكون إعادة الفعل اعتناء بشأنه ﷺ ، وقطعا لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس فى القرآن الكريم ، وإيذانا بأنه ﷺ له استقلال بالطاعة لم يثبت لغيره [(٣)] ..

أما ما جاء فى قوله تعالى : « **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ** » ( آل عمران ٣٢ ) فقد كان رداً لشبهة المنافقين فى الدين إذ زعموا أن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله ويأمر أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ، فنزلت هذه الآية تزيل هذه الشبهة ، وتؤكد أن متابعتهم له ﷺ لأنه رسول مبلغ عن الله فلزم أن تكون طاعته هى طاعة الله لا لأجل الشبهة التى ألقوها فى الدين [(٤)] .

---

(١) أخرجه مسلم عن عدىّ بن حاتم فى كتاب الجمعة ، الصحيح ٢ / ٥٩٤ .
(٢) التفسير الكبير ٣ / ٢٤٦ .
(٣) روح المعانى ٥ / ٦٥ .
(٤) التفسير الكبير ٢ / ٤٣٢ .

٤ - وفى تقرير الله إحباط أعمال هؤلاء المشاقين ، قال بعض المفسرين : إنهم أهل الكتاب من يهود خاصة ، وعلى ذلك فما سيحبطه الله من أعمالهم هو ما سلف من أعمالهم الطيبة والصالحة قبل بعثة محمد ﷺ يبطله كفرهم به وبالإسلام ، وكذا كل ما يبذلونه مستقبلا من محاولات للقضاء على محمد ﷺ أو على دينه الذى بعث به ويدعو إليه ، كل ذلك سيكون مصيره الفشل لا محالة وسيبطله الله .

وقد تحقق وعد الله وقراره فيهم فما نجحوا فى حياتهم فى الكيد لمحمد ولا فى حربهم التى شنوها على الإسلام والمسلمين كما جاء فى هذا التقرير الأول عنهم هنا ، ومن هلك منهم على غير الإسلام والإيمان بمحمد ﷺ فلن يثيبه الله على ما قدم من عمل صالح ولن يغفر له ما هو عليه من كفر بهما كما جاء فى التقرير الأخير فى هذا المقطع فهو على ذلك مهدر الاعتبار ، ولا حرمة له فى الدنيا ولا فى الآخرة .

٥ - وفى نهى الله للمسلمين عن إبطال أعمالهم « ولا تبطلوا أعمالكم » ذكر المفسرون صورا عدة مما يبطل بها العمل الصالح ويفسد ، فمن ذلك الشرك فإنه مبطل للعمل كما قال تعالى : « لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ » ( الزمر ٦٥ ) .

ومنها ترك طاعة الرسول ﷺ كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم بتكذيب الرسول ﷺ وعصيانه ، يؤيده قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » ( الحجرات ٢ ) .

ومنها التفاخر بالعمل الصالح والمنّ به كما قال تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » ( الحجرات ١٧ ) ، وذلك أن من يمن بالطاعة على الرسول ﷺ كأنه يقول : هذا فعلته لأجل قلبك ، ولولا رضاك به لما فعلت ، وهو مناف للإخلاص ، والله لا يقبل إلا العمل الخالص لوجهه [١] ، وذلك كبنى أسد وغيرهم لما أسلموا قالوا لرسول الله قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلنا كأنهم منّوا بذلك [٢] ، ومثله المن بالصدقة .

ومنها الرياء والسمعة والشك والنفاق كما روى عن ابن عباس ، أو العجب كما روى عن غيره فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب [٣] .

٦ - ولعل ما يجمع هذه الصور كلها من إبطال الأعمال ما قيل إنها المعاصى المبطلة والمحبطة للطاعات ، تماما كما أن الحسنات يذهبن السيئات ، قال قتادة : من استطاع منكم أن لا يبطل عملا صالحا بعمل سوء فليفعل ، وروى عن أبى العالية ( ض ) قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » ، فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، وخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم .

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٥٢٩ .

(٢) روح المعانى ٢٦ / ٧٩ .

(٣) روح المعانى ٢٦ / ٧٩ .

وعن ابن عمر ( ض ) قال : كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شئ من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت « أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ » فقلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا : قد هلك حتى نزل قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » ( النساء ٤٨ ) فلما نزلت كففنا عن القول فى ذلك ، فكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه وإن لم يصب منها شيئا رجونا له [١] .

وهكذا نرى كيف كان وقع هذا التوجيه عنيفا وعميقا فى نفوس المسلمين الصادقين وكيف كان تلقيهم له وتأثرهم به فاهتزت له قلوبهم وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم ويذهب بحسناتهم ، وكيف حذروا من الوقوع فى هذه المبطلات وتحروا أن يكونوا وفق هذا التوجيه أبدا وأن يطابقوا أنفسهم عليه [٢] .

٧ - فرع بعض العلماء على النهى عن إبطال العمل مسألة احتجوا فيها بهذه الآية على أن التحلل من التطوع - صلاة كان أو صوما - بعد التلبس به لا يجوز ؛ لأن فيه إبطال للعمل وقد نهى الله عنه ، فمن فعله وجب عليه القضاء وهو مذهب الحنفية والمالكية ، وقال من أجازوا ذلك وهم الشافعية والحنابلة : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض ، فنهى المرء عن إحباط ثواب عمله ، فأما ما كان نفلا فلا ؛ لأنه ليس

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨١ ، روح المعانى ٢٦ / ٧٩ .
(٢) انظر : فى ظلال القرآن ٦ / ٣٣٠١ .

واجبا عليه ، فإن زعموا أن اللفظ عام فالعام يجوز تخصيصه ، ووجه تخصيصه أن النفل تطوع والتطوع يقتضى تخييرا [1] ، ولأن المتطوع أمير نفسه وإلزامه إياه مخرج عن وصف التطوع قال تعالى : « مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » ( التوبة ٩١ ) ، فمن ترك النافلة بعد الشروع فيها فلا شئ عليه ما عدا الحج فيجب عليه الإتمام ، وفى الصلاة والصوم يستحب له الإتمام ولا يجب .

وقد استدل أصحاب المذهب الأول بما روى عن عائشة قالت : كنت أنا وحفصة صائمتين فعرض لنا طعام اشتهيناه فأكلنا منه فجاء رسول الله ﷺ فبدرتنى إليه حفصة - وكانت بنت أبيها - فقالت يا رسول الله إنا كنا صائمتين فعرض لنا طعام اشتهيناه فأكلنا منه ، فقال : اقضيا يوما آخر مكانه [2] ، ومن طريق آخر عنها النص على تطوعهما فى هذا الصيام قالت : أصبحت أنا وحفصة صائمتين متطوعتين فأهدى إلينا طعام فأعجبنا فأفطرنا ، فلما جاء النبى ﷺ بدرتنى حفصة فسألته فقال : صوما يوما مكانه [3] » ، وقالوا فى دليل المذهب الثانى : إن المتطوع أمير نفسه ولا سبيل عليه قبل أن يشرع ، أما إذا شرع فقد ألزم نفسه وعقد عزمه على الفعل فوجب أن يؤدى ما التزم وأن يوفى بما عقد [4] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٥ ، أحكام القرآن - الكيا الهراس ، ٤ / ٤٠١ .
(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الصوم - السنن ٢ / ١١٩ .
(٣) أحكام القرآن - الرازى الجصاص ١ / ٢٣٦ .
(٤) أحكام القرآن - الرازى ١ / ٢٣٥ - ٢٣٩ .

## المقطع العاشر

## دعوة المسلمين إلى الجهاد والإنفاق

قال تعالى: « فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ٣٥ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ٣٦ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ٣٧ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ٣٨ ».

**التحليل اللغوي والقراءات:**

**فَلاَ تَهِنُوا** : الفاء واقعة في جواب شرط مفهوم مما قبلها ، أي إذا علمتم حال الكفار هذا فلا تهنوا ، وقيل : هي لترتيب النهي على ما سبق من الأمر بالطاعة[1] ، والفعل من الوهن بسكون الهاء وهو الضعف عامة سواء من حيث الخلق والخلق ، أو النفس والعمل وغيرها ، وبفتحها لغة فيه ، تقول : وهن العظم يهن وهنا إذا ضعف ، ومنه قوله تعالى : « حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ » ( لقمان ١٤ ) ، أي ضعفا على ضعف كلما عظم الحمل في بطنها ، وقوله تعالى : « فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي

---

(١) روح المعاني ٢٦ / ٨٠ .

سَبِيلِ اللَّهِ » ( آل عمران ١٤٦ ) ، أي ما فتروا وما جبنوا عن قتال عدوهم[١] .

والمراد النهي عن المبالاة بالأعداء وإظهار الضعف لهم بالفتور والجبن عن قتالهم بحب الدنيا وكراهية الموت[٢] .

**وَتَدْعُوا** : الفعل داخل في حيز النهي عن الفعل السابق بالعطف عليه ، والدعاء إلى الشئ الحث على قصده وطلبه ، والمراد نهى المسلمين عن طلب الصلح والمهادنة بدءا خوارا منهم وإظهارا للعجز فذلك إعطاء للدنية فى دينهم ، أو كما قال قتادة : لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها[٣] .

والفعل بضبطه « تَدْعُوا » مضارع دعا قراءة الجمهور ، وقرأ السلمي بتشديد الدال « تدّعوا » من ادعى بمعنى دعا[٤] .

**السَّلْمِ** : السلم بفتح السين وكسرها على وجوه وما هنا منها هو الصلح والسلام والمسالمة ، كما جاء في قوله تعالى : « وَإِنْ جَنَحُوا

---

(١) لسان العرب ، مادة : وهن ٦ / ٤٩٣٤ ، المفردات ص ٨٤٠ .

(٢) قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعي عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ ، قال : « بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن » فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » أخرجه أبو داود عن ثوبان في كتاب الملاحم السنن ٤ / ١١١ .

(٣) انظر : فتح القدير ٥ / ٤١ .

(٤) انظر : المفردات ص ٢٤٤ ، روح المعاني ٢٦ / ٨٠ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٦ .

لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا[1] » ( الأنفال ٦١ ) ، وهو بالفتح قراءة حفص عن عاصم ، وبالكسر قراءة الحسن وحمزة والأعمش وغيرهم[2] ..

**وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ** : أي الغالبون الأعزة واستعمال العلو في معنى الغلبة ورفعة المنزلة مجاز مشهور ، أى أنتم أعز منهم ؛ لأنكم أهل الهدى المؤمنون والحجة لكم وإن غلبوكم في بعض الأوقات كقوله تعالى : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ[3] » ( المنافقون ٨ ) .

والجملة هنا حالية مقررة لمعنى النهي قبلها ، ومؤكدة لوجوب الانتهاء ، وكذا جملة « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » أي ناصركم بعدها ، فإن كونهم الأغلبين وكونه عز وجل ناصرهم من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل والضراعة[4] .

ويجوز أن يكونا جملتي استئناف أخبر أولا بقوله : « أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ » فهو إخبار بمغيب أبرزه الوجود ، ثم ارتقى إلى رتبة أعلى من التي قبلها ، وهي كون الله تعالى معهم[5] .

**لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ** : الفعل من الوتر ، وهو الجناية التي يجنيها الرجل على غيره من قتل أو نهب أو سبي[6] ، تقول : وتره إذا قتل له

---

(١) المفردات ص ٣٥١ ، لسان العرب ، مادة : سلم ٣ / ٢٠٧٩ .

(٢) روح المعاني ٢٦ / ٨٠ ، التبصرة ص ٥٠٩ .

(٣) وقيل في معنى الأعلون : أنتم أعلم بالله منهم ، وأنتم أولى بالله منهم ، وكلها متقاربة ، انظر : أحكام القرآن للرازي ٣ / ٣٩٣ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٦ ، روح المعاني ٢٦ / ٨٠ .

(٤) وعلى ذلك تكون جملة « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » بمعونته وتأييده ونصره وعدا من الله تعالى بذلك كما قال : « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » ( العنكبوت ٦٩ ) .

(٥) روح المعاني ٢٦ / ٨٠ .

(٦) لسان العرب ، مادة : وتر ٦ / ٤٧٥٨ .

حميما فأفرده منه ، أو سلب له مالا وذهب به ، ومنه الموتور الذي قتل له قتيل فلم يدرك بدمه ، وحقيقته - كما قال الزمخشري - أفرده من قريبه أو ماله ، من الوتر وهو الفرد ، والترة النقص ، ومنه الموتر كأنه نقص منه ما يشفعه ، ومعنى « لَنْ يَتِركُمْ » على ذلك لن ينقصكم أو يضيع أعمالكم ، كما تقول : وتره حقه أي نقصه ، ومنه الحديث « الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله[1] » أي ذهب بهما ، شبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام ، وفيه هنا من الدلالة على مزيد لطف الله بعباده ما فيه[2] .

**الدُّنْيَا** : مؤنث الأدنى وجمعها دنى ، نحو الكبرى والكبر ، وهي من الدنو بمعنى القرب ، كما في قوله تعالى : « **إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى** » ( الأنفال ٤٢ ) ، والسماء الدنيا لقربها من ساكني الأرض ، وأكثر ما تستعمل في القرآن بمعنى الأولى فتقابل بالآخرة ، وسميت حياتنا بالدنيا لبعد الآخرة عنها كما هنا ، وكما في قوله تعالى : « **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** » ( النحل ١٢٢ ) ، وقوله تعالى : « **لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ** » ( البقرة ٢٢٠ ) ، فهو متناول للأحوال في النشأة الأولى وما يكون في النشأة الآخرة[3] ، والحياة الدنيا أي الأولى الفانية والتي هي طريق للآخرة الباقية .

---

(١) أخرجه البخاري عن ابن عمر في كتاب مواقيت الصلاة راجع : فتح الباري ٢ / ٣٠ .

(٢) انظر : الكشاف عن حقائق التنزيل ٣ / ٥٣٩ ، روح المعاني ٢٦ / ٨٠ .

(٣) المفردات ص ٢٤٩ ، لسان العرب مادة : دنا ٢ / ١٤٣٦ .

**لَعِبٌ وَلَهْوٌ** : اللعب ضد الجدّ ، وهو ما اشتغل به المرء مما ليس فيه ضرر في الحال ولا منفعة في المآل ولم يمنعه من مهام الأمور ، ولذا يقال لكل من عمل عملا لا يجدي عليه نفعا : إنما أنت لاعب ، وفي حديث الجساسة :و لعب بنا الموج شهرا ، سمي اضطراب الموج لعبا لما لم يسر بهم إلى الوجه الذي أرادوه[1] .

فأما إذا اشتغل المرء بما ليس فيه ضرر حالا ولا نفع مآلا ومنعه عن مهام الأمور فذاك اللهو[2] ، يقال : لهوت بكذا تشاغلت به وغفلت عن غيره ، ولهيت عن كذا انشغلت عنه بلهو ، وألهاه شغله عما هو أهم إليه ، قال تعالى : « **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ** » (النور ٣٧ ) ، أي لا يشغلهم التهافت عليها عن الصلوات والعبادات[3] .

**أُجُورَكُمْ** : الأجور جمع أجر وهو ما يعود من جزاء العمل على صاحبه دنيويا كان أو أخرويا ، عن عقد أو غير عقد مثل قوله تعالى : « **وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** » (العنكبوت ٢٧ ) ، « **وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا** » (يوسف ٥٧ )[4] ، والإضافة فيه للتعريف ، أي الأجور الموعودة في قوله تعالى : « **أَجْرٌ كَرِيمٌ** » ، « **أَجْرٌ كَبِيرٌ** » ، « **أَجْرٌ عَظِيمٌ**[5] » ، وهي ثواب إيمانهم وتقواهم من الباقيات الصالحات .

---

(١) لسان العرب ، مادة : لعب ٦ / ٤٠٣٩ .

(٢) انظر التفسير الكبير ٧ / ٥٣٠ .

(٣) المفردات ص ٦٨٨ .

(٤) المفردات ص ١٠ .

(٥) انظر الآيات ٧ ، ١١ من سورة الحديد ، ١٧٢ آل عمران .

**لا يَسْأَلْكُمْ** : من السؤال وهو الاستدعاء عامة ، فإن كان للشئ كالمال أو ما يؤدي إليه كما هنا كان استعطاء ، تقول : سألته الشئ بمعنى استعطيته إياه ، وجواب مثل هذا السؤال يكون باليد فعلا واللسان خليفة لها إما بوعد أو رد ، وإن كان السؤال عن شئ كالمعرفة أو ما يؤدي إليها - وهو الشائع - كان استخبارا ، تقول : سألته عن الشئ إذا استخبرته عنه ، وجواب مثل هذا السؤال على اللسان واليد خليفة له بالكتابة أو الإشارة(١) .

والمراد هنا من نفي استعطاء الله أموالهم وطلبها إما نفيه طلبها كلها ، وإنما بعضها بمقدار ضرورة الجهاد وليرجع ثواب الإنفاق عليهم ، أو أن هذه الأموال أمواله هو وهي في يدهم عارية ، فهو المالك الحقيقي لها وهو منعم عليهم بها(٢) .

**فَيُحْفِكُمْ** : يلح عليكم وهو من الإحفاء ومعناه الإلحاح والإلحاف كما جاء في قوله تعالى: «**لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً**» (البقرة ٢٧٣) ، وهو الاستقصاء والمبالغة في الشئ ، تقول : أحفى شاربه إذا استقصى في أخذه واستأصله ، وأحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح ، ومنه حديث الرسول ﷺ « احفوا الشوارب واعفوا اللحى(٣) » ، وأصل ذلك من حفا الدابة إذا انسحجت أقدامها من كثرة المشي حتى رقت وأصابها الحفا(٤) والفاء في أوله للتعقيب بين الإحفاء والسؤال بيانا لشح الأنفس .

(١) المفردات ص ٣٦٤ ، لسان العرب ، مادة : سأل ٣ / ١٩٠٧ .
(٢) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٣١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٧ ، روح المعاني ٢٦ / ٨١ .
(٣) أخرجه مسلم عن ابن عمر في كتاب الطهارة ، الصحيح ١ / ٢٢٢ .
(٤) انظر : لسان العرب ، مادة : حفا ٢ / ٥٣٥ ، المفردات ص ١٧٨ .

**تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ** : تبخلوا من البخل - بضم الباء وفتحها - وهو إمساك الأشياء وحبسها عما لا يحق إمساكها وحبسها عنه، ويقابل بالكرم والجود ، وهو نوعان : بخل بقنيات وأشياء نفسه وترك إعطائها وهو المراد هنا ، ومنه المبخلة مفعلة من البخل الشئ الذي يحملك عليه ، وبخل بقنيات وأشياء غيره وهو أكثرهما ذما[1] ، وهو أقرب ما يكون إلى الشح وهو أسوأ البخل وأشده ، قال رجل لابن مسعود عن الشح : ما أعطى ما أقدر على منعه ؟ قال : ذاك البخل ، والشح أن تأخذ مال أخيك بغير حقه .

وفي جملة « وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ » قراءات ، فقراءة حفص عن عاصم بياء المضارعة وفاعله ضمير لفظ الجلالة ، أو يكون ضميرا للسؤال أو للبخل فإنه سبب إخراج الأضغان ، والإسناد مجازي على ذلك .

وقرأ يعقوب بنون المضارعة « نُخْرِجْ » والفاعل ضمير الجلالة والأضغان منصوب فيهما على المفعولية ، وقرأ ابن عباس ومجاهد وغيرهما « وَتَخْرُجْ » بتاء مفتوحة وراء مضمومة ، و « أَضْغَانُكُمْ » بالرفع على الفاعلية ، وغير ذلك من قراءات[2] .

**لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ** : من الإنفاق وهو في المال إنفاده وإفناؤه كما في قوله تعالى : « **إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ** » (الإسراء ١٠٠ ) أي خشية الفناء والنفاد ، وأنفق المال صرفه وتصدق به[3] ،

---

(١) انظر لسان العرب ، مادة : بخل ١ / ٢٢٢ ، المفردات ص ٤٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٧ ، روح المعاني ٢٦ / ٨١ .
(٣) المفردات ص ٧٦٥ ، لسان العرب ، مادة : نفق ٦ / ٤٥٠٨ .

والمراد بالإنفاق هنا في سبيل الله هو الإنفاق المرضي لله تعالى مطلقا إما في جهاد أعداء الله ونصرة دينه وإما في صرفه إلى المستحقين من إخوانهم كالنفقة على الأهل والأقارب وإطعام الضيوف والزكاة وغير ذلك ، وفي كلا الجهتين تخذيل للأعداء ونصرة الأولياء[1] .

**فَمِنْكُم مَّن يَبْخَلُ** : دلت هذه الجملة بمفهومها في جواب الدعوة إلى الإنفاق على أن هناك من لا يبخل ، بل يبذل راضيا ويعطي فرحا بعطائه .

**وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ** : الغني غير المحتاج إلى أحد في شئ وكل أحد محتاج إليه ، وهو الغني المطلق ، وليس ذلك إلا لله تعالى ولا يشارك الله تعالى فيه غيره[2] ، ومنه قوله تعالى : « **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** » (فاطر ١٥ ) ، وهناك ضربان آخران من الغني :

أولهما : بقلة المقتنيات والاستغناء بغنى النفس وتعففها كما في قوله تعالى : « **وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى** » ( الضحى ٨ ) ، « **يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ** » ( البقرة ٢٧٣ ) ، أي لهم غنى النفس ويحسبهم الجاهل أن لهم القنيات لما يرى فيهم من التعفف والتلطف ، ومنه حديث الرسول ﷺ « ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغني غني النفس[3] » .

(١) التفسير الكبير ٧ / ٥٣١ ، روح المعاني ٢٦ / ٨٢ .
(٢) لسان العرب ، مادة : غني ٥ / ٣٣٠٨ .
(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب الرقاق – باب الغنى غنى النفس – فتح الباري ١١ / ٢٧١ .

وثانيهما : كثرة القنيات بحسب ضروب الناس كقوله تعالى : « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ » ( النساء ٦ ) ، وقوله : « إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ[1] » (التوبة ٩٣ ) .

والفقراء جمع فقير وهو من الفقر ضد الغنى ، والفقير المحتاج بإطلاق من سائر الموجودات كلها ، كما جاء في آية سورة فاطر السابقة ، وهو المراد هنا من فقر المخاطبين الكاملين في فقرهم ، ومن الفقر عدم المقتنيات أو قلتها كما في قوله تعالى: « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ » ( التوبة ٦٠ ) ، « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ( البقرة ٢٧٣ ) ، ومن الفقر فقر النفس مهما كثرت مقتنيات صاحبه ، وهو المعنى بقولهم : من عدم القناعة لم يفده المال غنى ، والمقابل بقوله ﷺ « الغنى غنى النفس » .

يَسْتَبْدِلْ : من الاستبدال وهو والتبديل والتبدل بمعنى تغيير الشئ وجعل مكانه آخر مطلقا ، كما في قوله تعالى : « وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ » ( سبأ ١٦ ) ، ومنه الأبدال وهم قوم صالحون يجعلهم الله مكان آخرين كلما مات واحد منهم أبدل بآخر ، أو الذين بدلوا أحوالهم الذميمة بأحوالهم الحميدة وهم المشار إليهم بقوله تعالى : « فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ [2] » ( الفرقان ٧٠ ) .

والمراد باستبدالهم إهلاكهم والإتيان بغيرهم مكانهم كما قال تعالى : « إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ » ( ابراهيم ١٩ ) ، فما من

(١) المفردات ص ٥٤٩ .

(٢) المفردات ص ٥١ ، لسان العرب ، مادة : بدل ١ / ٢٣٢ .

نبي أنذر قومه وأصروا على تكذيبه إلا حق عليهم القول بالإهلاك وطهر الله الأرض منهم وأتى بقوم آخرين طاهرين[1] .

**لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** : المثلية المنفية هنا هي في التولي عن الإيمان والتقوى والبخل في الإنفاق على جهاد المسلمين ومصالحهم ، بل يكونوا راغبين في كل ذلك متمثلين لكل ما يأمر به الله تعالى ويوجههم إليه[2] .

**التفسير والبيان :**

يجئ حديث هذا المقطع الأخير من السورة في دعوة المسلمين إلى الجهاد والإنفاق في مصالح المسلمين عامة وفي مدافعة الكفار وجهادهم بصفة خاصة - يجئ حديث هذا المقطع مرتبا على سابقه ترتيبا هو غاية في الحسن وسبك النظم من جهات عدة ، فإنه لما بين من قبل أن عمل الكفار الذي له صورة الحسنات محبط لا قيمة له وأن ذنوبهم التي هي أقبح السيئات غير مغفورة لهم وأن الله معاقبهم وخاذلهم فقد أبان بذلك ألا حرمة للكفار في الدنيا ولا في الآخرة ، وإنه لطبعي - بعد ذلك - أن ينهي الله المسلمين عن الضعف بجميع مظاهره أمام أمثال هؤلاء ، فلا يستثقلوا تكاليف الجهاد الطويل ، أو يضيقوا بمشقته الدائمة أو يقعوا في المهانة والهوان بطلب المهادنة والسلام فرارا من تلك التكاليف والمشقات[3] .

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ٥٣٢ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٨ ، روح المعاني ٢٦ / ٨٢ .
(٣) انظر : التفسير الكبير ٧ /٥٢٩ .

ولقد جاء التمهيد لهذا الأمر بأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ، وقد أمرهم الله ورسوله بقتال الكفار إذا وجد سببه وجد جده ، وماداموا قد أمروا بالجهاد وأمروا قبله بطاعة من شرعه وأمر به - فذلك يقتضي ألا يضعفوا أو يكسلوا ، ولا يهنوا أو يتهاونوا في شئ من ذلك ، فإن امتثالهم لأوامر ربهم وتعاليم رسولهم ﷺ في هذا الشأن ليس فيه حياتهم وبقاؤهم فحسب ، بل فيه - إلى جانب ذلك - تهذيب لهذه الحياة وصقل لها وارتفاع بها إلى المستوى العالي الكريم الذي يريده الله لهم .

فلننظر كيف كان القرآن الكريم يأخذ النفوس ويصفيها من رواسبها فنحن في حاجة إلى تحرى خطواته في التربية والنفوس هي النفوس .

إنه « يدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدي الظالم تحت أي مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة ، ودون بخل بالمال الذي لا يكلفهم الله أن ينفقوا منه إلا ما في استطاعتهم ، وإن لا ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها ويستبدل بهم قوما غيرهم ينهضون بتكاليفها ويعرفون قدرها[(١)] » .

وإذ ينهي الله المسلمين عن الضعف والجبن في قتال الكفار أو يهنوا في ابتغاء القوم ويتخاذلوا ، أو يطلبوا مهادنتهم ودعوتهم إلى الصلح

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٠٠ .

والمسالمة خورا وجبنا وخوفا على الحياة ولذاتها[1] فإنه بذلك يحذرهم أيضا ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين ليحذروا شبحه من بعيد ، ندرك هذا من ترتيب النهى عن الوهن والدعوة إلى السلم على ما ورد قبل ذلك من بيان مصير الكفار المشاقين .

وإنه ليعلل هذا النهي عن الضعف والمهادنة وما انطويا عليه من تحذير بعلل عدة تكفي كل واحدة منها لحملهم على الاستبسال في القتال ووقوفهم عندما أمر الله ونهي عنه ، وتدفعهم إلى الثقة والاطمئنان فيما عند الله من الجزاء الأوفى .

إنهم أولا يتميزون عن أعدائهم بأنهم الغالبون والأعزة لأنهم الأعلون ، والأعلون مطلقا في الاعتقاد والتصور للحياة ، وفي الارتباط والصلة بالله ، وفي المنهج والهدف وفي الشعور والسلوك ، فكيف لهم - بعد ذلك - أن يهنوا أمام الأدنون ويهادنوهم ؟ بل كيف يصح لهم ذلك وجهادهم في سبيل الله يثابون عليه الثواب الجزيل ، وقتال الأدنون لهم في سبيل الشيطان يلقون عليه العذاب الشديد ؟ .

---

(1) قد يثار هنا اعتراض واستشكال فحواه أنه قد علم قبل في أساس علاقة المسلمين بغيرهم من مبدأ السلم والمسالمة ، وما قرره الله تعالى في قوله : «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » ، فكيف يكون النهي هنا عن دعوتهم إلى السلم ، والأمر هناك بالجنوح إلى السلم إن جنحوا ؟ وبعبارة أخرى : أليس ما بين الآيتين هنا من التعارض داعيا للقول بنسخ إحداهما للأخرى ؟ والحق أنه لا مقتضى للنسخ بينهما ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداء ، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه الأعداء ، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص . انظر : فتح القدير ٥ / ٤١ .

وإنهم – ثانيا – في معية الله وليسوا وحدهم في ساحة الجهاد ، فالله معهم يؤيدهم بمدد من عنده ، وهو حاضر بصحبتهم يدفع عنهم بقدرته وقاهريته ، ومن كان في معية الله والله معه فلا يضره شئ بعد ذلك ، وليس بحاجة إلى أن يكون في معية غيره لأنه مع القوة التي لا تقهر والغلبة التي لا تتخلف ولو تمالأت عليه الدنيا كلها ، وما يكون أعداء المسلمين والله معهم ؟ .

ثم هم – أخيرا – لا يبخسون شيئا من أعمالهم أو تضحياتهم ، فكل ما يقدمونه ويبذلونه من جهد وتضحية بنفس أو مال ، وكل ما يصيبهم في ساحة المعركة وخضم الحياة محسوب لهم عند الله لا يضيع منه شئ ، وسيوفيهم أجرهم عليه كاملا ، فلن يضيع عليهم ثوابه ولن ينقصوا شيئا من هذا الثواب « فعلام يهن المسلم ويضعف أو يدعو إلى المهادنة والمسالمة والله يقرر له أنه الأعلى وأنه معه وأنه لن يفقد شيئا من عمله أبدا فهو مكرم منصور مأجور[1] » .

على أن سياق الآيات – وهو في معرض علاج النفوس وسبر أغوارها – يستأصل الداء من جذوره ، ويشير إلى مكمن الخطر الذي يصرف الناس عن الامتثال والاستجابة السريعة لشريعة ربهم ، إنه حب الدنيا وقصر النشاط عليها فحسب وصرف الجهود نحوها دون اعتبار لما بعدها من الحياة الآخرة الباقية على حين أن هذه الحياة الدنيا – في حقيقتها – ليست إلا لعبا ولهوا وزينة وتفاخرا وتكاثرا في الأموال والأولاد ، ومهما بدا لذلك من

(١) انظر : في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٠٢ .

قيمة فلا يلبث أن يضمحل ويذهب كله إلا ما كان منه في سبيل الله وطلب رضاه[1] .

فما ينبغي - والدنيا على هذا الحال وإلى هذا المآل - أن تكون صارفة عن رضا الله والاستجابة للجهاد في سبيله ، وما ينبغي أن تكون التضحية بها وفيها أمرا يشغل البال أو يورث الضعف والجبن وطلب السلم والموادعة من أعداء المسلمين ، وما يجمل بالمسلمين حقا أن يوصموا بعار الجبن والضعف أمام عدوهم من أجل الإبقاء على حياة هي - في ذاتها - لعب لاجد فيه . ولهو ليس وراءه من نتيجة أو غاية إلا الضياع ، ولا تكون الدنيا شيئا آخر غير ذلك حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله وهديه وحين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى من هذا اللعب واللهو .

إنما تكون للحياة الدنيا قيمة ومعنى حين تكون مزرعة للآخرة وفرصة

---

(١) لا يعني هذا رفض الإسلام طلب الدنيا عامة فمنذ وهم المسلمون هذا وشاع بينهم وهم في تأخر وجمود لا يحسدون عليهما ، بل إن منهج الإسلام في هذه المسألة مقرر في القرآن الكريم بوضوح شديد لا يحتاج إلى شرح أو تفسير ، قال تعالى : « وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِه مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » ( آل عمران ١٤٥ ) ، « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا . كُلًّا نُّمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » ( الإسراء ١٨ - ٢٠ ) ، « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ » ( القصص ٧٧ ) ، « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِه ، وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِه مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ » ( الشورى ٢٠ ) .

للإيمان والعمل الصالح ومجالا للطاعة والتقوى ، وامتحانا لقوة المسلم وصبره ، وميدانا لإحسان الخلافة فيها واستحقاق وراثة الدار الباقية والفوز بنعيمها المقيم ، ومن ثم قال الله عز وجل بعد هذا مباشرة : « وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ » .

وإذن فإن الإيمان والتقوى في هذه الحياة هما اللذان يجعلان للحياة الدنيا قيمة ومعنى . ويطبعانها بطابع الجد والتبعة ، ويرتفعان بها من مستوى اللعب الفارغ والمتع اللاهية والتصرفات العابثة إلى المستوى الإنساني الكريم الذي يليق بخلافة الإنسان في الأرض ، وحينذاك - فحسب - لن يكون ما يبذله المؤمن المتقي في هذه الدنيا ضائعا أو مقطوعا ، إنه باق عند الله لأنه موصول بمنهجه ، وعنه ينشأ الأجر الأوفي في الدار الباقية ، ويؤتيه الله أجره كاملا على إيمانه وتقواه وعلى جهاده في سبيله وعلى صبره في البأساء والضراء وحين البأس وقيامه على منهج الله أداء لفرائضه وأوامره واجتنابا لمحارمه ونواهيه .

وإذ يتطلب هذا المنهج من الإيمان والتقوى بذلا وتضحية سواء بالنفس أو المال - فإن الله سبحانه وتعالى - وهو أعلم بنفوس عباده - لم يعنت الناس أو يكلفهم شططا بطلبه إنفاق أموالهم كلها ، ولم يشق عليهم في ذلك لعلمه بشح النفوس وما فطرت عليه من حرص ، ولو كلفهم ذلك وطالبهم بما ليس في وسعهم من إنفاق أموالهم كلها وأكد على هذا الطلب بتكراره لهذا السؤال لضاقت بذلك صدورهم وظهرت سخائم نفوسهم وحبهم للدنيا والمال وكراهيتهم لبذله وإنفاقه ولكن الله لطيف رحيم ، لطف بهم فلم يسألهم أموالهم ، وكان بهم رحيما إذ ستر عليهم ضغائنهم وسخائم نفوسهم

وطوايا سرائرهم ، قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان للإسلام من حيث محبة المال بالجبلة والطبيعة ، ومن نوزع في حبيبته ظهرت طويته التي كان يسرها[1] .

ثم يختم المقطع وتختم معه السورة كلها بالدعوة العامة للمسلمين إلى إنفاق بعض أموالهم في سبيل الله وتقرير أن بعضهم سيبخل بالإنفاق ولا يرتفع إلى مستوى الدعوة مثل من استجابوا لها وبذلوا من نفوسهم وأموالهم وأعطوا بذلك صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون الصادقون قلما نجد لها نظيرا في التاريخ البشري كله ، ولكن القرآن الكريم لا يدع غيرهم ممن بخلوا وضنوا بأموالهم دون أن يعالج شح نفوسهم في يسر وسهولة وحكمة حكيمة حين يضع أمام المنفقين والباخلين معا نتيجة إنفاق الأولين وبخل الآخرين ، ثم يمضي لتقرير حقيقة أخرى تسهم من جانب آخر في علاج نفوسهم ، فمن يبخلون بالإنفاق في سبيله ليس محتاجا لأموالهم لأنه الغني ، على حين أنهم المطالبين بالإنفاق وعدم البخل فقراء إليه دائما .

فإذا ما انتهى بعلاجهم إلى هذا الحد كانت الكلمة الأخيرة وفصل الخطاب في تهديد واضح ونذارة رهيبة إن لم ينهضوا بهذه التكاليف أهلكهم الله واختار لتنفيذها أقواما ينهضون بها ولا يكونون أمثال هؤلاء المتولين عنها الباخلين بالإنفاق على إقامتها واستمرارها .

ولنمض مع الآية الأخيرة في علاجها وتقريراتها حيث تجئ الدعوة إلى الإنفاق عالية مدوية تصك الأسماع وتنبهها « هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ

(1) انظر تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٨٢ ، فتح القدير ٥ / ٤٢ .

لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُمْ مَّن يَبْخَلُ » ، وهي دعوة تعالج واقع المسلمين في كل عصر وفي كل دولة ، فإقامة الدين وحمايته يحتاجان إلى جيش مسلم ، وتجييش الجيوش وتسليحها يحتاج إلى إنفاق الأموال التي ما جعلت إلا لتنفق فإذا دعى المؤمنون لإنفاقها في سبيل الله فإنما دعوا إلى توجيه إنفاقها هذه الوجهة ، ومن ثم لا ينبغي لهم أن يبخلوا بهذا الإنفاق لحماية الإسلام وإعزاز أهله والتمكين له في كل مكان .

ولكن المسلمين مع هذا - شأن البشر عامة - يوجد بينهم البخيل بماله كما يوجد الكريم الذي لا يتوانى عن البذل ، وإذا كان من الطبعي بالنسبة للمؤمن أن يكون كريما ؛ لأن ما يبذله هو رصيد له مذخور يجده يوم يحتاج إليه ويحشر مجردا من كل ما يملك فلا يجد إلا ذلك الرصيد المذخور ، فإن بخل المسلم بماله على دينه وعلى فقراء المسلمين المحتاجين إليه يبدو أمرا غريبا لا يتفق مع نظرة المؤمن الحق إلى هذه الحياة ، ولذا يذكره الله هنا ليبين نتيجته وعاقبته « وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ » فإذا بخل المسلم بالبذل فإنما يبخل على نفسه ويقلل من رصيده عند الله ويستخسر المال في ذات نفسه وشخصه ، وينتقص أجرها من الثواب عند الله ويباعد بينها وبين رضا الله والقرب منه في جنات النعيم .

وهكذا لا تعود نتيجة البخل إلا على البخيل إذ ينفقه في ملذاته وشهواته أو يدخره لمن ينفقه في مثل هذا عادة فلا يبقى له منه في أخراه إلا الحساب عليه من أين جمعه ؟ وفيم أنفقه ؟ ويتحمل جريرة بخله وحده لا يشاركه فيها أحد .

نعم ، فإن الله لا يطلب إليهم الإنفاق والبذل إلا وهو يريد لهم الخير ويريد لهم الكنز والذخر ، وما يناله شئ مما يبذلونه وما هو في حاجة إلى ما ينفقون ، وهنا يطلع الله هؤلاء على ما غفلوا عنه في حرصهم وشحهم بالمال ويوجههم إلى حقيقة كبرى ، فمن يطلب منهم الإنفاق هو الذي أعطاهم أموالهم في الدنيا وهو الغني عما أعطاهم ، والغني عما ذخره لهم في الآخرة ، فلا يدعوهم إلى الإنفاق لحاجة إلى أموالهم ، ولو شاء لأغنى فقراء المسلمين دون أن يعطيهم الأغنياء شيئا ، ولو شاء لنصر دينه دون قتال ، ولو شاء لمنح المتقين من الأموال ما يكفي نفقات الحروب ومطالبها دون أن يسهم بخلاء الأغنياء في هذه النفقات .

وإذا كان الله هو الذي منحهم حياتهم ورزقهم الأموال التي يبخلون بها في سبيله ، فإنهم هم الفقراء إليه في الدارين وفي الحالين ، فقراء إلى رزقه في الدنيا كما هم فقراء إلى أجره في الآخرة يتفضل به عليهم فيها كما وهبهم رزقهم في الدنيا ، ومن ثم فلا يضره بخلهم بل يضرون به أنفسهم ، كما لا ينفعه إنفاقهم بل ينفعون به أنفسهم ، ففيم بخلهم إذن ؟ وفيم شحهم ؟ وكل ما في أيديهم وما ينالونه من أجر على ما ينفقون هو من عند الله ومن فضل الله ؟ .

على أن غنى الله عن أموال هؤلاء غير المستجيبين لدعوته ليس هو المدلول الكامل لغني الله تعالى ، إذ يدخل فيه كذلك غناه عن ذواتهم وأشخاصهم كذلك ، فإن اختيار الله لهم لحمل دعوته تكريم لهم وإعلاء لشأنهم ، وهو تكريم وإعلاء منوطان بقيامهم بتكاليف هذه المكانة وتلبية

هذه الدعوة وحمل الأمانة وإحسان القيام بها ، فإن هم امتثلوا وأدركوا قيمة ما أعطوا فهان عليهم كل ما عداه من ذواتهم وأموالهم فقد أحسنوا إلى أنفسهم ، وإن كانت الأخرى وتولوا عن ذلك ، ولم يدركوا قيمة ما كلفوه ومنحوه فالله غني عنهم يذهب بهم إن شاء ويأت بآخرين مؤهلين لهذا التكريم والإعلاء مقدرين لفضل الله ومستعدين لحمل الأمانة والقيام بما يكلفون به بنفوس راضية ، فلا يبخلون بأموالهم ولا بأنفسهم في سبيل الله، ولا يكونون أمثال هؤلاء أبدا في توليهم عن الإيمان والتقوى وإعراضهم عن تكاليف الرسالة وحمل الأمانة ، ثم بخلهم عن الإنفاق في سبيل الله .

وقد روى في أمثال هؤلاء ما ذكر من أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين ذكر الله إن تولينا استبدلوا بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال - أبو هريرة - : وكان سلمان بجنب رسول الله ﷺ ، قال : فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان وقال : هذا وأصحابه ، والذي نفسي بيده ، لو كان الإيمان منوطا بالثريا لناله رجال من فارس[(١)] .

ومن لطائف هذا المقطع ما ذكره المفسرون هنا من الاستنباطات والفوائد .

١ - في قول الله تعالى : « فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ » دليل على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين والكفار ، فأما إذا كان فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الإمام المسلم في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله ﷺ

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في كتاب التفسير ، السنن ٥ / ٦٠ .

عند الشدة يوم الأحزاب إذ وادع عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري وصالحهما على أن يعطيهما ثلث ثمر المدينة وينصرفا بمن معهما من غطفان ويخذلا قريشا ويرجعا بقومهما عن المسلمين ، قال ابن العربي : فإذا كان المسلمون على عزة ، وفي قوة ومنعة وعدة شديدة - أي كما قال تعالى : « وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ » .

فلا صلح حتى تطعن الخيل بالقنا    وتضرب بالبيض الرقاق الجماجم

وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لا نتفاع يجلب به أو ضر يندفع بسببه فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه ، وأن يجيبوا إذا دعوا إليه ، وقد صالح النبى ﷺ أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم ، وقد وادع الضمري وصالح أكيدر دومة وأهل نجران، ومازالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرعناها سالكة ، وبالوجوه التي شرحناها عاملة[1] واستدل الكيا الهراس - من فقهاء الشافعية - بهذا النهى على منع مهادنة الكفار إلا عند الضرورة ، وعلى تحريم ترك الجهاد إلا عند العجز عن مقابلتهم لضعف يكون بالمسلمين[2] .

٢ - وفي نهي الله عن الوهن أمام العدو والمهادنة معه وما فيهما من تحذير للمسلمين ما يشي بوجود أفراد من المسلمين آنذاك كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة وتهن عزائمهم دونه ويرغبون في

(١) راجع : أحكام القرآن - ابن العربي ٢ / ٨٧٦ ، وانظر : الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٤٠ .
(٢) راجع : أحكام القرآن - الكيا الهراس ٤ / ٤٠١ ، الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٢٥٦ .

السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب ، وربما كان بعضهم ذوي قرابة في المشركين ورحم أو ذوي مصالح وأموال ، وكان هذا يجنح بهم إلى السلم والمهادنة ، فالنفس البشرية هي هي ، والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها ، وقد نجحت نجاحا خارقا ، ولكن هذا لا ينفي أن كانت هناك رواسب في بعض النفوس وبخاصة في ذلك العهد المبكر من العهد المدني ، وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب[1] .

٣ - في قول الله تعالى : « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » من الهداية والإرشاد ما يمنع المكلف من الإعجاب بنفسه من جهة ، ويورثه الاطمئنان والثقة في نصر الله من جهة أخرى ، وذلك أنه تعالى لما قال : « وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ » كان ذلك سببا للافتخار ، فقال : « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » يعني ليس ذلك من أنفسكم بل من الله ، وكان المؤمنون يرون ضعف أنفسهم وقلتهم مع كثرة الكفار وشوكتهم فكان يقع في نفس بعضهم أنهم كيف تكون لهم الغلبة وهم هكذا ؟ فقال : إن الله معكم ، أي لا يبقي لكم شك ولا ارتياب في أن الغلبة لكم كقوله تعالى : « لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ( المجادلة ٢١ ) ، وقوله : « وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » ( الصافات ١٧٣[2] ) .

٤ - في قول الله تعالى : « وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ » وعد من الله تعالى لأنه لما قال : « وَاللَّهُ مَعَكُمْ » كان فيه أن النصر بالله

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٠١ .

(٢) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٣٠ .

لابكم ، فكأن القائل يقول : لم يصدر مني عمل له اعتبار ، فلا أستحق تعظيما ، فقال : هو ينصركم ، ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئا ، ويجعل كأن النصرة بكم ومنكم ، فكأنكم مستقلون في ذلك ويعطيكم الله أجر المستبد[1] .

٥ - في معنى قوله تعالى : « وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ » وجوه كلها صالحة مع سياق الآيات وموضوعها منها أن الأموال لله حقيقة ، وهي في أيدي الناس عارية ، وقد طلب منهم وأجاز لهم صرفها في جهة الجهاد فلا معنى لبخلهم بماله ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى « وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » (الحديد ١٠) ،« وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ » ( الحديد ٧ ) ، ومنها أن الله لا يسألهم جميع أموالهم ، وإنما يسألهم شيئا يسيرا منها ، وفي ذلك من المقابلة الحسنة مع قوله : « يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ » كأنه قال : يعطكم كل الأجور ويسألكم بعض المال[2] .

٦ - فيما كشفه الله في قوله تعالى « إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ » من طبيعة النفس البشرية وحبها للمال حبا يسيطر على قواها ونزعاتها جميعا - تقرير لواقعية الإنسان في عالمه هذا ، وأسلوب في التربية حكيم ، فهو لا يطلب منهم أن

---

(١) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٣٠ .

(٢) انظر : التفسير الكبير ٧ / ٥٣١ .

ينفقوا في سبيل الدفاع عن دينه إلا بعض أموالهم حتى لا ينكشف ما طبعوا عليه من بخل بالمال وحرص عليه ، وتضحية بالمبادئ والمثل في سبيله ، وحتى لا يظهر ما حرصوا على إخفائه من أضغان وأحقاد ونزعات شريرة .

وكما تكشف الآية عن حكمة اللطيف الخبير ورحمته ولطفه بالنفوس تكشف كذلك عن التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين ومراعاته لفطر الناس وتناسقه مع بشريتهم بكل طاقاتها وأحوالها ، وعلى ذلك فنظام الإسلام نظام رباني وإنساني معا ، فهو رباني من ناحية أن الله هو الذي أقام منهجه وقواعده ، وهو إنساني من ناحية أن الله راعى في تكاليفه طاقة الإنسان وحاجته ، فهو الذي خلقه وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير[1] ، فما جعل الله على المسلمين في دينهم من حرج ، ولم يكلفهم أبدا ما فوق وسعهم أو يشق عليهم ، بل يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر فكان بهم رؤوفا رحيما .

**والله أعلم**

**والحمد لله - أولا وآخرا - ولا حول ولا قوة إلا بالله**

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٠٢ .

# مصادر الكتاب ومراجعه(*)

- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - طبع الحلبي بالقاهرة ١٩٧٨ م .
- أحكام القرآن - أبو بكر أحمد بن علي الجصاص - طبع دار الفكر بيروت د . ت .
- أحكام القرآن - أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي - طبع دار المعرفة بيروت د . ت .
- أحكام القرآن - إلكيا الهراس عماد الدين بن محمد الطبري - طبع دار الكتب الحديثة القاهرة د . ت .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - أبو السعود بن محمد العمادي - دار الفكر - بيروت ١٩٧٨ م .
- أساس البلاغة - جار الله محمود بن عمر الزمخشري - طبع دار المعرفة بيروت ١٩٧٩ م .
- أسباب نزول القرآن - أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي - طبع دار القبلة ١٩٨٤ م .
- أسرار ترتيب القرآن - جلال الدين السيوطي - طبع دار الاعتصام بالقاهرة ١٩٧٦ م .

(*) لم نلتفت في ترتيب قائمة المصادر والمراجع إلى أداة التعريف ( أل ) ، كما لم نسجل اللقب العلمي لبعض السادة المؤلفين قرين أسمائهم مع الاحتفاظ بألقابهم العلمية .

- الإسلام على مفترق الطرق - محمد أسد - طبع دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٧ م .
- الإسلام والخلافة في العصر الحديث - محمد ضياء الدين الريس - طبع دار التراث بالقاهرة ١٩٧٦ م .
- الأشباه والنظائر - مقاتل بن سليمان البلخي - طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٥ م .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي - طبع الحلبي ١٩٦٨ م .
- الله أو الدمار - سعد جمعة - طبع المختار الإسلامي ١٩٧٦ م .
- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين الزركشي - طبع الحلبي بالقاهرة ١٩٥٧ م .
- تأويل مشكل القرآن - أبو محمد عبد الله بن قتيبة - طبع دار التراث بالقاهرة ١٩٧٣ م .
- التبصرة في القراءات السبع - أبو محمد مكي بن أبي طالب - طبع الدار السلفية بالهند ١٩٧٩ م .
- التحبير في علم التفسير - جلال الدين السيوطي - طبع دار العلوم بالرياض ١٩٨٢ م .
- تدريب الراوي - جلال الدين السيوطي - طبع مكتبة الرياض الحديثة د.ت .
- التذكار في أفضل الأذكار - أبو عبد الله محمد بن فرح القرطبي - طبع دار البيان بدمشق ١٩٧٩ م .

- التفسير البياني - عائشة عبد الرحمن ( بنت الشاطئ ) طبع دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٨ م .
- تفسير جزء عم - محمد عبده - طبع الشعب - بالقاهرة د . ت .
- التفسير الكبير ( مفاتيح الغيب ) - فخر الدين محمد بن عمر الرازي - طبع دار الفكر - بيروت ١٩٧٨ م .
- تفسير القرآن الحكيم - محمد رشيد رضا - طبع المنار بالقاهرة ١٣٤٦هـ .
- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء اسماعيل بن كثير - طبع الحلبي بالقاهرة د . ت .
- تفسير القرآن العظيم - محمود شلتوت - طبع دار الشروق بالقاهر ١٩٧٤ م .
- جامع البيان في تأويل آي القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - طبع الأميرية ببولاق القاهرة الأولى .
- الجامع الصغير - جلال الدين السيوطي - طبع دار الكتب العلمية بيروت د . ت .
- الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - طبع دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ م .
- حتى يغيروا ما بأنفسهم - جودت سعيد - مطبعة الحسين الجديدة بالقاهرة ١٩٧٧ م .
- الحرب والسلام في الإسلام - عبد الكريم الخطيب - طبع دار نجد ، دار الفكر ١٩٨١ م .

- حضارة العرب - « جوستاف لوبون » ترجمة عادل زعيتر - طبع الحلبي بالقاهرة ١٩٦٩م .
- الدستور القرآني في شؤون الحياة - محمد عزة دروزة - طبع الحلبي بالقاهرة ١٩٦٦ م .
- رسالة التوحيد - محمد عبده - طبع المنار بالقاهرة ١٣٦٨ هـ .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - شهاب الدين محمد الألوسي - طبع دار إحياء التراث د . ت .
- زاد المعاد في هدى خير العباد - ابن قيم الجوزية - المطبعة المصرية ومكتبتها بالقاهرة د . ت .
- سراج القارئ المبتدئ - أبو القاسم علي بن القاصح - طبع دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨١ م .
- سنن أبي داود - أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني - طبع دار الفكر للطباعة والنشر د . ت .
- سنن الترمذي ( الجامع الصحيح ) - أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي - طبع دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨٠ م .
- سنن الدارمي - أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي - طبع حديث أكادمي باكستان ١٩٨٤ م .
- السيرة النبوية - أبو محمد عبد الملك بن هشام - طبع إدارات البحوث العلمية بالرياض د . ت .
- شبهات حول الإسلام - محمد قطب - طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٨١م.

- الشخصية الإسلامية - (بنت الشاطئ) عائشة عبد الرحمن - طبع دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ م .
- صحيح ابن خزيمة - أبو بكر محمد بن خزيمة - تحقيق محمد الأعظمي - طبع الرياض ١٩٨١ م .
- صحيح مسلم - أبو الحسين مسلم بن الحجاج - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - طبع إدارات البحوث العلمية بالرياض ١٩٨٠ م .
- صحيح مسلم بشرح النووي - أبو زكريا يحيى بن شرف - طبع دار إحياء التراث العربي بيروت د . ت .
- عرض لتفسير سورة محمد - مصطفى زيد مخطوط بدار العلوم - جامعة القاهرة .
- الغاية في القراءات العشر - أبو بكر أحمد بن مهران النيسابوري - تحقيق محمد غياث - طبع الرياض ١٩٨٥ م .
- الغزو الفكري - محمد جلال كشك - طبع المختار الإسلامي بالقاهرة ١٩٧٥ م .
- غيث النفع في القراءات السبع بهامش السراج - على النوري الصفاقسي - طبع دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨١ م .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - طبع إدارات البحوث العلمية بالرياض د . ت .
- الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل - أحمد عبد الرحمن البنا - طبع دار الشهاب بالقاهرة د . ت .

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير - محمد بن علي الشوكاني - طبع دار الفكر ١٩٨٣ م .
- في ظلال القرآن - سيد قطب - طبع دار الشروق بالقاهرة ١٩٧٥ م .
- القتال في الإسلام - محمد بن ناصر الجعوان - طبع الرياض ١٩٨١ م .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل - أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري - طبع دار الفكر ١٩٧٧ م .
- لسان العرب - أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور - طبع دار المعارف بالقاهرة د . ت .
- مجموع فتاوي ابن تيمية - أحمد بن تيمية - جمع عبد الرحمن بن محمد النجدي - طبع رئاسة شؤون الحرمين - د . ت .
- محاسن التأويل - جمال الدين القاسمي - طبع دار إحياء الكتب العربية - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
- مختصر بلوغ المنية - علي محمد الضباع - طبع دار الفكر بهامش السراج - القاهرة ١٩٨١ م .
- المغني - أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي - طبع مكتبة الرياض الحديثة - الرياض ١٩٨١ م .
- المفردات في غريب القرآن - الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني - طبع الانجلو المصرية د . ت .
- مقدمة في أصول التفسير - أحمد بن تيمية - تحقيق عدنان زرزور - طبع الكويت ١٩٧١ م .
- مقدمتان في علوم القرآن - ابن عطية وصاحبه - تحقيق « آرثر جفري »

طبع الخانجي بالقاهرة ١٩٧٢ م .
- المكتفي في الوقف والابتداء - أبو عمرو عثمان الداني - طبع مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٤ م .
- الموطأ - إمام دار الهجرة مالك بن أنس ، طبع الشعب د : ت .
- موقف القرآن الكريم من المشركين قبل الهجرة - محمد محمد إسماعيل عبده - مخطوط بدار العلوم - جامعة القاهرة .
- نهج البلاغة - الإمام علي بن أبي طالب - جمع الشريف الرضي - طبع الحلبي القاهرة ١٩٦٣ م .
- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار - محمد بن علي الشوكاني - طبع الحلبي بالقاهرة د . ت .
- الوسيط بين المقبوض والبسيط في تفسير القرآن الكريم - أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي - مخطوط بمكتبة المؤلف .

## محتوى الكتاب وموضوعاته